معهد الدراسات الاسلامية
شعبة الدراسات الاجتماعية

الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية
فى الدولة الاموية
فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز

بحث

احمد فهمى عبد القادر

مقدم الى معهد الدراسات الاسلامية
لنيل درجة الماجستير
بإشراف الاستاذ الدكتور/ على حسنى الخربوطلى



١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م

فهـــــرس

صفحة

الباب الاول

العوامل المؤثرة فى قيام عمر بن عبد العزيز بالاصلاحات الاجتماعيـة والاقتصاديـة

الباب الثانى

الاصلاحـات الاجتماعيـة

صفحة

الباب الثالث

الاصلاحات الاقتصادية

XIXIXIXIXIXIXIXIX

"بسم الله الرحمن الرحيم"

مقدمة البحث

اخترت (الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية فى الدولة الاموية فى عصر الخليفة عمر بن عبد العزيز) موضوعا لبحثى للماجستير ، وقد دفعتنى الى اختيار هذا الموضوع عدة عوامل . فقد تطرق المستشرقون الى دراسة اصلاحات عمر ، وربما كان اهتمامهم أكثر من اهتمام المؤرخين المسلمين . ولكنهم اتبعوا المنهج العلمانى ، وفسروا اصلاحات عمر تفسيرا ماديا ، وأغفلوا الاسس الدينية والانسانية . وكانت مقاييس المستشرقين فى تقييم اصلاحات عمر ، هى مقاييس مادية نابعة من القرنين التاسع عشر والعشرين ، فلم يعيشوا بعقولهم وأقلامهم فى عصر عمر ، ولم يفطنوا الى الدوافع الحقيقية لاصلاحات عمر ، ولا الى النتائج العميقة التى ترتبت على هذه الاصلاحات .

اما المؤرخون المسلمون ، فقد طغت الجوانب الدينية فى دراساتهم عن اصلاحات عمر الاجتماعية والاقتصادية ، على الجوانب التاريخية فأبرزوا صورة عمر الخليفة الزاهد ، خامس الراشدين ، وأبدوا اعجابهم بزهده وتقشفه . وكانت مقاييسهم مستمدة من عصور الخلفاء الراشدين ، ولذا كان حكمهم على سائر الخلفاء الامويين قاسيا ، ومبالغا فيه . وليس هناك شئ هو خير كله ، أو هو شر مطلق . ولانستطيع ان نقول ان عمر بن عبد العزيز قد وصل الى الكمال التام ، كما صوره معظم المؤرخين ، القدامى والمحدثين .

وكان هدفنا البحث عن الحقيقة التاريخية ، البعيدة عن الغلو والمبالغة ، ولكننا وجدنا مصادرنا التاريخية القديمة حافلة بالروايات المتعددة ، بعضها يخضع للمنطق ومقاييس العقل ، والبعض الاخر من الروايات اصبحت مجرد اساطير ، لا يرضى عمر بن عبد العزيز

نفسه عنها ، وان كانت ترضى مشاعر العامة فى كل عصر ، فقد نسبت روايات المؤرخين الاقدمين الى عمر كرامات ومعجزات وخوارق ، فتحدث عن تبشير الخضر له بالخلافة ، ورثاء الجن له ، ونزول رق من السماء ساعة الوفاة به تبشير بالجنة ، وتحول الذئاب الى كلاب مستأنسة ، وغير ذلك من الروايات التى لا يمكن لمؤرخ محدث ان يأخذ بها .

وان كانت اصلاحات عمر قامت على أسس دينية ، ونبعت من روح الاسلام وتعاليمه وأحكامه ، الا أن هذه الاصلاحات اتجهت ايضا اتجاهات حضارية ، فكان الهدف منها رضا الله تعالى ، ورضا الرعية ، وتقدم حضارة الامة الاسلامية . وقد اجتهد عمر فى كثير من القضايا الاجتماعية والاقتصادية ، التى نبعت من ظروف العصر وحاجات المجتمع . ولذا كان لابد من ابراز اجتهادات عمر ، وقد استمدها من خبرات طويلة فى الدولة الاموية ، فقد شهد حكم أبيه عبدالعزيز بن مروان لولاية مصر ، وهى من أكبر ولايات الدولة الاموية ، كما تولى عمر حكم امارة فى الشام ، ثم حكم بلاد الحجاز ، وكان ملازما للخليفة سليمان بن عبدالملك ، مستشارا له فى شئون الدولة . كما عاصر عمر احداث الدولة الاموية فى عهود جده مروان ، وعمه عبدالملك بن مروان ، ثم ابن عمه الوليد بن عبدالملك ، وشهد حركات الخوارج والشيعة ، والثورات المضادة المتعددة فى بلاد العراق . ولذا كان لابد لنا من ابراز جهود عمر واجتهاداته ، المستمدة من ايمان عميق ، ونفس صافية ، وعقل راجح ، وخبرات طويلة ، وتجارب واقعية . والاسلام دين ودنيا ، ولذا كان من المحتم على الباحث ان يهتم بالسياسة الدنيوية ، التى

ترتبط بمصالح الرعية ومعاشهم ورضائهم ، وتوضيح أبعاد ارتباطها بالقواعد الدينية . ولكن كثيرا من الباحثين المحدثين نظرا الى عمر بن عبد العزيز على انه " رجل دين " او " واعظ مرشد " ، أو " زاهد متصوف " ، ولم ينظروا اليه كخليفة ، ورئيس دولة عظمى تمتد من وسط آسيا شرقا الى المحيط الاطلسى غربا ، وتضم أقاليما فى قارات العالم الوسيط : آسيا ، وافريقية ، وأوروبا .

ولما كان عمر بن عبد العزيز حفيدا لعمر بن الخطاب من ناحية امه ، فقد ربط معظم المؤرخين بين العمرين ، واعتبروا عمر الاموى الصورة المكررة لعمر الراشد . ولكن هؤلاء المؤرخين اهملوا الفارق الزمنى ، وتغير ظروف الدولة . لقد عايش عمر بن الخطاب عصر النبوة بأمجادها ، فنشأ وتعلم وتدرب فى مدرسة الرسول عليه الصلاة والسلام . بينما تربى عمر بن عبد العزيز بين امراء بنى أمية ، وكان مثلهم فى شبابه ، فى ترفهم ورفاهيتهم . وعمر بن الخطاب منذ اسلم وحتى مات لم يتغير ، بينما نرى عمر بن عبد العزيز وهو خليفة يختلف تماما عنه وهو شاب ، او وهو أمير لبلاد الحجاز . كما قام عمر بن الخطاب بأعباء الفتوحات الاسلامية فى العراق وفارس والشام ومصر ، بينما نرى عمر بن عبد العزيز يتوقف عن سياسة الفتوحات التى شهدها عصر الوليد بن عبد الملك ، ثم سليمان بن عبد الملك ، فقد اهتم ابن الخطاب بالسياستين الداخلية والخارجية على السواء ، بينما رأى عمر بن عبد العزيز تركيز جهوده فى الميادين الداخلية . كما كان ابن الخطاب يحكم الدولة من العاصمة المدينة المنورة ، وحكم عمر بن عبد العزيز من دمشق ، وهناك عدة فوارق عميقة بين بيئة الحجاز وبيئة الشام ، فضلا عن اختلاف

؟

ظروف العصر . وان اتفق العمران فى الزهد فى أموال الدولة ، وفى الشدة مع الولاة والعمال ، وفى الحرص على الاسلام وتعاليمه ، الا أنهما يختلفان فى كثير من الجوانب. ولذا على الباحث المحدث ألا يسير فى خط المؤرخين الاقدمين الذين لا يفصلون مابين العمرين .

وجدنا صعوبات فى جمع مادتنا العلمية ، فالمؤرخون الاقدمون يدرسون تاريخ عمر بن عبد العزيز على أنه وحدة نوعية ، ولا يفصلون مابين هو اصلاح دينى وخلقى ، وما هو اصلاح حضارى ، اجتماعى واقتصادى . والاسلام يعطى المسلم الكليات والعموميات ، ويترك له الجزئيات والتفاصيل ، يضعها ويطورها ، حسب ظروف الزمان والمكان . وهكذا يفتح الاسلام باب الاجتهاد ، وقد اجتهد عمر بن عبد العزيز بوحى من ايمانه العميق ، ومن ضميره اليقظ . ولذا أصبح من واجبنا استنباط أخبار الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية من بين آلاف الروايات التاريخية ، الواقعية أو الخيالية . ومصادرنا القديمة تهتم بالجوانب السياسية والادارية أكثر من اهتمامها بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية ولا تعطى تفاصيلا تشبع الرغبة فى التوسع فى البحث والتعمق فيه ، كما لاتهتم ايضا بدراسة المبررات والنتائج ومعظم أخبار الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية فى المصادر التاريخية الاصلية هى رسائل تبادلها عمر بن عبد العزيز مع ولاته وعماله ، أو احاديث وحوار مابين عمر وجلسائه ، أو بعض خطب منبرية .

اطلعنا على عديد من المصادر الاصلية والمراجع الحديثة ، العربية والافرنجية . واهتممنا بابحاث المستشرقين . وقد تنوعت المصادر مابين مصادر تاريخية ، وأدبية ،

وكتب الخراج والمال . ولما كان التاريخ الاسلامى قد تم تدوينه فى العصر العباسى ، فقد حافظ المؤرخون العباسيون على ذكرى عمر بن عبد العزيز ، فلم يحرقوها أو يشوهوها ، بل كان عمر هو الخليفة الاموى الوحيد الذى نال تقدير واحترام الخلفاء العباسيين ، بل ان ابا يوسف الذى وضع دستورا اقتصاديا للدولة العباسية بتكليف من الخليفة هارون الرشيد ، أشار دائما الى النظم التى استحدثها عمر بن عبد العزيز ، وأشاد بها ، ونصح الرشيد باتباعها كقدوة طيبة وأسوة حسنة . ولذا كنا مطمئنين غالبا الى صدق الروايات التاريخية الواردة فى هذه المصادر العباسية ، اللهم الا بعض الاساطير الخيالية التى سبق لنا الاشارة اليها .

استفدنا كثيرا من الترجمتين الوافيتين اللتين كتبهما ابن كثير ، وابن الجوزى ، فقد قدما فصلا كل ما قد يحتاجه الباحث من أخبار عمر بن عبد العزيز . ولكن كان من المحتم علينا ان نطلع على مصادر التاريخ الاسلامى العام ، حتى نربط بين أحداث عهد عمر ، والاحداث السالفة لعصر عمر ، والتالية لها . اذ ان عمر حلقة فى سلسلة الخلفاء الامويين ، كما كانت اصلاحاته هى تلبية لمشاكل وحاجات تولدت فى العصور السابقة على عصره . كما اطلعنا على ابرز المصادر الادبية ، للوقوف على الاصلاحات الاجتماعية ، مثل كتب الجاحظ وابن عبد ربه والاصفهانى وغيرها . كما كان من المحتم أيضا دراسة كتب الخراج والاموال لمعرفة الاصلاحات الاقتصادية ، الى جانب الاطلاع على بعض كتب الجغرافية الاسلامية ، ومعاجم البلدان . كما اطلعنا على أبحاث المستشرقين ، فالفكر عالمى الطابع والاتجاه ، ولابد ان نرى صورة عمر بن عبد العزيز فى مرآة الغرب المسيحى .

اتبعنا الطريقة الموضوعية فى البحث التاريخى ، فقسمنا بحثنا الى ثلاثة أبواب ، تدرس ثلاثة موضوعات رئيسية ، تتفرع الى موضوعات فرعية . فدرس الباب الاول العوامل المؤثرة فى قيام عمر بن عبد العزيز بالاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية . اذ ان هذه الاصلاحات الجوهرية الحيوية ، لم تقم من فراغ ولم تظهر فجأة ، بل هى وليدة تراكمات ماضية ، وحاجات ملحة ، وظروف متطورة .

وفى هذا الباب الاول درسنا خمسة موضوعات ، فتناول الموضوع الاول ظروف نشأة عمر وتربيته . وقد كان الخليفة فى العصور السالفة هو مصدر جميع السلطات ، وتنطبع احداث عهده بطابعه الشخصى الخاص ، وقراراته صادرة عن عقله ونفسيته وأخلاقه . والانسان يكتسب مقومات شخصيته عن الوراثة والبيئة ، والتربية . ولذا درسنا هذه العوامل الثلاثة فى حياة عمر ، وعشنا معه حتى تولى الخلافة . ثم درسنا فى الموضوع الثانى (العوامل النفسية) التى ساهمت فى تكوين عمر النفسى ، وجعلته ينقلب انقلابا فجائيا ، من أمير أموى مترف مرفه ، الى خليفة زاهد ورع عادل حازم . وهذا الفصل هو محاولة منا فى ابراز منهج جديد فى دراسة التاريخ ، يتجه الى الاهتمام بالتفسير النفسى لاحداث التاريخ . فالشخصية التاريخية هى مجموعة من الخصائص النفسية ، تتأثر وتؤثر .

ودرسنا فى الموضوع الثالث الثورات والحركات المعارضة ، فقد كان مولد عمر فى سنة ٦١ هـ التى شهدت استشهاد الحسين بن على ، وتتابعت احداث

خطيرة ، مثل حركة عبد الله بن الزبير ،وموقعة الحرة ،وحصار الكعبة ،ثم حركة المختار الثقفى ، ثم حركة التوابين ،وثورة عبد الله بن الجارود ،وثورة عبد الرحمن بن الاشعث، الى جانب حركات كثيرة للخوارج اتصفت بالعنف والارهاب . وقد ورث عمر بن عبد العزيز تركة مثقلة بالاعباء والمشاكل ،وكان عليه ان يواجهها ويعالجها ، وهذا الفصل يبرز الداء ،الذى وصف له عمر الناجع من الدواء .

ثم درسنا موضوعا رابعا تناول (مشكلة الموالى) وهم المسلمون من غير العرب ، وكانوا يمثلون الغالبية العظمى من رعايا الدولة الاموية ،بعد الفتوحات الاموية الواسعة ، شرقا وغربا . وينتسبون الى أصول جنسية مختلفة ،ذات حضارات قديمة عريقة . ولكن الدولة الاموية كانت دولة عربية ، قلبا وقالبا ، اعتزت بعروبتها ،وبلغ الاعتزاز احيانا درجة التعصب ضد العناصر الجنسية الاخرى التى أعتنقت الاسلام . وشعر الموالى أنهم غرباء فى هذه الدولة الاموية ،وتمنوا سقوطها ،وانضموا الى كل الحركات المعارضة المضادة للامويين . فقد حرمهم الامويون من حقوقهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وأهمل الامويون التوفيق بين العناصر المختلفة ،وبين ذوى المصالح المتعارضة ،مما أدى الى صراع اجتماعى هدد وحدة الدولة . بل كانت مشكلة الموالى من أبرز عوامل سقوط الدولة الاموية سنة ١٣٢ هـ . واصبح من المحتم على عمر بن عبد العزيز مواجهة مشكلة الموالى ، مما يحقق تعاليم الاسلام التى تحث على المساواة العنصرية ،فضلا عن تحقيق الامن والسلام فى المجتمع.

وتحدث الموضوع الخامس من موضوعات الباب الاول عن (فساد الجهاز الحكومى) فقد توالى على الدولة الاموية خلفاء سفيانيون ومروانيون ، اختلفوا فى درجات عدلهم وانصافهم واهتمامهم بشئون الحكم والادارة ، ولم يهتم بعضهم باختيار عناصر الجهاز الحكومى ، واتصف بعض الولاة بالاستبداد والجبروت والفساد والظلم . واختلفت صور الانحلال الحكومى والفساد الادارى ، وتعددت صور المظالم . وكان لابد من مواجهة ميراث الماضى ، فى شجاعة وحزم ، وهو ما فعله عمر بن عبد العزيز .

اما الباب الثانى فيدرس اصلاحات عمر الاجتماعية ، وقد درسنا فى هذا الباب ستة موضوعات ، اولها (أسس الاصلاح الاجتماعى) وهل هى أسس دينية أم هى أسس حضارية ، وهل تعتمد على العقل والمنطق أم تنبع من ظروف المجتمع وحاجاته ، وهل أراد عمر ارضاء الله أم الشعب ؟ .. وتناول الموضوع الثانى (القدوات الاجتماعية) فالاصلاح الاجتماعى لا يكون بالشدة والقسر ، ولا يكون بالوعظ والارشاد فحسب ، بل هو عن طريق الاقناع والاقتناع ، وهذا يتم بطريق خلق القدوة الطيبة والاسوة الحسنة . ورأى عمر ان يمنح المجتمع المثل العليا التى يقتدوها ، فبدأ بنفسه ، حتى انه غير كل ظروف حياته السالفة ، منذ اللحظة الاولى لتوليه الخلافة ، حتى أصبح أنسانا جديدا ، ثم اتجه الى أهل بيته الاموى ، فرد المظالم التى اقترفوها .. ثم اختار أفضل الولاة والعمال بعد ان قام بحركة تطهير شاملة .

اما الموضوع الثالث فيدرس (العدالة الاجتماعية) ، فدرسنا اتجاهاتها العامة ، نحو جميع الرعايا والاقاليم ، بدون تفرقة عنصرية أو دينية ، ورأينا الاجهزة الحكومية التى

ضمنت وسائل التنفيذ ، ثم شهدنا متابعة عمر لضمان تحقيق العدالة ، ثم عقاب كل من ينحرف فيبعد عن الحق والعدل . وربط عمر بين العلم والعدل ، ووصل الى المفهوم الكامل للعدل ، وأصلح نظام القضاء ، وأقر الامن الاجتماعى ، وأستمع الى كل شكاية ومظلمة ، وأهتم بالرأى العام .

ودرس الموضوع الرابع (السلام الاجتماعى) ، فقد واجه عمر الصراعات الاجتماعية التى هددت وحدة المجتمع والامة ، فحارب العصبية الجنسية ، والشعبية ، والقبلية ، والاقليمية وانصف عمر الموالى وحل مشكلتهم الاجتماعية ، فعادوا يساهمون فى نهضة الحضارة الاسلامية وهدأ عمر من ثورة الاحزاب والجماعات المعارضة ، وخاصة الخوارج والعلويين والشيعة . وحقق عمر الضمان الاجتماعى ، مما اخفقت فيه حكومات العصر الحديث ، وأهتم بالتكافل الاجتماعى وعطف على الفقراء والمحتاجين ووفر لهم الرعاية الاجتماعية ، وحقق المساواة بين ابناء المجتمع ، وتشدد فى جمع الزكاة باعتبارها تخدم حاجات المجتمع .

ويدرس الموضوع السادس والاخير (أهل الذمة فى المجتمع الاسلامى) ، فدرسنا أوضاع أهل الذمة فى العصور السابقة لعمر ، ودور اهل الذمة فى المجتمع الاسلامى . ثم رأينا سياسة التعايش الدينى فى عهد عمر ، ودرسنا اهتمام عمر بتحديد حقوق وواجبات اهل الذمة . ثم درسنا ازالة عمر لمظالم الحجاج الثقفى ، وتحدثنا عن مفهوم ضريبة الجزية وحكمتها ، ثم ناقشنا بعض آراء المستشرقين .

اما الباب الثالث فيدرس (الاصلاحات الاقتصادية) ويضم أربعة موضوعات، أولهما (الحرص على المال العام) ، وهى سياسة جديدة استحدثها عمر ولم يشهدها العصر الاموى قبله . وقد ضرب عمر فى حياته الخاصة والعامة أمثلة شخصية رائعة لهذا الحرص على مال الدولة والشعب . وهو هنا " رجل دولة " اكثر منه " زاهد متصوف ". وأطلق عمر شعارا جديدا هو : " الدراهم دم فلا يجوز ان يجرى فى غير عروقهم " ، وهو شعار العدل . ورأينا تطبيق هذا الحرص على مال الامة ، فى دائرة البيت الاموى ، ولم يجد عمر حرجا فى اتهام اسلافه من الخلفاء الامويين بعدم الحرص على اموال رعاياهم . ورأينا هذه السياسة تمتد الى جميع ولاة عمر وعماله فى الامصار الاسلامية .

ودرس الموضوع الثانى (سياسة التقشف الاقتصادى) ، فقد أصبح " الايمان " واقعا حضاريا ، وقد أحدث عمر انقلابا صحيا فى حياة الامة الاسلامية ، وقد طبق عمر سياسة التقشف على نفسه ، وبيته وفى مصروفات الدولة . ولم يكن عمر بخيلا شحيحا ، بل كان احيانا جوادا كريما . وهناك فارق بين الاقتصاد والبخل ، فالاقتصاد تدبير وتوفير ، والبخل شح وتقتير . وكان عمر متشددا فى مال الشعب ، كريما فى ماله الخاص . ونظر عمر الى " بيت المال " نظرات جديدة ، فلم تكن هى " المخزن " الذى يختزن الولاة فيه الدنانير ، ولم يجد عمر بأسا من انفاق كل مافى بيت المال فى حاجات رعاياه ومنافع الناس ، فنهى عن الاكتناز ، ورد الحقوق الى اصحابها ، ولكنه امر أيضا بالاقتصاد فى الانفاق العام ، وأوقف عمليات الاختلاس والابتزاز والرشوة . ولم تؤد سياسة التقشف الى فقر ، بل وفرت الاموال لمصالح الشعب وحققت الرخاء للفرد ، فلم يعد هناك فقير أو



محتاج ، يستحق أموال الزكاة . وفى ختام هذا الفصل ناقشنا قضية امتناع عمر عن البناء والعمران ، فلم يقم بمنشئات عمرانية جديدة ، بل لم يصلح القائم منها فعلا .

ودرسنا فى الموضوع الثالث (عدالة الضرائب ، والنظم المالية ، وحرية التجارة) ، فرأينا رسائل عمر الى ولاته وعماله تأمرهم بالرفق بالرعية ، وتحديد الضرائب ، وتخفيفها ، كما أمرهم بالقيام بالاصلاحات الزراعية ، ومنع المظالم ، والغاء الضرائب الاضافية ، والهدايا والسخرة . وقدم عمر سلفا نقدية للمزارعين ، واعطى ضمانات كثيرة للفلاحين ، واعلن عمر ان (الهداية) قبل (الجباية) ، وأبدى المستشرقون اعجابهم بنظم عمر المالية ، فى الخراج ، والجزية ، والعطاء والصدقات ، والارزاق . ثم رأينا نظام عمر اللامركزى ، واطلاقه لحرية التجارة ، فى البر والبحر ، وحرصه على تنمية الثروة والدخل القومى ، ورفع مستوى المعيشة . واهتمامه بالغاء المكوس والعشور . ثم ناقشنا قضية ارتفاع الاسعار فى عهد عمر ، ورأى عمر فى هذه القضية ، وهو رأى يتفق مع النظريات الاقتصادية الحديثة ، ورفض عمر اتباع نظام التسعيرة الجبرية .

ويدرس الموضوع الاخير من الباب الثالث (نظم الخراج وملكية الاراضى) ، فدرسنا تطور هذه النظم منذ عهد عمر بن الخطاب حتى عهد عمر بن العزيز ، ثم درسنا نظم عمر التى استحدثها لحل مشاكل معقدة قائمة . وقد اعترف المستشرق (فلهوزن) بصعوبة بحث كل مؤرخ فى هذا الموضوع . فتحدثنا عن انواع الارض ، أرض الخراج ، وأرض الفىء ، وأرض العشور ، والصوافى ، والاقطاعيات ، وناقشنا بعض اتهامات المستشرقين المجحفين .

التكلم بضمير الجمع

اتبعنا اركان المنهج العلمى فى البحث التاريخى ، وناقشنا قضايا تاريخية جديدة ، وطرحنا عدة تساؤلات تتناول بعض مشكلات التاريخ ، وقمنا بالرد عليها ودراستها ، واجتهدنا فى الوصول الى نتائج علمية جديدة • ونرجو من الله عز وجل ان يكون التوفيق قد حالفنا ، فيما هدفنا اليه ، انه عز وجل ولى التوفيق •

وفى الختام ، لا أجد كلمات أعبر بها عن شكرى العميق لاستاذى الكبير المؤرخ الجليل الاستاذ الدكتور على حسنى الخربوطلى لتفضله بقبول الاشراف على هذا البحث ، ولبذله الوقت والجهد ، طوال اعداد البحث • كما أشكر الاستاذين الجليلين عضوى لجنة المناقشة لتفضلهما بقبول فحص ومناقشة البحث • جزاهم الله تعالى جميعا عن العلم والباحثين أحسن الجزاء •

الباب الاول

العوامل المؤثرة فى قيام عمر بن عبد العزيز بالاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية

١- ظروف النشأة والتربية .
٢- العوامل النفسية .
٣- الثورات والحركات المعارضة .
٤- مشكلة الموالى .
٥- فساد الجهاز الحكومى .

١ـ ظروف النشأة والتربيـــــة

يدرس بحثنا هذا الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية فى الدولة الاموية فى عهـــد الخليفة عمر بن عبد العزيز . وهذه الاصلاحات العظيمة التى اجمع المؤرخون الاقدمـــون والمحدثون على امتداحها والاشادة بها ، هـــى فى الحقيقة نابعة من عقـــل عمر ونفسيتـــه وقد أحدث بها تغييرا راسخا عميقا فى مسار الدولة الاموية.

وكانت سياسة الدولة مرتبطة بشخصية الخليفة القائم بالخلافة ،فهو مصدر السلطـــات وهو أيضا صاحب القرار ،وغالبا مايقوم الخليفة التالى باحداث تغييرات على سياسة سلفـــه ولذا أصبح من المحتم على الدارسين لتاريخنا الاسلامى ،معرفة شخصية كل خليفة ،ودراسة عقليته ونفسيته وأخلاقه ،لانها كلها تنطبع على سياسته وقراراته ومناهجه.

فكان الناس يلتقون فى عصر الوليد بن عبد الملك فيسأل بعضهم بعضا عن البنـــاء والمنشئـــات . حتى اذا تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة وهو صاحب زواج ونهم. أصبح الناس يتساءلون عن الجوارى والطعام . فلما ولى عمر بن عبد العزيز ، كان الناس يلتقـــون فيقول الرجل للآخر : ماوردك الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن ؟ وما تصوم به من الشهر؟ (١)

وتعدد الخلفاء الامويون ،واختلفت سياساتهم ومناهجهم فى الحكم والادارة ،وفـــى الاجتماع والاقتصاد . وأثرت ظروف المنشأة والتربية فى شخصية كل خليفة ،وطبعت عقليتـــه

---

(١) ابن الجوزى : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٣٠ .

ونفسيته بطابع خاص . ولذا علينا ان نرجع الى الوراء خطوات حتى نعرف الظروف التى أحاطت بعمر بن عبد العزيز ،فبثت فيه تلك الاتجاهات نحو الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى .

الأب :

أما الاب ،فهو عبد العزيز بن مروان . وهو ابن الخليفة مروان بن الحكم ،أول الفرع المروانى الذى حكم الدولة الاموية بعد نهاية حكم الفرع السفيانى (١) ، وظل أبناؤه وأحفاده يحكمون حتى نهاية العصر الاموى .

كان مروان المعلم الاول لابنائه ،فقد نشأ نشأة اسلامية ،وترسم خطى عمر ابن الخطاب فى شبابه ، ثم تتلمذ فى رجولته على ابن عمه عثمان بن عفان الذى اشتهر بتقواه وورعه . واعتبر مروان من الطبقة الاولى من التابعين. وبقى مروان وأسرته بالمدينة مدة أربعين سنة ،من سنة ٢٤ هـ الى ٦٤ هـ ،لم يبرحها الا لرحلات وسفرات مؤقته . واتاح له وجوده بالمدينة فرصة واسعة كى يتعلم علوم الدين ويتفقه فيها ،

(١) الفرع السفيانى : نسبة الى معاوية بن أبى سفيان ،وقد خلفه ابنه يزيد بن معاوية، ثم معاوية الثانى الذى تنازل عن الخلافة دون ان يختار وليا للعهد،، فوقعت العصبية بين الامويين ،وتقاتلوا فى مرج راهط حتى نجح مروان بن الحكم فى الوصول الى الخلافة. (ابن الاثير : الكامل جـ٤ ص٦ ومابعدها).

اذ كان على مقربة من الصحابة والتابعين ،وفى مقدمتهم عثمان بن عفان وزيد بن ثابت .(١)
وكانت المدينة مدرسة لعلوم العربية وللفقه الاسلامى ،ومدرسة للسياسة والادارة العربية.(٢)

أخذ مروان البيعة بولاية العهد لابنه عبد الملك ثم لابنه عبد العزيز ،وكان عبد العزيز يصغر عبد الملك بشهور قليلة (٣) . واشتهر عبد العزيز باسم " ابن ليلى " نسبة الى امه . (٤) وهى من قبيلة كلب اليمنية . (٥)

وكانت اول صلة بعبد العزيز بن مروان بمصر حين قدم مع أبيه الخليفة مروان ابن الحكم لانتزاعها من ولاة عبد الله بن الزبير . (٦) واشترك عبد العزيز فى المعارك الحربية ،وكافأه أبوه بعد الانتصار فولاه حكم مصر (رجب سنة ٦٥ هـ) ،ويروى الكندى ان مروان أوصى ابنه عبد العزيز ،قبل رحيل مروان عن مصر ، فقال : " أوصيك بتقوى الله فى سر امرك وعلانيتك ،فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ،وأوصيك

---

(١) زيد بن ثابت : كان كاتبا للوحى ،وفى عهد عثمان أصبح فى مقدمة مستشاريه
(٢) سيدة كاشف : عبد العزيز بن مروان ص ١٥—١٦
(٣) الطبرى جـ ٨ ص ٥٤
(٤) ليلى بنت زبان بن الاصبغ بن عمرو بن ثعلبة بن الحارث بن حصن بن ضمضم بن عدى بن جناب بن كلب .
(٥) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٨٠
(٦) انظر كتاب (عبد الله بن الزبير) للدكتور على حسنى الخربوطلى تجد كثيرا من التفاصيل .

ألا تجعل لداعى الله عليك سبيلا فان المؤذنين يدعون الى فريضته افترضها الله عليك . ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا . وأوصيك الا تمد الناس موعدا الا انفذته وان حملت على الاسنة . وأوصيك الا تعجل فى شئ من الحكم حتى تستشير ، فان الله عز وجل لو أغنى احدا عن ذلك لاغنى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم عن ذلك بالوحى الذى يأتيه . قال الله عز وجل (وشاورهم فى الامر) "(١) واستجاب عبد العزيز لنصائح ابيه مروان ، ونجح فى ادارة شئون مصر ، لمدة عشرين عاما .

وكانت فترة ولاية عبد العزيز لمصر ، فترة حافلة بالاصلاحات والمنشئات . على عكس ابنه عمر حين يتولى الخلافة ، فلا نجد للخليفة عمر منشئات تذكر ، بل ان المؤرخين يروون عن عمرانه كان يكره البناء . (٢) وقد انشأ عبد العزيز سنة ٦٧ هـ فى العاصمة المصرية الفسطاط دارا للامارة عرفت بدار عبد العزيز ، تطل على النيل ، وتعلوها قبة مذهبة ، وبلغ من روعتها أن اطلق الناس عليها اسم (المدينة) كما شيد عبد العزيز فى الفسطاط الحمامات والاسواق والقيساريات ، وزاد فى جامع عمرو بن العاص . (٣)

---

(١) الكندى : الولاة والقضاء ص٤٨ .

(٢) روى ابن عبد الحكم (سيرة عمر بن عبد العزيز ص٥٧) ان عمر قال : " انى اعطيت الله عهدا ان وليت هذا الامر ألا اضع لبنة على لبنة ، ولا آجرة على آجرة " .

(٣) ابن عبد الحكم ص١٣٠ ، الكندى : الولاة والقضاة ص٥١ .

ثم اختار مدينة حلوان سنة ٧٠ هـ مقاما له ، واهتم بتعميرها (١) . وقد شهدت حلوان قدوم عمر بن عبد العزيز .

اشتهر عبد العزيز بن مروان بالحزم وحسن الادارة ، ولهذا استطاع ان ينهض بجميع المرافق فى مصر ، كما اهتم بتعريب مصر ، واشتهر بالتسامح مع أهل الذمة والعطف عليهم (٢) ، وقام عبد العزيز ببناء واصلاح الكنائس . واشتهر عبد العزيز أيضا بالورع والتقوى وبحبه لمجالسة الفقهاء والعلماء والادباء ، وبكرمه الواسع ، وتمتع فى حكم مصر باستقلال كبير حتى كان المصريون يلقبونه بلقب (خليفة) . (٣)

وتعرض عبد العزيز لمحنة خلعه من ولاية العهد ، فقد خلعه اخوه الخليفة عبد الملك بن مروان ، ليفسح الطريق الى الخلافة لابنه الوليد بن عبد الملك ، بتحريض من الحجاج بن يوسف الثقفى ، وتألم عبد العزيز وكتب الى اخيه عبد الملك معاتبا : " يا امير المؤمنين ، انى واياك قد بلغنا سنا لم يبلغها احد من أهل بيته الا كان بقاؤه قليلا ، وانى لا ادرى ولا تدرى أينا يأتيه الموت ، فان رأيت ألا تفثث على بقية عمري فافعل " . (٤) ـ ويذكر المؤرخ الكندى ان عبد العزيز رفض التنازل عن حقه

---

(١) رحل عبد العزيز بن مروان عن الفسطاط بسبب انتشار الطاعون وبنى فى حلوان الدور والمساجد والبساتين وبرك الماء والقناطر وميناء للسفن (انظر خطط المقريزى تجد كثيرا من التفاصيل ، جـ ٢ ص ٢٦٠ ومابعدها) .

(٢) كان والى الصعيد فى اواخر ولاية عبد العزيز قبطيا اسمه بطرس كما كان حكم مريوط قبطيا اسمه (تاوفانس) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٠٣

(٣) سيدة كاشف : عبد العزيز بن مروان ص ١٩٣ ـ ١٩٤

(٤) الطبرى جـ ٨ ص ٥٤

في ولاية العهد ،وكتب الى عبد الملك :" ان يكن لك ولد فلنا اولاد ويقضي الله بما يشاء ".[(١)] ولكن عبد الملك مضى في مشروعه ،فبايع بولاية العهد لابنيه ،الوليد ثم سليمان. وسرعان ما مات عبد العزيز ،ولكن الله تعالى شاء ان يعود الحق الى أصحابه ،فقد بايع سليمان لعمر بن عبد العزيز بن مروان بالخلافة بعده.

الأم :

أما الام ،فهي أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ،وكان عمر يعتز بأمه.[(٢)] وكان مولد عاصم في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ،ولذا يعتبر من الصحابة ،ومن رواة الاحاديث الشريفة . واشترك في فتوحات افريقية تحت قيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٧ هـ .[(٣)] وعاش عاصم ،بعد ذلك في المدينة يروي الاحاديث ويشتغل بالعلم .

ويروي المؤرخون[(٤)] قصة طويلة[(٥)] عن زواج عاصم من فتاة من بني هلال، وقد زوجه بها أبوه عمر بن الخطاب واشتهرت بالتقوى والتدين. وقال عمر لابنه عاصم وهو يحثه على الزواج منها : " اذهب يابني فتزوجها ،فما احراها ان تأتي بفارس

---

(١) الولاة والقضاء ص ٤٠
(٢) فلهوزن : الدولة العربية ص ٢٥٩
(٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٨٥
(٤) ابن الجوزي ص ٦٥ ،ابن عبد الحكم ص ١٧ . ابن العماد : شذرات الذهب ج ١ ص ١١٩
(٥) خلاصة القصة ان عمر كان يعس في المدينة ،فأصابه اعياء ،فاتكأ على جدار داره، فسمع امرأة تقول لابنتها : " قومي الى ذلك اللبن فامذقيه بالماء " ورفضت الفتاة تنفيذ أمر أمها اتباعا لاوامر الخليفة عمر بن الخطاب يمنع خلط الماء باللبن. وأعجب عمر بالفتاة وفكر في الزواج منها ثم رأى تزويجها لابنه.

ولد قبل وفاة الرسول بسنتين مات سنة ٧٠ هـ

بفارس يسود العرب ". (١) وانجبت الزوجة الهلالية ابنة اسموها " أم عاصم " ،وتعلمت رواية الاحاديث النبوية الشريفة ، وتأثرت بتقاليد وعادات بيت عمر بن الخطاب ، فاشتهرت هى أيضا بالزهد والتقشف ". (٢)

اختار عبد العزيز بن مروان أم عاصم لتكون شريكة حياته ، بعد تفكير عميق ،واختيار دقيق . وأراد ان يكون مهر زوجته من المال الحلال ، فقد اختلطت أموال سائر الامويين ،فأصبح فيها الحلال وما هو مجلوب من مظالم . (٣)

ولدت أم عاصم لزوجها عبد العزيز بن مروان أشقاء أربعة : أبا بكر وعمر ومحمدا وعاصما ،ولكن مواريث الابوين اخذت تجتمع فى عمر اكثر مما تجتمع فى اخوته ،فورث منها صفات تتفق وتختلف : ورث منهما معا جوهر التقوى وحب المروءة والميل الى الانصاف وورث من ابيه خاصة ذوقه الرفيع وادراكه الدقيق وورث من امه خاصة حدتها وحماستها ولسنها وقصدها فى الكلام. فانه حين استترت حدة عمر بن الخطاب فى ابنه عاصم ،عادت فظهرت فى حفيدته أم عاصم ،فلم تكن تدع امرا يهيجها الا اهتاجت له ،ولم تترك غلطة ولا هفوة الا حاسبت عليها حسابا عسيرا ، ولو كان المخطىء زوجها لم تعفه ، وحتى لو كان هذا الزوج واليا من اكبر الولاة . (٤)

---

(١) ابن الجوزى ص ٦٥

(٢) الاصفهانى : الاغانى ج ٨ ص ١٥٥ . روى الاصفهانى ان أم عاصم كانت دائما تردد الحديث النبوى الشريف : " نعم الادام الخل ".

(٣) قال عبد العزيز بن مروان لقيم امواله : " اجمع لى اربعمائة دينار من طيب مالى . فانى اريد ان أتزوج الى أهل بيت لهم صلاح ". (ابن الجوزى : صفوة الصفوة ج ٢ ص ٦٣).

(٤) عبد العزيز سيد الاهل : الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز ص ١٩.

النشـــأة الاولـــــى :

اختلف المؤرخون في سنة مولد عمر بن عبد العزيز ،ونرى أن مولده كان في سنـــة ٦١ هـ.(١) ويصف المؤرخون عمر بانه كان ممتلئ الجسم ،ريان العود ،أبيض اللــون ، جميل الهيئة ،دقيق الوجه ، مترفا منعما .(٢)

طلب عبد العزيز بن مروان من زوجته ان تتقدم عليه في حلوان مع ابنها عمر. ولكـن عبد الله بن عمر بن الخطاب طلب منها ان ترحل الى زوجها وحدها وتترك عمر في المدينة ، فهي البيئة الاسلامية العربية الاصيلة ،الصالحة لتنشئة هذا الصبي. وقد قضـــــى عمر في المدينة الشطر الاكبر من صباه ، فتغذى عقله بالتراث الروحي في مدينـــــة الرسول (٣) . ويروى المؤرخون ان عبد الله بن عمر قال لاخته : " خلفي هذا الغـــلام عندنا ، فانه أشبهكم بنا أهل البيت ".(٤)

---

(١) اختلفت الروايات ،فهناك رواية تحدد سنة ٥٩ هـ ،ورواية تحدد سنة ٦٣ هـ . ونميل الى رواية ابن كثير (البداية والنهاية جـ ٧ ص ١٤٠) وجاء فيها ان مولد عمر كان في السنة التي قتل فيها الحسين بن علي وهي سنة ٦١ هـ.

(٢) ابن الجوزي : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٤٥ — ابن عبد الحكم ص ٥٣ .

(٣) فلهوزن : الدولة العربية ص ٢٥٩ .

(٤) ابن عبد الحكم ص ٥٣ ، ابن العماد : شذرات الذهب جـ ١ ص ١١٩ .

وأبدى عبد العزيز بن مروان سروره لبقاء ابنه عمر بالمدينة ، بين أخواله ، وقد كان الامويون يطلبون ود بنى الخطاب ، الذين لهم شأنهم بين أهالى المدينة ، كما أراد عبد العزيز أن يكتسب ابنه عمر علم وفضل خاله عبد الله بن عمر بن الخطاب.(١)

وسارع عبد العزيز بالكتابة الى اخيه الخليفة عبد الملك بن مروان ، يخبره بتوثق الصلات بين بنى اميه وبنى الخطاب ، مما يكون له أثره فى موقف اهل المدينة من الحكم الاموى.(٢)
فأبدى الخليفة سروره وأجرى على عمر بن عبد العزيز ألف دينار من مال الفيء شهريا.(٣) ؟!

كتب عبد العزيز بن مروان الى صالح بن كيسان بالمدينة يطلب منه ان يتولى تأديب وتهذيب عمر ، وكان صالح يحث عمر على أداء الصلاة فى مواعيدها ، حتى اذا تأخر يوما سأله المؤدب عن السبب ، فعلم أن السبب هو ترجيل شعره ، فعنفه ، وكتب الى عبد العزيز ، وأمر الوالد بحلق شعر عمر .

ونشأ عمر فى المدينة ، فى مطارف النعمة ومباذل الجود ، ولجت به نعمة اعمامه وحنان أخواله فمشى فى الارض وكأنما يكون لنفسه طبقة وحده ، هى بين السادة من أهل

---

(١) احمد الشرباصى : خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز جـ١ ص١٧.

(٢) كانت المدينة قد وقفت موقف التأييد من ثورة عبد الله بن الزبير وخرجت على طاعة الامويين ، ودارت موقعة الحرة قرب المدينة التى شهدت كثيرا من الفظائع والمذابح مما كان له أثره فى سخط اهل المدينة على الدولة الاموية (ابن الاثير الكامل جـ٣ ص٤٠ ومابعدها — ابن كثير : البداية والنهاية جـ٨ ص ٢١٣ ومابعدها)

(٣) ابن عبد الحكم : ص٥٠ ، ابن الجوزى ص٩ .

المدينة وبين السادة من أمراء دمشق ، غير ان مظاهره كلها كانت تميل الى ان تكـــون صنعة اموية من ان تكون مطبوعة بطابع آل الخطاب . (١) .

واذا كان عمر بن عبد العزيز قد ورث منذ نشأته كثيرا من المواريث الطيبة الـــتي تجلت فى بنى الخطاب ، فقد ورث منهم أيضا حدة ظلت تعتريه من حين الى حيـــن ، فيندفع بها احيانا . (٢)

واصبح لعمر مشية خاصة متميزة ، تتصف بالتبختر والتكبر ، أعجبت بها جـــوارى المدينة (٣) ، فقلدوها وسموها " المشية العمرية " فهى تحقق الرشاقة وتلفت الانظار . (٤)
واهتم عمر باطلاق شعره وترجيله ، وارتدى أجمل وأغلى الثياب ، (٥) حتى كان ينفـــق كل ماله على ثيابه ، ووضع فى اصبعه خاتما ثمينا ، منحه له عمه الوليد بن عبد الملك ، (٦) وسار عمر فى طرقات المدينة يحيطه غلمانه وعبيده فى موكب حافل . (٧) وكان عمر شديدا فى معاملة عبيده ، يعاقبهم أشد عقوبة ، على أبسط الاخطاء ، (٨) ــ وهكذا حـــذا

---

(١) عبد العزيز سيد الاهل : الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز ص ٢٠

(٢) الشرباصى : خامس الراشدين جـ١ ص ١٧

(٣) يصف المؤرخون المشية بانها " مشية الجارية اذا كمبت " وكمبت الفتاة اذا برز ثديهـــا .

(٤) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٢١

(٥) كان يشترى الازار بمائة دينار ، ومطرف الخز بثمانمائة درهم . ما المرجع ؟

(٦) كان هذا الخاتم من غنائم فتوح افريقية والمغرب (ابن الجوزى : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١١١) .

(٧) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٢١ .

(٨) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص ١٢٠ .

عمر حذو سائر الامراء الامويين من الشباب .

أفرد آل الخطاب عمر بن عبد العزيز بالتكريم من بين أشقائه لانه كان شبيه أبيهم ، ولانهم رأوا فيه مخايل امل يكاد يتحقق لرؤيا كان رآها ابوهم عمر بن الخطاب — فيما يقال — وكانت رؤيا يتمناها الناس ان تسرع فتولد ، فلما ولدت قويت وصارت فراسة عرفت من الخلق والخلق والحركة والمزاج ، ثم كانت كائنا حيا ينبض في ذات عمر بن عبد العزيز . (١)

وكان ابن الخطاب قد رأى رؤيا ، وقام من نومه يقول : من هذا الذي يكون أشج من ولدي ، ويسير بسيرتي ؟ (٢) ، ثم يقول ايضا : ان من ولدي رجلا بوجهه أثر يملأ الارض عدلا . (٣) ، وظل آل الخطاب يرددون أقوال عمر ، في انتظار هذا الأشج العادل .

وخرج عمر بن عبد العزيز الى حلوان زائرا لأبيه ، وفي مصر رأى لونا من ألوان الحضارة تختلف عما رآه في المدينة ، فقد رأى نهرا عظيما جاريا ، وأرضا خضراء ، وشعبا يختلف في صفاته وطباعه . ولاشك ان هذه المرحلة قد نمت معلوماته وتركت انطباعات كثيرة في عقله ونفسه .

---

(١) سيد الاهل : الخليفة الزاهد ص ٢٣
(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٨ .
(٣) ابن قتيبة : المعارف ص ١٥٨ .

وفى حلوان ، دخل عمر واخوه الاصبغ حظيرة خيل ، فرمحت بغلة فأصابته فـــــــى جبينه فشجته ، وسالت دماؤه ، وصاح اخوه الاصبغ : " الله اكبر . هذا أشج بنى مروان الذى سيملك ". (١)

وأصبح يقال لعمر منذ تلك الساعة : أشج بنى مروان ، وأشج بنى امية ، وأشـــــج قريش. وقربه الخليفة عبد الملك اليه ، وعاتبه ابناؤه ، فقال الخليفة : " انه سيلـــــى الخلافة ، وهو أشج بنى مروان الذى يملأ الارض عدلا بعد ان تملأ جورا ، فمالى لا أحبه ولا أدنيه ؟ ". (٢)

مرحلة الشبـــاب :

عاد عمر الى المدينة ، وهناك أقبل على الدين والعلم ، فحفظ القرآن الكريم ، ودرس السنة النبوية ، وحدث عن بعض الصحابة والتابعين. (٣) وكان دائما يجهـــــــر عن أمانيه بان يصبح مثل خاله عمر بن الخطاب فى علمه وورعه ". (٤)

---

(١) ابن قتيبـــة : المعارف ص١٥٨ ، ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العـــزيز ص ١٤٢

(٢) الاصفهانى : الاغانى جـ ٨ ص١٤٦

(٣) ومنهم عبد الله بن جعفر ، وأنس بن مالك ، وأبو بكر بن عبد الرحمن ، وعبيد اللـــه ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود (ابن الجوزى ص٨).

(٤) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص١٩.

استتر وراء مشيـة الخيلاء والتبختر ومخايل الانفة والكبر جوهر سليم ،وأختبـأ الجوهر وراء حجاب خفيف ، فقد كان عمر ـ مع حدته على بعض غلمانه حين يخطئون ـ سهل الحجاب على اخوانه ، كريم المودة لهم ،يحتفى بمعروفة أهل الحاجة منهم . ولم يكن بينه وبين الغلمان الذين هم مثله مايفرق بينه وبينهم أو يفضله عليهم ،فتناولوا منه مايتناول الاخ من أخيه الذى لاسلطان له عليه. (١)

تبحر عمر فى الدين والعلم ،وأصبح حافظا حجة ،وبلغ مرتبة الاجتهاد ،وكان الناس يرجعون اليه فى الاستفتاء . (٢) حتى اذا خرج الى الشام استفاد من فقهائها بعد ان استفاد من فقهاء المدينة. (٣)

وفى العشرين من عمره ،أراد عمر الزواج ،فتزوج من ابنة عمه فاطمة بنت عبد الملك ابن مروان . وازداد تقريب عبد الملك لعمر ،وازداد حسد شباب بنى امية لعمر. وأقطع عبد الملك عمر كثيرا من القطائع والضياع ، فأصبح يمتلك أراضى فى الشام والحجاز ومصر واليمن والبحرين. (٤)

---

(١) سيد الاهل : الخليفة الزاهد ص ٢٦

(٢) الشرباصى : خامس الراشدين ص١٩

(٣) ابن الجوزى : سيرة عمر بن عبد العزيز ص٣٨ ،ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٦١٢

(٤) ابن عساكر : تاريخ دمشق ص٥٩٨

ثم بدأ عمر بن عبد العزيز حياته العملية ، فقد ولاه الخليفة عبد الملك امـــارة (خناصرة) وهى بلدة من أعمال حلب سنة ٨٥ هـ ، (١) وهى امارة صغيرة ،أراد عبـــد الملك ان يتدرب عمر من خلال حكمها على ممارسة ادارة ولايات الدولة. وأراد عبد الملـــك ان يستفيد من علم وحكمة عمر من جهة ،كما اراد ان يخفف عن عمر مرارة حرمان أبيـــــه من ولاية العهد من جهة اخرى. وظل عمر يتولى هذه الامارة حتى مات الخليفـــــــة عبد الملك ،وتولى بعده ابنه الوليد ،الذى عهد الى عمر بولاية المدينة. (٢)

تجربـة حكـم المدينـة :

تأثر الوليد بن عبد الملك بمحبة ابيه لعمر بن عبد العزيز ،وتأثر بما صار لعمر مـــن مكانة فى قضاء حاجات الناس وحاجات بنى امية خاصة ،وكانت صارت له به آصرة المصاهرة بزواج عمر من أخته فاطمة ،فلما استخلف الوليد ،وبلغ عمر الخامسة والعشرين من عمـــره، ولاه امرة المدينة. (٣) ويفسر المستشرق (فلهوزن) (٤) تلك التولية ،بأن الخليفـــة الوليد اراد محو الذكرى السيئة التى خلفها الوالى الذى كان قبل عمر ،وهو هشـــام ابن اسماعيل المخزومى ،واسترضاء أهل المدينة .

---

(١) ياقوت : معجم البلدان جـ٣ ص٤٦٧
(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٥ ص٣٥٢
(٣) سيد الاهل : الخليفة الزاهد ٣٩
(٤) فلهوزن : الدولة العربية ص٢٥٩.

ونحن نشير الى حكم عمر للمدينة ،لانها التجربة الحقيقية التى مارسها عمر، واكتسب منها الخبرات النافعة والتجارب المفيدة ،وكانت ثمار هذه التجربة ،بما فيها من محامد أو اخطاء ،هى خير موجه لعمر خلال فترة خلافته.

أبطأ عمر فى الخروج الى المدينة ،فقد كانت هناك نفوس غاضبة ثائرة ،نتيجة سوء سياسة واليها السابق هشام بن اسماعيل المخزومى . وتساءل الوليد عن تأخر عمر فى الرحيل الى مقر ولايته ،وأجاب عمر بأنه يضع شروطا لحكمه ،فقال : ان اباك ولى من كان قبلى ،فأنا أحب ألا تأخذنى بعمل أهل العدوان والظلم. وقبل الوليد شرط عمر ،لانه يريد تهدئة ثورة الغضب فى المدينة ،فقال الوليد لعمر : اعمل بالحق وان لم ترفع الينا الا درهما واحدا . (١)

وقدم عمر الى المدينة فى ربيع الاول سنة ٨٧ هـ ،فى موكب حافل يضم ثلاثين بعيرا ، وسط احتفال الناس وترحيبهم به . ونزل فى دار جده مروان بن الحكم وكانت من أعظم دور المدينة . (٢)

بدأت تجربة جديدة فى حكم المدينة ،فقد رأى عمر ان يبدأ عمله بالشورى ، لئلا يقع عليه مسئولية امر ليس لاهل المدينة رأى فيه ولا اقبال عليه. وكانت المدينة تعج بأهل العلم والزهد والوعظ ،وقد اشتهر من بينهم الفقهاء السبعة الذين عاشوا بها

---

(١) ابن الجوزى : سيرة عمر بن عبد العزيز ص٣٢

(٢) الطبرى جـ ٨ ص ١٢٩

معاصرين ، وعنهم انتشر العلم والفتيا فى الدين بعد الصحابة ،وكلهم من سادات الناس وأعلام التابعين. (١)

اثنان من هؤلاء الفقهاء من الطبقة الاولى من التابعين ،وهما سعيد بن المسيب (٢) وسليمان بن يسار. (٣) اما الخمسة الاخرون فهم من الطبقة الثانية من التابعين ،وهم عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ،وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة القرشى المخزومى ،وخارجة بن زيد بن ثابت الانصارى ،والقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب (٤) . وما لبث عمر ان ضم اليهم : عروة ابن الزبير ،وأبا بكر بن سليمان بن خيثمة وعبد الله بن عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن ربيقة . وولى عمر على قضاء المدينة أبا بكر محمد بن عمرو بن حزم. (٥)

وثق عمر صلته بالعلماء الذين اشتغلوا بكتابة العلم وعلم الحديث ،وكان علم الحديث قد ازدهر بالمدينة . ولم يكن يضايقه ان ينتقد علماء المدينة اساليب حكومة الامويين ، وخصوصا اساليب الحجاج بن يوسف الثقفى . (٦)

---

(١) سيد الاهل : الخليفة الزاهد ص ٤
(٢) كان سعيد بن المسيب بقضاء الرسول وقضاء الخليفتين ابى بكر وعمر.
(٣) سليمان بن يسار : هو مولى ام المؤمنين ميمونة ،وكان من رواة الاحاديث النبوية ،واشتهر بالفتوى (ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٢ ص ١٣٦).
(٤) كان سالم بن عبد الله ابن خالة عمر بن عبد العزيز.
(٥) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٨
(٦) فلهوزن : الدولة العربية ص ٢٥٩

وبينما مال عمر الى هؤلاء الفقهاء والعلماء ،وأرادهم للمشورة ،مال عنهم ميلة أخرى ،وظل يتأرجح بين الميلتين ،فراح يجمع الى الفقه سماع الغزل والغناء وصناعة الالحان. (١) ولكن هذا كله لم يخرج به عن دينه وقيامه بواجبه نحو ربه ونحو الناس. (٢) فيقول ابن عبد الحكم (٣) : " ثم ولى عمر المدينة ،فسار بأحسن سيرة ، وكان مع ذلك يعصف ريحه ،ويرخى شعره ،ويسبل ازاره ،ويتبختر فى مشيته... وهو مع ذلك لايغمص (٤) عليه فى بطن ،ولافرج ،ولاحكم ".

وأستمرت التجربة ، فكان اهل المدينة يلقبون عمر بالامير ويخاطبونه بهذا اللقب . وكان الى جوار عمر مولى له ،يتصف بالاخلاص والولاء ،ينصحه ويعظه ،وهو مزاحم بن ابى مزاحم ،الذى تجرأ فقال لعمر : " ياعمر بن عبد العزيز ، انى احذرك ليلة تمخض بالقيامة ، وفى صبيحتها تقوم الساعة . ياعمر ، لقد كدت أنسى اسمك مما أسمع (قال الامير ،قال الامير ..) وتقبل عمر حديث مولاه ،وقد علق عليه فيما بعد ،

---

(١) سيد الاهل : الخليفة الزاهد ص٤٤
(٢) الشرباصى : خامس الراشدين ص٢٠
(٣) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص٨٣
(٤) لايغمص : لايطعن.

فقال : " ان اول من أيقظني لهذا الشأن مزاحم ،فوالله ما هو الا ان قال ذلك فكأنما كشف عن وجهي غطاء ". (١)

وكتب الخليفة الوليد الى عمر يأمره بان يوسع المسجد النبوى بالمدينة ،وان يدخل حجرات أمهات المؤمنين زوجات النبى (٢) ، وهو مشروع قديم كان قد حاول عبد الملك بن مروان تنفيذه فلقى معارضة شديدة من أهالى المدينة ،وأراد الوليد الاستفادة من مكانة عمر عند هؤلاء الاهالى فى تنفيذ مشروع ابيه وخاصة ان عمر يرتبط ببنى الخطاب وكان لهم شأن كبير فى المدينة . (٣)

وأدخل عمر الحجرات بالمسجد واشترى مابنواحيه ،ثم بنى ووسع وزخرف ، وقدم القبلة ،وجوف المحراب ،ورفع المنارة فكان اول من احدث تجويف المحاريب فى المساجد وحين بنى المئذنة ازدادت المآذن انتشارا بعده فى بلاد المسلمين تشبها بمآذن الشام. (٤)

وقام عمر بعدة اصلاحات ومنشئات ،فشق الطرق فى الجبال ،وحفر الابار ،وأنشأ الفنادق والخانات على طرق الحجاج والقوافل ،وخاصة طريق خراسان ،وأنشأ نوارة

---

(١) ابن الجوزى : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٤١

(٢) كانت بيوت النبى تسعة بعضها من جريد مغطى بالطين وبعضها من الاحجار، والسقوف كلها من جريد ، وقد نالت منها السنوات (العمرى : مسالك الابصار جـ١ ص ١٢٦).

(٣) الطبرى جـ٨ ص ١٢٦

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص٦٧

بالمدينة كانت صورة للابداع الفنى ، وكافأه الخليفة الوليد بان جمع له امارة الحجاز كلها ، بما فيها مكة والطائف . (١)

وقدم الوليد الى الحجاز حاجا فى سنة ٩١ هـ وخرج عمر للقائه فى موكب حافل يضم وجوه المدينة ، وأبدى الوليد اعجابه باصلاحات ومنشئات عمر ، وخاصة الفوارة ، وأغدق الاموال على أهالى المدينة. (٢)

ولكن الوليد ما لبث ان طغى شعوره على مظهره فغطاه وذهب ابتهاجه فقد ادرك مافى نفوس اهل المدينة منه ومن أهل بيته فغضب ولم يكظم غيظه ، وانتظر الجمعة وذهب الى المسجد فصلى بالناس ، ثم خطب فتوعد أهل المدينة ، وزاد فغير التقليد وخالف العادة ، فخطب الجمعة على المنبر قاعدا . ولم تكن خطبة الوليد الا نفخا فى وقود ، فانكشف بها الرماد الرقيق عن الجمر فالتهب ، وانقلب أهل المدينة يعلنون الغضب ويزيدون . واندفع عمر بن عبد العزيز فى تيار النفوس وغضب معها . (٣)

وفى موسم الحج التالى سنة ٩٢ هـ ، عقد الوليد لواء الحج لوالى العراق المتيد الحجاج بن يوسف الثقفى ، وكان من المفروض ان يمر بالمدينة قبل رحيله الى مكة ، وكانت المدينة قد امتلأت بالقادمين من العراق من الساخطين على الحجاج

---

(١) الطبرى جـ٨ ص١٢٧
(٢) الطبرى جـ٨ ص١٢٨
(٣) سيد الاهل : الخليفة الزاهد ص٥٣

واللائذين بعدالة عمر بن عبد العزيز ، ولذا بدأت مشاعر السخط والثورة فى المدينة ، واستجاب الخليفة للنصيحة ، فسلك الحجاج طريقا اخرى الى مكة . (١)

وبدأت صفحة عداء شديد بين الحجاج والى العراق ، وعمر والى الحجاز فقد تدفق الاف من اهالى العراق لاجئين الى العراق ، فلم يرض الحجاج عن ذلك ، وبدأ يشكو الى الوليد ، ويبين له خطورة الامر ، واستمر التحريض حتى عزل الوليد عمر عن المدينة . (٢) سنة ٩٣ هـ ، وولى الخليفة الوليد بدله عثمان بن حيان ، وأمره بان يخرج كل عراقى الى الحجاج فاخرجهم جميعا ونادى مناديه " ألا برئت الذمة ممن آوى عراقيا " . (٣) ، وكتب الحجاج الى الوليد يبرر له قسوته وينصحه ألا يهتم بمحبة رعاياه ورضاهم . (٤) ولكن عمر لم يفقد العطف من جراء ذلك ، فقد كان عمر متزوجا من أخت الوليد ، فظل عمر عنده مكرما . (٥)

ورحل عمر ، بعد عزله من ولاية الحجاز ، الى السويداء ، وهى من اقطاعياته ، (١) وهناك قضى فترة عزلة وتفقه وتصوف ، يطهر فيها نفسه ، ويطبع روحه على الفقه الاكبر ، وهو القناعة وكف الاذى . (٦)

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٢٤
(٢) فلهوزن : الدولة العربية ص ٢٥٩
(٣) اليعقوبى جـ٣ ص ٣٤
(٤) ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ٢ ص ٥٩ - ٦٠
(٥) فلهوزن : الدولة العربية ص ٢٥٩
(٦) الشرباصى : خامس الراشدين ص ٢

(١) السويداء : موضع على ليلتين من المدينة على طريق الشام . والسويداء : قرية بحوران من نواحي دمشق (معجم البلدان ٣/ ٢٨٦)

وان كان الوليد قد حرص على استمرار المودة بينه وبين عمر ، الا ان الصلات لم تلبث ان تغيرت ،فقد ادت الفترة التى قضاها عمر فى السويداء الى تحول خطير فى نفسية عمر وفى آرائه وافكاره ، فقد اصبح عمر المدافع عن الحق ، والمنادى بالعدالة ، وما لبث عمر ان رحل الى العاصمة دمشق . وكان الخليفة عبد الملك بن مروان يستشير عمر فى بعض الامور. وأراد عمر ان يكون المستشار الصادق والناصح الامين للخليفة الوليد ، ولم يجد الوليد بأسا فى ذلك ، فهناك صلات القربى ،كما ان عمر فقيه محدث مجتهد ، نال احترام وتقدير فقهاء الشام والحجاز على السواء . واستمع الوليد الى عمر ،ونفذ بعض نصائحه واقتراحاته ،ولكن عمر اراد تطهيرا شاملا واصلاحا عاما فى الدولة الاموية ، فبدأ عمر يهاجم سياسة الولاة ، ويعتبر الخليفة مسئولا عن مظالمهم.

قال عمر يوما للوليد : انه ليس بعد الشرك اثم أعظم عند الله من الدم ،وان عمالك يقتلون ويكتبون لك ذنب المقتول ،وأنت المسئول عنه والمأخوذ به ،فاكتب اليهم ألا يقتل احد منهم أحدا حتى يكتب اليك بذنبه ، ثم يشهد عليه ،ثم تأمر على أمر قد وضح لك . (١)

وتظاهر الوليد بالاقتناع بنصيحة عمر ،ولم يشأ ان يغضبه ،فكتب الى ولاته ، ينصحهم ويحذرهم ،ولكن المظالم استمرت فى سائر الولايات ،واستمر عمر على اصراره على ضرورة احداث اصلاح شامل كامل يرسى قواعد العدل والانصاف. وقد حاول تنفيذ

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص٢٧

هذه السياسة الاصلاحية حينما تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة بعد اخيه الوليد ثم بدأ هو تنفيذها على نطاق واسع ،وعلى أسس وطيدة ، كما سنرى فى الفصول التالية .

٢ ـ العوامل النفسية

ان سياسة الاصلاح لاتبدأ من فراغ . ولابد من امتزاج عوامل شتى ،وتفاعلها ، حتى تتبلور ،وتمهد لبداية طريق جديد للاصلاح ،والتطهير والتطوير . ولما كان الخليفة ـ كما ذكرنا ـ هو مصدر السلطات ،فقد أصبح هو المنبع الحقيقى لكل سياسة اصلاحية ، بحيث تكون نابعة من نفسه وعقله ،مستفيدا من التجارب السابقة ،ومن خبراته وثقافته.

لقد رأينا فى الفصل الاول ظروف النشأة والتربية التى أحاطت بعمر بن عبد العزيز فرأيناه يتلقى دروسه وثقافته فى مدرسة المدينة ،وشهدناه يرحل فترة الى بيئة جديدة هى مصر ، حيث أصبح بعد ذلك محور نبوءات عديدة أنه (الاشج) الذى تنعقد عليه الامال ،والذى يحكم فيعدل ويصلح . ثم رأينا عمر وقد اصبح شابا مترفا مرفها ،يتميز بمشية خاصة تحاكيها الجوارى ،ويهتم بثيابه وعطوره . ثم شهدناه يبدأ حياته العملية واليا على امارة صغيرة هى (خناصرة) ، ثم واليا على المدينة ، حيث يبدأ حكما يعتمد على مشورة الفقهاء والعلماء ،مما لانجده فى تاريخ العصر الاموى قبله ،ويفتح باب ولايته لكل لاجئ سياسى ،يهرب من مظالم الولاة

الامويين . وأثبت عمر كفاءته ونزاهته ،فكوفئ بولاية الحجاز كلها . ثم اصطدمت سياسة عمر مع سياسة رئيس الدولة ،الخليفة الوليد بن عبد الملك ،فكان عزله عن المدينة. ورأى عمر ان يقضى فترة فى السويداء ، هى فترة تأمل ، وحساب لنفسه ،وتطهير لقلبه ، وبلورة لافكاره ، رحل بعدها الى دمشق ، عاصمة الدولة ،وهناك يصطدم ثانية بالخليفة الوليد . وسنرى فى هذا الفصل الثانى محاولات عمر للاستفادة من توليه الخليفة سليمان بن عبد الملك ، فى تنفيذ برنامجه الاصلاحى ،فقد رأى عمر الاستمرار فى الكفاح والجهاد ، من اجل الاصلاح والتطهير.

واننا فى هذين الفصلين انما ندرس فجر اندفاع عمر نحو الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى . ونحن نقدر ظروف النشأة والتربية فهى فترة الاعداد الفعلى والتكوين النفسى . والانسان ابن بيئته ،وظروف مولده وحياته وأسرته تنعكس عليه وتؤثر فيه. كما ان توليه عمر ولاية المدينة ثم الحجاز ،هى "صقل التجارب" الذى استفاد منه عمر حينما تولى الخلافة ،وقد قضى عمر فى السويداء ،كما رأينا ، فترة يدرس فيها حصيلة هذه التجارب ،بما فيها من سلبيات وايجابيات. كما ان قربه بعد ذلك ومكانته من سليمان بن عبد الملك كانت ايضا حقلا آخرا للتجارب. وكل هذه العوامل والظروف قد تجمعت وتكاثفت وتبلورت ، لتؤدى الى برامج اصلاحية عظيمة ، اجتماعية واقتصادية ،جعلت عمر بن عبد العزيز جديرا بان يسميه المؤرخون " خامس الراشدين "[1].

وندرس فى هذا الفصل العوامل النفسية التى اثرت فى فكر وسلوك عمر بن عبد العزيز ودفعته الى ذلك البرنامج الاصلاحى الكبير والفريد فى التاريخ

(١) خامس الراشدين ج١ ص ٢٥ رواية عن سفيان الثورى

الاموى ،بل فى التاريخ الاسلامى أيضا .

ويمكننا ان نركز هذه العوامل فى خمسة عوامل هى :

اولا : صلة عمر بن عبد العزيز بآل الخطاب .

ثانيا : تجربة ولاية المدينة.

ثالثا : مظالم الولاة الامويين.

رابعا : فترة اقامته فى السويداء.

خامسا : ظروف توليته الخلافة.

أما العامل الاول ، فقد عرضنا له فى الفصل الاول ،وقد ذاعت نبوءة عمر بن الخطاب بين الناس جميعا ،سواء من بنى الخطاب ،أو بنى امية ، أو عامة الناس، وبات الجميع يتطلعون الى ذلك المنقذ المأمول الذى يغير مسار الدولة الاموية ،ويعيد امجاد عهد عمر بن الخطاب .

بل ان عبد العزيز بن مروان، صار يتنبأ لابنه عمر بالمستقبل السعيد المرموق. فبعد ان اصابت البغلة الجامحة جبين عمر،قال عبد العزيز لزوجته أم عاصم : ويحك ، انه أشج بنى مروان ،وانه لسعيد . (١) وقد أصبح عمر موضع حسد أمراء بنى امية عامة، وأولاد عبد الملك بن مروان خاصة. حتى اذا عاتب بعض هؤلاء الامراء عبد الملك على تقريبه لعمر ،قال : انه سيلى الخلافة وهو أشج بنى مروان الذى يملأ الارض عدلا بعد ان تملأ جورا ،فمالى لا أحبه ولا أدنيه ؟ (٢) .

---

(١) ابن الجوزى ص٧ ابن عبد الحكم ص ١٩

(٢) الاصفهانى : الاغانى جـ٨ ص ١٤٦ ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٢ ص٢٣٤

وبات الناس يترقبون المصلح المنشود ، ووجدوه فى شخص عمر بن عبد العزيز ، وهو حفيد عمر من أمه ، وسميه ، وقد ظهرت عليه العلامات التى حددها عمر بن الخطاب ولا شك فى ان هذه النبوءات والامال قد اثرت فى نفسية عمر بن عبد العزيز ، فتطلع ان يكون شبيه جده عمر بن الخطاب ، وخاله عبد الله بن عمر ، فقد كان عبد الله اكبر اساتذة عمر بن عبد العزيز ، كما كان له القدوة الطيبة والاسوة الحسنة .

أما العامل الثانى من العوامل التى اثرت فى نفسية عمر بن عبد العزيز ، وبلورت أفكاره ، وغيرت مسار حياته ، فكانت تجربة حكم المدينة ، بما فيها من خير وشر ، ومن حسنات وأخطاء . ومن أبرز هذه الاخطاء التى كان لها صداها فى نفسية عمر ، واثرها فى سلوكه فيما بعد حينما تولى الخلافة ، موقفه من خبيب بن عبد الله بن الزبير .

[خاص الراشدين ج١ ص ٢٧ - ٤٦ عشر صفحات كبيرة جدا تحت عنوانه (كيف يخبب على الطريد) ؟

رأينا فى الفصل الاول الخليفة عبد الملك بن مروان يحاول توسيع المسجد النبوى بالمدينة بادخال حجرات زوجات النبى فيه ، فيثور اهل المدينة ، فيكف عبد الملك عن مشروعه . (١) حتى اذا تولى عمر بن عبد العزيز ولاية المدينة ، أراد الخليفة الوليد ابن عبد الملك ان يستفيد من شعبية عمر ، ومحبة اهل المدينة له ، فى تنفيذ مشروع عبد الملك القديم . (٢)

(١) روى العمرى (مسالك الابصار جـ١ ص ١٢٦) ان اهل المدينة بكوا كبكائهم يوم وفاة النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) اشترك فى هذه الاعمال عمال من الشام ومصر ، وأرسل امبراطور الروم الرخام والفسيفساء (البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣) .

ورغم مكانة عمر ومنزلته فى قلوب اهالى المدينة ،فقد ارتفعت أصوات البكاء فى جوانب المدينة ،فقد ارادوا الاحتفاظ بذكريات عن امهات المؤمنين زوجات النبى عليه الصلاة والسلام وحاول عمر تهدئة الخواطر فاصطحب معه عددا من الفقهاء. وسكت البعض احتراما وتقديرا وحبا لعمر،ولكن خبيب بن عبد الله بن الزبير تقدم الى عمر معترضا ،وقال : نشدتك الله ياعمر ان تذهب بآية من كتاب الله تقول : (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) (١).

وزاد تهكم خبيب على عمر وسخريته منه ،بل انه حدث عن النبى عليه الصلاة والسلام انه قال : " اذا بلغ بنو ابى العاص ثلاثين رجلا اتخذوا عباد الله خولا ومال الله دولا ". وعلم الخليفة الوليد بمقالات خبيب ،فغضب وثار،وكتب الى عمر يأمره بأن يضرب خبيبا مائة سوط ثم يسجنه ،ولم يحتمل خبيب ضرب السياط فمات. وكان موت خبيب صدمة نفسية شديدة حتى انه سقط على الارض (٢).

ندم عمر ندما شديدا ،وحاول ان يمسح عن آل خبيب احزانهم ،فكان يغدق الاموال عليهم ،فيقول الناس : دية خبيب . وكلما اجتهد عمر فى الاحسان لسائر الناس ،وتحقيق العدل والاصلاح ،قال البعض :وكيف بخبيب على الطريق .

القائل المكرر للقول هو عمر
خامس الراشدين ج ١ ص ٢٨

---

(١) اليعقوبى ج ٣ ص ٢٩
(٢) الطبرى ج ٨ ص ٢٦

وكانت هذه الاقوال تصل الى مسامع عمر ،فيزداد ألما وندما ، وزاد من ألم عمر أن الوليد لم يحفظ له الجميل حين نفذ أوامره فى خبيب ،بل ما لبث الوليد ان عزلـه عن ولاية المدينة. (١)

وتألم عمر ان احتضن الوليد واليه بالعراق الحجاج بن يوسف الثقفـى فرأيناه يوليه امارة الحج اولا ،ثم ينصت الوليد لتحريض الحجاج له على عزل عمـر عن ولاية الحجاز ، واصبح عمر "كبش الفداء" ، فقد ظل فى نظر أهالى المدينة المسئول عن موت خبيب ، وان كان عمر — فى الحقيقة — مضطرا لتنفيذ اوامر الخليفة ،وخاصـة فى وقت بدأ فيه تحريض الحجاج للخليفة ضده ،فماذا كان الموقف لو خالف عمـر أوامر الوليد ؟ ولكن موت خبيب ، ظل "عقدة" دائمة فى نفس عمر ، تثير آلامـه وأشجانه ،كلما تذكرها .

وادرك القاسم بن محمد بن ابى بكر الالم النفسى الذى يعانيه عمر ،فقال له: أعلمت ان من مضى من سلفنا كانوا يحبون استقبال المصائب بالتحمل ومواجهة النعـم بالتذلل . (٢) ولكن هذه الكلمات ،وأمثالها ،لم تنجح — عبر السنين — ان تخفـف من آلام عمر وأسفـه.

---

(١) الطبرى ج ٨ ص ٥٦ ،ابن الجوزى : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٣٥

(٢) ابن الجوزى ص ٣٥ .

وكانت تجربة ولاية المدينة ، حافلة ومؤثرة. لقد بدأ عمر سياسة الحكم معتمدا على العلماء والفقهاء ،معلنا بداية عهد من العدالة والتسامح ،وقام باصلاحات ومنشئات،وارضى نفوس أهل المدينة وأشعرهم بالامان والاستقرار. وأصبحت ولاية الحجاز " ولاية مثالية " اذ قارناها بولاية العراق ،او بولاية مصر ، حيث الاستبداد والارهاب . ولكن الخليفة الوليد ،وواليه بالعراق الحجاج ،أرادا ان تصبح الحجاز صورة للعراق ،فقد اتبع عثمان بن حيان بالمدينة ،وخالد بن عبد الله القسرى فى مكة ،نفس سياسة الحجاج بالعراق (١) . وهنا أدرك عمر أن سياسة الدولة هى — فى الحقيقة — تنبع من الخليفة ،ولا يستطيع وال من الولاة الخروج على تخطيط الخليفة وسياسته ،وقد حاول عمر ان يخوض تجربة العدل والاصلاح فى الحجاز ، فتعارضت سياسته مع سياسة الخليفة ،فكان مصيره العزل . وهكذا لن يستطيع عمر أن ينفذ برامجه الاصلاحية الا اذا تولى الخلافة.

اما العامل الثالث الذى ترك بصماته فى نفسية عمر ،ما لمسه من مظالم الولاة الامويين ،المعاصرين له ،وخاصة مظالم الحجاج بالعراق ،ومظالم قرة بن شريك فى مصر ،ومحمد بن يوسف اخى الحجاج فى اليمن.

---

(١) الطبرى ج ٨ ص ٩٠ ،ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٥٩.

وكان عمر يستقبل فى المدينة ، حين كان يتولى حكمها ، آلافا من أهالى العراق ، يلوذون بعدله من مظالم الحجاج ، وبعث عمر الى الخليفة الوليد ينقل اليه أقوال هؤلاء اللاجئين المظلومين ، مما أثار غضب وحقد الحجاج على عمر ، وكتب الحجاج يوضح له خطر هرب أهل العراق الى الحجاز ، واستجاب الوليد لتحريض الحجاج ، فعزل عمر ، كما رأينا (١) .

وسمع عمر بما يأتيه ولاة مصر ، واليمن ، فأبدى أسفه وألمه ، ودعا الله تعالى قائلا : امتلأت الارض ـ والله ـ جورا ، فأرح الناس (٢) .

وفى دمشق ، بعد رحيل عمر عن السويداء ، استمر عمر فى نصائحه للوليد ، والكشف عن مظالم الولاة ، فيستمع الوليد ، ولا يغير من الامر شيئا . وزاد الحاح عمر على الوليد فكتب الى الحجاج ينقل اليه نصائح عمر ، وأراد الحجاج ان يسكت عمر ، فبعث الى الخليفة رجلا من الخوارج ، يسب الخلفاء الامويين ويصفهم بالظلم والجور ، ويخص الوليد بالمزيد من السباب والشتائم . وبعث الوليد فى استدعاء عمر الى مجلسه . وكان الخارجى حاضرا ، فسأله الوليد : ماتقول فى فلان وفى فلان من الخلفاء ؟ فسبهم الخارجى ولعنهم . ثم سأله الخليفة : وما تقول فى ؟ فأجاب الخارجى : ظالم جائر جبار . فأمر الخليفة بضرب عنقه . ثم سأل الخليفة عمر : كيف ترى فيمن سب

---

(١) اليعقوبى جـ ٣ ص ٣٤
(٢) المبرد : الكامل جـ ١ ص ٣٠٥

الخلفاء ؟ أترى ان يقتل ؟ . ولم يرد عمر ،فغضب الخليفة ،وانتهر عمر وقال : مالك لاتتكلم . وظل عمر ساكتا ،والخليفة يردد السؤال ، ثم أجاب عمر اخيرا : ينكل به. وازداد غضب الخليفة ، فقد كان يريد من عمر ان يفتى بقتل الخارجى . وما لبث الوليد ان استدعى عمر الى بيته ،وهناك سأله : ماتقول فى هذا يا أبا حفص؟ أصبنا ، أم أخطأنا ؟ فأجاب عمر : ما أصبت بقتله ،ولغير ذلك كان أسد وأصوب ، كنت سجنته ان بدا لك أو تعفو عنه. ولم تزد هذه العبارة الوليد الا غضبا . (١)

ومما زاد من الهوة بين عمر والوليد ،رغبة الوليد فى خلع اخيه سليمان من ولاية العهد ،بمساعدة عمر ،الذى رفض وقال : يا أمير المؤمنين ،انا بايعنا لكما فى عقدة واحدة فكيف نخلعه ونتركك . (٢) ولكن جرأة عمر جعلت الخليفة يأمر بحبسه ثلاثة أيام أثرت فى محبته.

وما لبث ان مات الحجاج الثقفى سنة ٩٥ هـ ،فسجد عمر لله تعالى شكرا حين علم بموته. ثم مات فى نفس الشهر قرة بن شريك. وكان عمر يقول عن الحجاج : لو ان الامم تخابثت يوم القيامة فأخرجت كل امة خبيثها ثم أخرجنا الحجاج لغلبناهم. (٣)

---

(١) ابن الجوزى ص ٢٥ وابن عبد الحكم ص ١٣٩

(٢) ابن الجوزى ص ٤١

(٣) ابن الجوزى ص ٨٩

وكان عمر ينصح دائما الخليفة الوليد بعزل قرة بن شريك دون جدوى.(١)

واختلفت الصورة ،فكان عمر مسرورا ان أزاح الله تعالى البلاء والظلم عن العراق ومصر ، بينما كان الخليفة الوليد آسفا على فقده واليه الحجاج وقره فى شهر واحد ، حتى انه جمع الناس وصعد الى المنبر ينعى الواليين ، فكان مما قال الوليد : والله لاشفعن لهما شفاعة تنفعهما . فقال عمر لمن حوله من الناس : انظروا الى هذا الخبيث ،لا أنا له الله شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ،وألحقه بهما .(٢) وأدرك عمر ضرورة الاهتمام والعناية باختيار الولاة ،فكان هذا الادراك من أسس سياسته حين تولى الخلافة.

ورغم ان سليمان بن عبد الملك كان اخف وطأة واكثر عدلا من سلفه الوليد ، الا ان سليمان لم يحقق آمال عمر فى الاصلاح والتطهير ، فقد استمرت مظالم الولاة الامويين ،ويرى المستشرق (فلهوزن)(٣) ان تغيير شخص الوالى ليس معناه تغيير نظام الحكم ،واذا كان الخليفة سليمان قد ولى يزيد بن المهلب حكم العراق، الا ان يزيد اكتفى باضطهاد انصار الحجاج ولم يغير شيئا من نظم الحكم.

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص٢١٨
(٢) ابن الاثير : الكامل جـ٥ ص ٥
(٣) فلهوزن : الدولة العربية ص٢٥٢

وتفاءل عمر بتولية سليمان بن عبد الملك الخلافة ، ورأى ان يقف الى جـــواره من أجل تحقيق الاصلاح المنشود . وكان سليمان يستشيره فى مهام الامور . واستمر عمـــر فى النصيحة والعتاب ، وضاق سليمان أحيانا بالعتاب (١) . وقد كان عمر مخلصا فـــى نصائحه ، بل لم يترك عمر امرا ـ مهما ضؤل ـ الا وقدم فيه نصيحة ، حتى ان عمر كـــان ينصح سليمان بعدم الاسراف فى الطعام . (٢)

وأراد عمر ان يعيد الطمأنينة والسرور الى قلوب أهل المدينة ، موطنه الاصلـى ، ومقر ولايته السابقة . وخرج عمر سنة ٩٧ هـ مع الخليفة حاجا . وفى المدينة أغدق الخليفـة الاموال على أهلها ، وظن ان هذا يكفى لارضائهم . وسأل الخليفة عمر عن هـــذا الاغداق ، فأجاب عمر زأيتك زدت اهل الغنى غنى ، وتركت أهل الفقر بفقرهم . وفـــى الطريق الى مكة ، مر الركب بمعسكر عسفان ، فأبدى الخليفة اعجابه بالمكان ، وســأل عمر : كيف ترى ما هاهنا ياعمر ؟ فأجاب عمر : أرى الدنيا يأكل بعضها بعضا ، أنـت المسئول عنها والمأخوذ بها . (٣) وأراد الخليفة استرضاء أهل مكـة ، لينسيهم ما أوقعه بهم واليها خالد القسرى من مظالم ، فاستنبط ماء عذبا ، ولكن المكييـن رفضوا الاقتراب منه تعبيرا عن سخطهم ، مما أغضب الخليفة . (٤) وفى عرفــات ،

---

(١) ابن الجوزى ص ٣٦

(٢) اشتهر سليمان بأنه أكول نهم لا يشبع ، بينما كان عمر يكثر من الصيام .
(اليعقوبى جـ ٣ ص ٤٣)

(٣) ابن الجوزى ص ٤١

(٤) اليعقوبى جـ ٢ ص ٣٧

حيث يزدحم الحجاج ،قال سليمان لعمر : أما ترى كثرة الناس بالموسم ؟ فقال عمر: هؤلاء خصماؤك يا أمير المؤمنين . فقال سليمان : ابتلاك الله بهم. واشتد البرق والرعد ، وفزع الخليفة ،وضحك عمر ،وسأل الخليفة عن سبب ضحك عمر فأجاب: يا أمير المؤمنين هذه رحمة الله قد أفزعتك ،فكيف لو جاءك عذابه. (١)

ويعتبر المستشرق (فلهوزن) (٢) ان عصر سليمان هو بداية الصراع الحقيقي بين العرب اليمنيين والحجازيين ،وقد نتج عن صراع الولاة ، ثم يقول : اما انقسام العالم العربي الى قسمين متخاصمين على اساس الانقسام القبلي ،فانه كان فى ذلك الوقت ما يزال فى دور التكوين ،وقد كان ما بين الولاة والرؤساء الاقوياء من عداء شخصي سببا جوهريا فى تفاقم خطب هذا الانقسام.

وأعلن عمر دائما سخطه على سياسة عامل الخراج فى مصر اسامة بن زيد ، فقد كتب الخليفة اليه : احلب الدر حتى ينقطع ،والدم حتى ينصرم . واشتد اسامة فى جمع الضرائب مما آذى المصريين ،وانتقد عمر سياسة اسامة ،فقال سليمان : هذا لا يرتشى دينارا ولا درهما . فغضب عمر وقال : أنا أدلك على من هو شر من اسامة ولا يرتشى دينارا ولا درهما . حتى اذا سأل سليمان عمن يكون ،اجاب عمر : عدو الله ابليس. (٣)

---

(١) ابن الجوزى ص ٤٢
(٢) فلهوزن : الدولة العربية ص٢٥٣
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٣١

أما العامل الرابع الذى ترك بصماته فى نفسية عمر ، فكانت فترة اقامته فى السويداء وقد خرج عمر من المدينة ، بعد عزله ، آسفا حزينا ، اذ لقى جزاء سنمار من الخليفة وخرج ليلا ، يتخفى فى الظلام ، ومعه مولاه المخلص الورع مزاحم بن أبى مزاحم وتذكر عمر قول الرسول عليه الصلاة والسلام : " والذى نفس محمد بيده ما خرج أحد من المدينة رغبة عنها الا أبدلها الله خيرا منه او مثله " ، وقوله صلى الله عليه وسلم : " المدينة تنفى خبيثها " . فزادت آلام عمر ، فقال لمزاحم : يامزاحم ، نخاف ان نكون ممن نفت المدينة. (١)

وهكذا خرج عمر من المدينة بنفسية محطمة ، فكان فى حاجة الى فترة هدوء واسترجاع ، لتهدأ نفسه ، ويسترجع احداث الماضى فيبلورها ويستفيد من حكمتها وتجاربها .

ورحل الرفيقان الى الشام ، واستقرا فى السويداء ، حيث كان لعمر فيها دار ، فلزمها ، يفكر ويتذكر ، يخلو الى نفسه ، بعيدا عن الحسد والحقد والدس . وتذكر عمر وصية ابيه عبد العزيز بن مروان له حين قال : " اتق الله وأحسن تدبير مالك فانه لا مال لمن لا تدبير له ، وارفق بمن تعامله لانه لا عيش لمن لا رفق له ، وتجوز عن شهواتك فانه لا عقل لمن لا يغلب هواه ". (٢)

---

(١) الطبرى ج ٨ ص ٧٠
(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٥

رجع عمر الى نفسه ، ففطن الى معان فى العظات والوصايا لم يكن فطن اليها من قبل ،ونظر فى وصية ابيه له ،فاذا هو لم يحسن تدبير ماله اذ كان ينفقه كله فى الثياب والطيب ، ثم نظر فاذا هو لم يرفق بمن عامله ،واذا هو بالغ فى القسوة فضرب على المدينة البعوث ، ثم قتل خبيبا • ثم نظر فاذا هو لم يتجوز فى شهواته فغنى وطرب وصفق• (١)

ثم انطلقت نفس عمر من محبسها ، وخرج من ذاته الضيقة ،ونظر حوله ،فاذا المدينة قد عادت تحت وطأة الولاة القساة والولاة — وكان هو منهم — منصرفون عن رضا رعاياهم لارضاء الوليد • وكان الوليد بالشام قد سلط اولاده (٢) على اهل حمص يأكلون اموالهم وينتهبون اراضيهم ويمتلكون حوانيتهم ،ثم يكتب الوليد بهم بها السجلات • وهذا هو الحجاج فى العراق يسفك الدماء ،وقره بن شريك فى مصر غارق فى اللهو والشراب • ورأى عمر نفسه يملك أرضا واسعة ،لاسجل لها فى يديه• فود عمر لو جاءته الخلافة وصحت رؤيا جده عمر بن الخطاب ليخرج من ذلك كله، يخرج من الثياب حتى يكاد يعرى ،ومن الطعام حتى يجوع ،ومن المال حتى لايكون فى الارض فقير مثله•

(١) سيد الاهل : الخليفة الزاهد ص٦٦

(٢) عمر وعباس وروح •

وهكذا اهتدى عمر الى الصواب كله ،فاتخذ العقيدة ،وجعل يوغل فى الايمان بها ويحطم من حدة نفسه ويكسر من غلوائها ،فلما حانت الفرصة انطلق كالعاصفة فى أقسى دورتها حول نفسها ،فاذا ابتعدت أخذت تهدأ ،فاذا كانت فى الاطراف لم تحس الا انها ريح أو رخاء. (١)

أما العامل الخامس والاخير ،الذى كان له انطباعاته وآثاره فى نفسية عمر ،ثم فى برامجه الاصلاحية ،فهى ظروف توليته الخلافة.

شهد عمر ما حل بأبيه من ظلم حين حرمه أخوه عبد الملك من حقه المشروع فى ولاية العهد ،ليولى بعده ولديه الوليد ثم سليمان . ولم تجد معارضات عبد العزيز ابن مروان واحتجاجاته. وعمل عبد الملك على استرضاء عمر بن عبد العزيز دائما ، وزوجه من ابنته فاطمة . وقد حاول الوليد خلع سليمان من ولاية العهد ،ولقى معارضة شديدة ،وكان عمر من المعارضين . واراد سليمان تولية ابنه ايوب ولكنه مات فى حياته.

وحرص سليمان بن عبد الملك ،وشعر بدنو منيته ،ورأى ان يختار ولى عهده. وكان اولاده لايزالوا أحداثا لا يصلحون للخلافة. (٢)

---

(١) المرجع السابق.

(٢) استعرض سليمان اولاده ،ثم انشد :

ان بنى صبية صغار .. أفلح من كان له كبار

وهنا يبرز دور رجل صالح ، هيأته الاقدار لتحقق نبوءة عمر بن الخطاب ، وهو رجاء بن حيوة الكندى . الذى خلا بالخليفة واشار عليه باختيار ابن عمه ، الرجل الصالح الورع عمر بن عبد العزيز . ونال الاقتراح موافقة سليمان ، ولكنه تخوف من اولاد عبد الملك ، وتوصل الرجلان الى حل المشكلة ، بان تكون ولاية العهد لعمر ثم ليزيد بن عبد الملك.(١)

وكانت نفس عمر قد صفت ، حتى اصبح لها شفافيتها ، ولذا توقع ان سليمان سيعهد له بالخلافة بعده ، ورغم انه كان يدرك ان الخلافة هى سبيله الى تحقيق سياسته الاصلاحية الا انه شعر بالمسئولية ، فهو مسئول امام الله تعالى وأمام الرعية . فقال عمر لرجاء : ان سليمان كانت لى به حرمة ومودة ، وكان بى برا وملطفا ، فأنا اخشى ان يكون قد اسند الى من هذا الامر شيئا ، فأنشدك الله وحرمتى ألا اعلمتنى ذلك حتى أستعفيه الان قبل ان تأتى حال لاأقدر فيها على ذلك . فقال رجاء : لا والله ما أنا بمخبرك حرفا واحدا .(٢)

وكان رجاء بن حيوة بن جرول الكندى من اهل الاردن العلماء ، وكان أوحد زمانه من أهل الشام ، مرضيا حكيما صاحب بلاغة واناة ووقار ، وكانت الخلفاء تعرفه بفضله فيتخذونه مستشارا وقيما على عمالهم وأولادهم ، وقد وقف بين الخلفاء وقسوتهم وشهواتهم مواقف كثيرة منذ عبد الملك ، فلما كان سليمان اصبح لرجاء عنده من المنزلة ماليس لاحد .(٣)

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٣

(٢) ابن الجوزى ص٤٨

(٣) سيد الاهل : الخليفة الزاهد ص٨٣

علق المستشرق (فلهوزن) (١) على تولية عمر بن عبد العزيز الخلافة فقال :
كان عمر من فرع جانبي من بنى امية ، كان قد نحاه عبد الملك ، والان جاء ابن لعبد الملك فآثره على امراء الفرع الاساسى لبنى امية على كثرتهم . ولم يكن ذلك يخطر ببال أحد ، وربما كان أبعد شيء عن ذهن عمر بن عبد العزيز نفسه . ولم تقم مع هذا معارضة ذات شأن بسبب تعيين عمر ، ويظهر ان رجاء قد أحكم ما صنع، وقد عارض هشام بن عبد الملك فى البيعة بعض المعارضة ، ولكنه اخذ جانب العقل لما هدد بالسيف . اما عبد العزيز بن الوليد فلم يكن حاضرا ، ولما علم بموت سليمان ظن ان زمان قد جاء ، ولكنه اطمأن لما علم بان عمر صار خليفة .

وبعد موت سليمان بن عبد الملك فى (دابق) حيث كان يقيم ، طلب رجاء البيعة من بنى امية والناس على العهد الذى تركه سليمان . ولم يبايع هشام بن عبد الملك الا حينما سمع ان اخاه يزيد بن عبد الملك يخلف عمر بن عبد العزيز فى الخلافة . وهذا يثبت حكمة سليمان حين جعل يزيد بعد عمر ، ليتجنب معارضة بنى عبد الملك . (٢)

وكان ما جاء فى خطاب العهد مفاجأة كبرى لعمر بن عبد العزيز ، وهو يجلس بتواضع شديد فى أخريات المسجد ، وهو يقول لمن حوله من الناس : والله ان هذا الامر ما سألته قط فى سر ولا علانية . ومشى اليه رجاء مسلما عليه بالامارة

---

(١) فلهوزن : الدولة العربية ص ٢٥٧
(٢) ابن عبد الحكم ص ٣٢

طالبا منه ان يصعد المنبر ،فلم يستطع عمر النهوض من وقع المفاجأة ،حتى أعانه رجاء، فمكث عمر على المنبر فترة لا يتكلم ،ثم قال : " أيها الناس ،انى ابتليت بهذا الامر من غير رأى كان منى فيه ولا طلبة له ،ولا مشورة من المسلمين ،وانى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى ،فاختاروا لانفسكم.(١)

وثارت الدهشة ،فلم يتوقع الحاضرون هذا الزهد الشديد فى الخلافة ،وقام رجل من الانصار فقال : يا أمير المؤمنين ذاك والله اسرع فيما يكره. ثم دنا من المنبر وقال لعمر : ابسط يدك أبايعك. وترددت فى جنبات المسجد صيحات تقول : اخترناك ورضينا بك قل أمرنا باليمن والبركة.(٢)

وهكذا كان يوم بيعة عمر يوما غير مألوف اذ يختلف عن الايام السالفة التى شهدت بيعة اسلافه من الخلفاء الامويين المتكالبين على الخلافة ،والذين لا يجدون حرجا فى نقض العهود . وأثرت هذه الاحداث المفاجئة فى نفسية عمر ،فجعلته أعظم ايمانا بالله تعالى ،وأكثر تقديرا للمسئولية ، فقد ساق الله تعالى الخلافة اليه لتكون سبيله الى تحقيق الاصلاح والعدل والتطوير.

ولكن كان على عمر ان يتوقع معارضة شديدة من بنى امية عامة ،وبنى عبد الملك خاصة ،ورغم ان عمر كان أمويا ،الا ان بنى امية وقفوا من سياسته موقف المعارضة ،

---

(١) ابن الجوزى ص٥١

(٢) ابن الجوزى ص٥٥

منذ لحظة توليته ، فقد عرفوه ينشد العدل والرحمة لرعاياه ،وينبذ سياسة الخلفاء والولاة ،فقد كتب عبد الرحمن بن الحكم بن ابى العاص الى هشام بن عبد الملك يوبخه ويقول (١) :

بلغ هشاما والذين تجمعوا .. بدابق عنى لاوقيتم ردى الدهر
وأنتم أخذتم حتفكم بأكفكم .. كباحثة عن مدية وهى لاتدرى
عشية بايعتم اماما مخالفا .. له شجن بين المدينة والحجر

وهكذا تكاثفت عوامل عديدة على بلورة شخصية عمر ، وتكوين نفسيته وكان عمر الشاب فى المدينة ،غيره الوالى فى خناصرة ،ثم فى الحجاز ،وغيره فى السويداء ، ثم فى دمشق . ثم أصبح عمر الخليفة الزاهد ،الذى رأى ان يكون امتدادا لجده عمر بن الخطاب ،ولم يشأ ان يكون حلقة فى سلسلة الخلفاء الامويين. فأصبح جديرا بان ننسبه الى الخلفاء الراشدين.

---

(١) ابن عبد الحكم ص ١٤٨

٣ــ الثورات والحركات المعارضة

عاصر عمر بن عبد العزيز فترة قلق واضطراب فى الدولة الاموية ،ولاحت ساعات كانت تنذر بغروب شمس الدولة الاموية. والدولة الاموية من الدول الاسلامية العريقة ، وقد ساهمت فى نشر الاسلام بمواصلتها الفتوحات ،شرقا وغربا ،فى وسط آسيا وفى شمال افريقيا وفى جنوب اوروبا . كما وضعت الدولة الاموية لبنات كثيرة فى صرح الحضارة الاسلامية ،وعملت على اتساع نطاق انتشارها . كما اهتم الامويون بتعريب الدواوين الحكومية وسكوا عملة عربية. ولكن عمر الدولة الاموية كان قصيرا فلم يستمر بقاؤها غير ٩٢سنة (٤٠ ــ١٣٢ هـ) فقد تكاتفت عدة معاول هدم على اسقاط الدولة الاموية.

ومن أبرز عوامل سقوط الدولة الاموية قيام حركات ثورية معارضة فى أرجاء كثيرة من الدولة الاموية. شهد عمر بن عبد العزيز فى طفولته وصباه وشبابه جانبا كبيرا منها .

كان مولد عمر بن عبد العزيز ،كما رأينا ،وحسب رواية بعض المؤرخين ،فى سنة ٦١ هـ ،وهى السنة التى شهدت مصرع الحسين بن على بن ابى طالب ،فى عهد الخليفة الاموى الثانى يزيد بن معاوية. وكان مصرع الحسين فى كربلاء حدثا ضخما له دويه فى ارجاء العالم الاسلامى . يقول عنها صاحب كتاب الفخرى (١) : هذه قضية لا أحب بسط القول فيها استعظاما لها فانها قضية لا يوجد فى الاسلام أعظم فحشا

(١) الفخرى ص٨٤

منها ،ولعمرى ان قتل أمير المؤمنين عليه السلام هو الطامة الكبرى ،ولكن هذه قضية جرى فيها من القتل الشنيع والسبى والتمثيل ماتقشعر له الجلود ، واكتفيت عن بسط القول فيها بشهرتها ،فانها أشهر الطامات ،فلعن الله كل من باشرها وأمر بها ورضى بشيء منها "٠ وكان لمقتل الحسين نتائج هامة فى تاريخ العراق عامة وتاريخ الشيعة خاصة، كما كان له آثار واضحة فى العالم الاسلامى ٠ فقد تخلفت عن كربلاء (١) اثار نفسية ،فقد فجع المسلمون المعاصرون بقتل حفيد الرسول (٢) ٠

وتبلورت حركة الشيعة بعد استشهاد الحسين ،واتجهت اتجاها دينيا ، بل غلب الجانب الدينى فى التشيع الجانب السياسى (٣) ٠ وانضمت الى الشيعة كل العناصر المناوئة للدولة الاموية ،وخاصة الموالى (٤) ، فوضعوا بذلك أسس حركة الشعوبية ولم تدرك الدولة الاموية ان قتل الحسين هو سلاح ذو حدين وضعته فى ايدى أعدائها (٥) ٠

---

(١) خرج الحسين من مكة الى الكوفة فى ٨ من ذى الحجة سنة ٦٠ هـ وارسل واليها عبيد الله بن زياد جيشا يتألف من عشرين ألفا لتقال الحسين وكان فى تسعين نفسا مابين رجل وأمرأة وطفل ،وانتهت مأساة كربلاء بمصرع الحسين (الطبرى ، جـ ٦ ص ٢٢ ومابعدها ،الدينورى : الاخبار الطوال ص ٢٥٦)٠

(٢) الخربوطلى : تاريخ العراق ص ١٢٢

(٣) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة فى الاسلام ص ١٧٦

(٤) بروكلمان :تاريخ الشعوب الاسلامية جـ١ ص ١٥٤

(٥) Muir : The Caliphate, p. 324.

وعاصر عمر بن عبد العزيز فى طفولته حركة عبد الله بن الزبير فى الحجاز، وامتدادها الى معظم أقاليم الدولة الاموية. وكانت المدينة المنورة، موطن عمر بن عبد العزيز من نتائج الغزو الاموى وموقعة الحرة. فقد رأى الخليفة الاموى يزيد بن معاوية تأديب أهالى المدينة لتأييدهم لعبد الله بن الزبير.(١)

وعلم أهل المدينة بمسير القائد الاموى مسلم بن عقبة اليهم، فحاصروا الامويين فى دار مروان بن الحكم، جد عمر بن عبد العزيز، وهددوهم بالقتل ان امتنعوا عن ان يقسموا لهم ألا يغدروا بهم أو يطلعوا الجيش الاموى على احوالهم. وسمح أهل المدينة لهم بالرحيل، فخرجوا من المدينة حتى قدموا على الجيش الاموى.(٢) وحاول مسلم أن يقف منهم على أحوال المدينة، ولكن عمرو بن عثمان بن عفان رفض اذ تعهد لاهل المدينة ألا يغدر بهم. أما مروان بن الحكم فلم ير بأسا من احاطة مسلم علما بكل ما أراد معرفته.(٣)

وأباح مسلم المدينة ثلاثة ايام لجنده، يقتلون، ويسلبون، فأفزعوا الصحابة.(٤) وبلغ عدد القتلى من الصحابة ثمانين صحابيا، ولم يبق بدرى بعد ذلك، كما قتل من قريش والانصار سبعمائة ومن سائر الناس من العرب والموالى عشرة آلاف.(٥)

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ٤ ص ٤٨
(٢) الطبرى جـ٤ ص ٥١
(٣) الخربوطلى : عبد الله بن الزبير ص ١١٢
(٤) الطبرى : جـ٤ ص ٥١
(٥) ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ١ ص ١٥٢

وحاصر الجيش الاموى عبد الله بن الزبير فى مكة ، والتجأ ابن الزبير الى الكعبة ، فلم يجد الامويين حرجا فى قذفها بالمنجنيق فتداعت احجارها (١) . ومات يزيد بن معاوية خلال الحصير ، وحرض القائد الاموى الحصين بن نمير — وقد خلف مسلم بن عقبة فى القيادة بعد وفاته — الخلافة على ابن الزبير ، مشترطا البيعة له فى دمشق عاصمة الامويين (٢) ، وقبل ابن الزبير الخلافة على ان تتم البيعة له فى مكة ، وانتهت المفاوضات بالاخفاق .

وتولى الخلافة معاوية الثانى الذى كان زاهدا فى الخلافة ، فتنازل عنها دون اختيار من يخلفه (٣) . وتنافس زعماء الامويين على الخلافة ، وتقاتلوا . وانتهز ابن الزبير هذه الفرصة لينشر دعوته فى الامصار الاسلامية (٤) ، حتى انكمش النفوذ الاموى فى أقليم الاردن .

وأراد ابن الزبير ان يرضى مشاعر أهل المدينة ، فكتب الى واليه ان ينفى جميع الامويين من المدينة (٥) ، فأخرجهم جميعا وسمح لهم بأخذ اموالهم ونسائهم واولادهم ، ورحلوا الى دمشق بالشام . ولكن نفيهم وان ارضى اهل المدينة ، الا انه اضر بمصالح ابن الزبير ، فقد اتاح لهؤلاء الامويين ان يفروا من قبضته . فقد خرج هؤلاء الامويين وعلى رأسهم شيخهم مروان بن الحكم حيث بدأوا ينسجون المكائد ضد ابن الزبير ، ويعطون

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ٤ ص٥٢
(٢) الطبرى جـ٤ ص٣٨٦ ، ابن الاثير : الكامل جـ٣ ص٥٥
(٣) ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ٢ ص٩
(٤) ابن الاثير : الكامل جـ٤ ص٦١—٦٢
(٥) اليعقوبى جـ٣ ص٣

الجابية : قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان ، وفي هذا الموضع خطب عمر خطبته المشهورة [معجم البلدان ج ٢ ص ٩١

على دفع مروان الى الخلافة فيخلقون منافسا كبيرا لابن الزبير ٠ (١)

ورأى الامويون ان يجمعوا كلمتهم لمواجهة منافسة ابن الزبير الخطيرة، فعقدوا مؤتمر الجابية ٠ (٢) الذى انتهى بالبيعة لمروان بن الحكم بالخلافة ،وبدأ الصراع بين خليفة الشام وخليفة الحجاز حول مصر ثم العراق ٠ ونجح مروان فى انتزاع مصر من ولاة ابن الزبير ٠ (٣) وولى عليها ابنه عبد العزيز ،وعاد مروان الى الشام ٠ (٤) واخفق مروان فى انتزاع العراق من ولاة ابن الزبير وفى انتزاع المدينة وترك امر الصراع لخليفته عبد الملك بن مروان ٠ (٥)

وشهد عمر بن عبد العزيز فى مطلع شبابه حركة المختار بن ابى عبيد الثقفى بالعراق (٦) الذى اعلن انه وزير آل محمد وداعية محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية (٧) وانضم الموالى الى حركة المختار فاتخذ منهم جنده ،وازداد نفوذه بالعراق وتفوق على ابن الزبير ٠ ولقى المختار حتفه على يد مصعب بن الزبير (٨) ، ثم نجح الخليفة عبد الملك بن مروان فى انتزاع العراق من ولاة ابن الزبير ٠ (٩)

---

(١) الخربوطلى : عبدالله بن الزبير ص ١٢٣
(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج٢ ص ١١ ،ابن كثير : البداية والنهاية ج٨ ص ٢٤
(٣) المسعودى : مروج الذهب ج٣ ص ٣٢
(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ج٨ ص ٢٦
(٥) المصدر السابق ٠
(٦) بدأ المختار حياته السياسية شيعيا يدعو للحسين بن على ،ثم انضم الى ابن الزبير خلال حصار مكة فى عهد يزيد ،ولما لم يحقق ابن الزبير اطماعه ،دعا لابن الحنفية (انظر كتاب المختار الثقفى للدكتور الخربوطلى) ٠
(٧) المسعودى : مروج الذهب ج٣ ص ٢١
(٨) اليعقوبى ج٣ ص ٥ ،الطبرى ج٧ ص ١٠٥ (٩) ابن الاثير : الكامل ج٤ ص ١٣٥

وما لبث عمر بن عبد العزيز ان شهد صورا اخرى لتمزق الدولة الاموية ، واضطرابها بالفتن والقلاقل فى عهد صهره عبد الملك بن مروان . فقد قامت فى العراق فى عهده حركة عبد الرحمن بن الاشعث ، نتيجة عدة عوامل ، منها خلافه مع الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق ، ومنها سوء حالة الموالى ، الذين ازروا ابن الاشعث . (١) واصبحت حركة ابن الاشعث حركة انفصالية قام بها موالى العراق ضد الشام ، فهى ليست موجهة الى الحجاج فحسب ، بل الى الدولة الاموية بأسرها . (٢) وانتهت حركة ابن الاشعث ، بعد جهود كبيرة بذلها الامويون ، بالاخفاق . (٣)

كما شهد عمر بن عبد العزيز حركات الخوارج ، واثارتهم الرعب والفزع فى بعض اقطار الدولة الاموية ، فوضع فى ذهنه حل هذه المشكلة اذا تولى الخلافة ، بصورة تختلف عن صور مواجهة الامويين التقليدية لفتن الخوارج . فقد اتصف الخوارج بالتطرف فى افكارهم السياسية والدينية ، وحكموا بالكفر على المخالفين لهم فى الاراء ، وأباحوا دماء مخالفيهم بل قتلوا نساءهم وأطفالهم . (٤) وظهر خطر الخوارج فى عهد عبد الملك بن مروان ، نتيجة بغضهم لواليه بالعراق الحجاج بن يوسف الثقفى ، الذى جند اهل العراق لقتال الخوارج . (٥)

(١) اليعقوبى ج٣ ص١٢ ، المسعودى : التنبيه والاشراف ص٢٧٢
(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد السابع ، ص ٣١٥
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٨١ ، الدينورى : الاخبار الطوال ص٣٢٢
(٤) الطبرى ج٧ ص ٨٨ ، البغدادى : الفرق بين الفرق ص٥١
(٥) المسعودى : مروج الذهب ج٣ ص ٧٠

ونجح عبد الملك فى كسر شوكة الخوارج فى عهده،[1] مما اعطى الفرصة للوليد بن عبد الملك للقيام بالفتوحات ،كما نجح عمر بن عبد العزيز — كما سنرى — فى الحوار معهم واقناعهم بالهدوء .

ومن أبرز احزاب المعارضة فى العصر الاموى ،جماعات الشيعة . وقد اصبحت اقدر الفرق الاسلامية على العمل فى الخفاء ،فوضعت انظمة سرية لنشر تعاليم الشيعة بين الجماهير . ومن الطبيعى ان هذه الانظمة كانت موضع مراقبة السلطات الاموية ومطاردتها ،وكان اضطهاد العلويين هو شغل الحكام الشاغل ،ولم يفت هؤلاء ان يروا الدعاية السياسية التى تبثها الشيعة خطرا يهدد سلامة الدولة وأمنها .[2]

كانت اشهر فرق الشيعة قبيل تولية عمر بن عبد العزيز فرقتى الامامية والكيسانية.أما فرقة الامامية ،فقد لجأ ائمتها على زين العابدين ثم محمد الباقر الى الامامة الروحية، ولم يعلنوا الثورة والكفاح ،وانصرفوا الى العلم والدين ،ورأيا ان تهذيب النفوس وصقل العقول واعداد المسلم الصالح خير الوسائل المناسبة للجهاد فى ذلك العصر حتى تتهيأ الفرصة للكفاح المسلح .

كما اتجهت الشيعة الامامية الى الدعوة السرية أو ما يسمونه التقية والكتمان.[3]

(١) الطبرى : جـ ٧ ص ٢٢٦ـ٢٢٩

(٢) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة ص ١٧٧

(٣) Lammens : L'Islam, p. 159.

فقد كانت الشيعة تحارب جهرا كلما امكنها ذلك ،ولكن الظروف لم تساعدهم على ذلك فتحولوا الى المقاومة السرية .

أما الشيعة الكيسانية ،فهم اتباع المختار الثقفى الذين دعوا لمحمد بن الحنفية ، وقد تفرع عن هذه الجماعة فرقة الهاشمية ،ونادت بأن ابن الحنفية قد اوصى الى ابنه عبد الله بن محمد المعروف بأبى هاشم بالامامة بعده .(١) وقد نظم ابو هاشم الدعوة وجاهد فى ضم صفوف الشيعة سواء أكانوا غلاة ام معتدلين مادام يجمعهم كراهية الامويين واضطهاد ولاتهم لهم ،وحاول التوفيق بين الاسلام والعقائد غير الاسلامية ، تلك العقائد التى كانوا لايكشفون خباياها الا لمن يكرسونه لتلك الدعوة .(٢) وكان يشترط فى الدعاة الاخلاص التام للامام والطاعة العمياء لاوامره .(٣)

وقبيل تولية عمر بن عبد العزيز ،حدث حادث هام غير مسار الدعوة الهاشمية . فقد بدأ أبو هاشم نشاطا واسعا لبث دعوته فى سائر الاقطار ، وعلم الخليفة سليمان بن عبد الملك بهذا النشاط وأدرك خطورته ،فرأى الخلاص من ابى هاشم باغتياله ، فأوعز الى رجل بان يعطيه لبنا مسموما .(٤) وكان ابو هاشم حينئذ بالشام ،قرب قرية الحميمة من اعمال حمص. وبدأ السم يسرى فى جسده ،وادرك قرب وفاته ،ورأى ان يفضى

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل جـ١ ص ٢٥١
(٢) الخربوطلى : تاريخ العراق ص ٢١
(٣) فان فلوتن : السيادة العربية ص ٩٢
(٤) ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ٢ ص ١٣٣

بوصيته الاخيرة وبأسرار الدعوة وبأسماء الدعاة ،ورأى ان يتجه الى الحميمة حيث تعيش الاسرة العباسية ،بعد نفيها من الطائف .

قال ابو هاشم لمحمد بن على بن عبد الله بن العباس : " يا بن عم أنا ميت وقد صرت اليك ،وهذه وصية أبى الى وفيها ان الامر صائر اليك والى ولدك والوقت الذى يكون ذلك والعلامة وما ينبغى لكم العمل به على ما سمع " . ثم اوصاه بالشيعة خيرا ،وان يتخذ منهم دعاته وانصاره ،وان يجعل خرسان مركزا لدعوته والانصراف عن الدعوة فى الشام ونصحه بان يجعل دعاته اثنى عشر نقيبا ،حتى اذا دخلت السنة المائة بعث رسله ودعاته. (١)

وعمل محمد بن على بنصيحة أبى هاشم فبعث سنة ٩٧ هـ ميسرة النبال الى الكوفة ، وهو من الموالى ، فوضع بذلك أسس الدعوة العباسية . وفى سنة ١٠٠ هـ ،توافدت شيعة العراق على محمد بن على فى الحميمة بالشام ،فأرادوه على البيعة ،فقال لهم : " هذا أوان ما نؤمل ونرجو من ذلك لانقضاء مائة سنة من التاريخ " . (٢) ووجه دعاته الى العراق وخراسان ،فأقبلت الشيعة على البيعة لمحمد بن على . (٣)

كان عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٠ هـ يتولى الخلافة . وكان المسلمون يرددون حديثا نبويا شريفا نصه : " ان الله يبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها ". (٤)

(١) اليعقوبى ج٣ ص ٤٠
(٢) الدينورى : الاخبار الطوال ص ٣٣٤
(٣) الطبرى ج ٨ ص ١٣٦
(٤) جاء الحديث فى سنن ابى داود واكد الامام بن حنبل صحته.

ينبغى التطويل هنا لماذا كان عمر هو المجدد الأول ؟

واختلف المسلمون فى نوعية هذا المجدد ، فقد يكون حاكما او فقيها او محدثا . ورأى كثير من المسلمين ان هذا المجدد هو عمر بن عبد العزيز نتيجة ما اتبعه من سياسة عدل وتسامح واصلاح . ولكن كان هناك فريق من المسلمين يرون نقض الخلافة الاسلامية من اساسها ، واقامة خلافة هاشمية ، يتولاها هاشمى من البيت النبوى الشريف ، سواء أكان علويا أو عباسيا . وقد كان محمد بن على بن عبد الله بن العباس قد جعل الدعوة للرضا من آل محمد أى من يرتضيه المسلمون من آل الرسول ، دون تحديده بأنه علوى أو عباسى .

وكانت سياسة السلام والعدل التى اتبعها عمر من العوامل التى شجعت محمد بن على العباسى على بدء الدعوة العباسية . ولو كان الخليفة القائم غير عمر بن عبد العزيز لواجهها فى حزم وعنف ، فماتت فى مهدها .

وهكذا كانت تولية عمر بن عبد العزيز من أبرز عوامل نجاح الدعوة العباسية ، ثم قيام خلافة بنى العباس فى العاشر من المحرم سنة ١٣٢ هـ. (١) ومات محمد بن على تاركا ابناءه ابراهيم وأبا العباس والمنصور يكملون مابدأه ابوهم وحمل ابراهيم لواء الدعوة العباسية وكان ابو مسلم الخراسانى اخر الدعاة الذين بعث ابراهيم بهم الى خراسان حيث كون جيشا ضخما هزم به مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين . وسقطت الدولة الاموية . (٢) وقدر العباسيون عدالة عمر ونزاهته ، فلم يسيئوا الى جثمانه ، رغم اساءتهم لسائر الخلفاء الامويين .

(١) الدينورى : الاخبار الطوال ص٣٦٥

(٢) الطبرى جـ٨ ص١٣٧ ومابعدها ، الفخرى ص١٠٤ ومابعدها .

٤ ـ مشكلـــــة الموالـــــى

ظهرت مشكلة الموالى مع قيام الدولة الاموية ، واستمرت العامل المؤثر فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ، طوال العصر الاموى ، ثم كانت العامل الرئيسى فى سقوط الدولـــــة الاموية التى قصر عمرها فلم يتجاوز ٩٢ عاما ٠

الموالى ـ عند المؤرخين المسلمين ، هم المسلمون من غير العرب ، أما الفقهـــاء ، فيجملون الموالى على نوعين ، موالى العتق ، وموالى الحلف ، اما الفريق الاول ، فهم مـــن كانوا رقيقا ثم أعتقهم اسيادهم ، وكان العرب ، خلال الفتوحات الاسلامية ، قبل غزو مدينـــة ما يخيرون اهلها بين أمور ثلاثة : الاسلام أو اداء الجزية أو القتال ، فاذا اعتنقوا الاسلام أصبح لاهل المدينة ما للمسلمين من حقوق وواجبات ، واذا اصروا على الاحتفاظ بعقيدتهم لهم ذلك فلا اكراه فى الدين ، مقابل دفع الجزية ، واذا رفضوا هذين الحلين السلميـــــن ، لم يبق غير القتال ، فاذا انتصر الفاتحون المسلمون اصبح اهالى المدينة أسرى أرقاء ، (١)

نصح الاسلام المسلمين بمعاملة رقيقهم معاملة انسانية كريمة ، وحثهم على تحريـــــر الرقيق ، وجعله كفارة عن كثير من الذنوب والاثام ، (٢) وتتحول صلة الرق بعد العتـــــق الى صلة ولاء ، ويطلق على الارقاء اسم (موالى) وكان السيد يدفع الدية عن مولاه اذا ارتكب جناية ، كما كان السيد يرث معتقه ، وقد كتب عمر بن عبد العزيز الى واليه بالعراق " مولـــى العتاقة يورث ولا يرث " ، (٣)

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥١ ، الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٢٥

(٢) مثل القتل الخطأ والحنث فى اليمين ، قال الله تعالى (ومن قتل مؤمنا خطـــــأ فتحرير رقبة مؤمنة) وقال عز وجل (فلا اقتحم العقبة وما ادراك ما العقبة فك رقبة) ،

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٤ ص ٤٣٦

وهناك نوع آخر من الموالي ، هم الاهالي الذين اسلموا وانضموا الى العرب ، ودخلوا في خدمتهم وتحالفوا معهم لكي يعتزوا بشوكتهم وقوتهم ، فأصبحوا موالي أيضا بالحلف . (١)

دخلت كثير من العناصر الاجنبية في الاسلام ، وشاركت في النهضة بالحضارة الاسلامية على امل ان تتحقق لها المساواة مع سائر العرب . ولكن سرعان ما خاب أملهم في العصر الاموي ، فقد كانت الدولة الاموية دولة عربية صميمة تعتز بعروبتها ويصل هذا الاعتزاز الى درجة التعصب ضد سائر العناصر الجنسية الاخرى في الدولة ، ولم يحرص الامويون غالبا على تحقيق تعاليم الاسلام التي تنهى عن اى لون من ألوان العصبية ، وخاصة العصبية الجنسية ، وقد مارس الامويون سياسة التفرقة العنصرية .

ترفع العرب واعتبروا انفسهم أسمى من سائر العناصر الجنسية ، فكانوا يسمون الموالي (العجم) ، وقد اشتقوا هذا الاسم من لفظ (الاعجم) وهو الاخرس (٢) ، فالفصاحة في رأى العرب ، من خصائصهم وحدهم . واعتبر العرب الموالي دخلاء في الدين والقومية العربية (٣) ، واصبح هؤلاء العرب طبقة ارستقراطية تعلو سائر طبقات المجتمع. (٤) واعتبر العرب زواج المولى من فتاة عربية زواجا غير متكافئا وحكموا ببطلانه . وكان العرب يطلقون اسم (الهجين) على من كان ابوه عربيا وأمه أعجمية ، ويطلقون لفظ (المذرع) على كل من كانت امه عربية وأبوه اعجميا . (٥)

(١) المصدر السابق ج ٤ ص ٤٣

(٢) جرجس زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج٤ ص ١٤

(٣) جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ص ٤٣

(٤) Nicholson: A Lit. Hit. of the Arabs, p. 247.

(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج١ ص ١٢٩ ــ كان العرب في الجاهلية لا يورثون الهجين.

كان من أبرز العوامل التى أثرت فى حياة الموالى الاجتماعية تعصب العرب ضدهم فقد احتقر الامويون بتأثير العصبية جميع الاقوام غير العربية ، وعدوهم فى منزلة اجتماعية ادنى من العرب ، وابعدوهم لذلك عن السياسة والقيادة ، ففرضوا عليهم من الضرائب اكثر مما فرضوه على العرب ، فالعصبية تبدأ للبيت الاموى ثم للقبيلة ثم تتوسع أخيرا فتكون للامة العربية. (١)

أبى العرب الاختلاط بالموالى وحافظوا على طابعهم العسكرى لتكون مهنتهم الحرب والجهاد . وكان العرب يستخدمون الموالى فى الحروب كمشاة ولا يسمحون لهم بان يكونوا فرسانا . (٢) فقد كان العرب يعتقدون ان مهنتهم الاولى هى الحرب ، وانهم اذا اشركوا مواليهم معهم فهذا استثناء ، فالموالى لم يخلقوا الا للحرف والمهن الوضيعة كما قال عربى : " يكسحون طرقنا ، ويخرزون خفافنا ، ويحوكون ثيابنا ". (٣)

ولذا انصرف الموالى الى النشاط الاقتصادى ، فسيطروا احيانا على الحياة الاقتصادية وحازوا ثروات واسعة ، كما اشتغل كثير منهم بالعلم والادب ، وساهموا فى نهضة الحضارة الاسلامية مساهمة فعالة ايجابية ، فقد اراد هؤلاء الموالى ان يثبتوا وجودهم فى الدولة الاموية ، وانهم ينتمون الى أصول حضارية عريقة . واشتهر كثير من الموالى بالورع والتدين ، ولا شك فى ان هذه الروح الدينية دفعتهم الى عدم الرضا عن بعض الخلفاء الامويين الذين اقبلوا على الملذات والشهوات. (٤)

---

(١) الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ص ٧٧
(٢) الطبرى : جـ٧ ص ١٤٧
(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٣ ص ٤١٤
(٤) سيديو : تاريخ العرب العام ص ١٧٣

وتمدد صور احتقار العرب للموالي في المجتمع الاموى ، وذكر ابن عبد ربه (١) ، عدة امثلة ،فكان العرب لايقبلون ان يؤمهم مولى في الصلاة ،وكانوا يقولون ايضا : لايقطع الصلاة الا ثلاثة : حمار أو كلب أو مولى . وكان العرب لايكنون الموالي بالكنى ولا يدعونهم الا بالاسماء والالقاب ولايمشون في الصف معهم ولايقدمونهم في الموكب ،ولا يشاركوهم مجالس الطعام ،ولايزاوجوهم واذا اراد العربى الزواج من بنات الموالي خطبها من مولاهـــــا وسيدها ،لامن أبيها أو اخيها ، وان زوجها أبوها او اخوه بدون اذن السيد اعتبر العقـد باطلا . (٢)

كان الامويون في حاجة الى الكثير من الاموال لمواجهة الثورات الداخلية المتتادة ، وللقيام بالفتوحات الواسعة وللانفاق على مظاهر البذخ والترف ،ولذا تخلوا عن نظـــــام عمر بن الخطاب الذى يعفى من يعتنق الاسلام من الجزية ،كما فرض الولاة الامويون علـــــى الاهالي تقديم الهدايا في الاعياد ،مما زاد من أعباء الموالي المادية ." ولم يتبع الامويون سياسة ثابته في العطاء الذى تصرفه الدولة ،فكان عطاء الموالي ينقص ويزيد تبعا لاهـــواء الخلفاء او ظروف الدولة ،ولكن كان عطاء الموالي أقل من عطاء العرب دائما . (٣)

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٢ ـ ٤١٣
(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج٢ ص ١٣٠
(٣) اليعقوبى ج٢ ص ١٩٤

دخل الموالى التنظيم القبلى ، وتأثروا بالعصبية العربية فكان موالى كل قبيلة ينتسبون اليها ويحاربون فى صفوفها . (١) وكلما وجدت كلك العصبية سادت حالة الموالى وانحدرت منزلتهم ، حتى اذا ما اختفت ارتاحت نفوس الموالى . (٢)

وادت هذه السياسة الاموية المتعصبة للعروبة الى ظهور نزعات قومية عند الموالى وخاصة الفرس ، الذين ادركوا ان الدولة لاتساوى بين رعاياها جميعا ، ولا توفر لهما المناخ الصالح للامتزاج ثم الاندماج ، ولذا حافظ الموالى الفرس على شخصيتهم وحضارتهم الفارسية واراد بعضهم احياء الدولة الفارسية القديمة فى ثوب اسلامى جديد ، وتطرف البعض ، فأراد احياء العقائد المجوسية البائدة ، ونتجت عن هذه الاتجاهات كلها ظهور تيارات الشعوبية وزعم الشعوبيون ان اخطب الناس هم الفرس ، وان الفرس اكثر معرفة من العرب بأمور الحرب . (٣) كما اعتز الموالى الفرس بمساهمتهم فى النشاط الدينى والادبى والعلمى ، وفى النشاط الاقتصادى . (٤)

ويبرر استاذنا الدكتور على حسنى الخربوطلى (٥) تعصب العرب على الموالى ، بغيرة العرب على الاسلام وعلى اللغة العربية . فقد شعر العرب ان بعض الموالى قد اعتنق

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٩٦
(٢) الطيب النجار : الموالى فى العصر الاموى ص ٢٨
(٣) الجاحظ : البيان والتبيين ج٣ ص ٦
(٤) Sykes: Hist. of Persia, V.I, p. 537.
(٥) تاريخ العراق ص ٢٥٦

الاسلام لمصالح ذاتية ، منها الخلاص من الجزية ، وان بعضهم أسلم ظاهريا واحتفظ في قلبه بعقائده القديمة . كما كانت الغيرة على اللغة العربية من العوامل التي ادت الى حركة تعريب الدواوين في عهدى عبد الملك والوليد .

عاصر عمر بن عبد العزيز ، قبل توليته الخلافة ، فترة ساءت فيها احوال الموالي مما أصبح من المحتم على عمر ان يسارع بحلول ناجحة لحل مشكلة الموالي .

انضم الموالي ، وخاصة الفرس ، الى كل الاحزاب المعارضة ، والى كل ثائر ضد الدولة الاموية ، مهما كانت دوافعه وآراؤه . وهدفهم اسقاط الدولة الاموية ، وأقامة دولة اخرى تحقق للموالي المساواة مع العرب . فانضموا الى الشيعة والخوارج والى الحسين ابن علي وعبد الله بن الزبير والمختار الثقفي وعبد الرحمن بن الاشعث ، وغيرهم .

عاصر عمر بن عبد العزيز فترة ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي لبلاد العراق ، وابدى سخطه على قسوته وجبروته ، ونصح الخليفة الوليد بن عبد الملك بعزله ، بدون جدوى . ولكن الوليد وأباه عبد الملك كانا لا يهتمان باسترضاء رعاياهم بالعراق ، بقدر اهتمامهما بحفظ الامن وتحقيق الاستقرار في العراق . فقد قال عبد الملك للحجاج حسين ولاه حكم العراق : " سر الى العراقيين واحتل لقتلهم فانه قد بلغني عنهم ما أكره " . (١) ويصف المستشرق (وليم ميور) (٢) الحجاج بانه الصورة المجسمة للقسوة ، وانه

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ٢ ص ٣١
(٢)

اذا كان قد وطد الحكم الاموى ،وقضى على الشغب ، فان هذا كله لايبرر سفكه الدماء فى تلك القسوة الوحشية المتناهية . وقد بنى الحجاج مدينة واسط ،فأصبحت مدينة اموية وسط العراق ،وحكم العراق بجند من الشام.(١)

وقام الموالى بثورة عنيفة ضد الحجاج بزعامة عبد الله بن جارود (٢) ، ثم بزعامة عبد الرحمن بن الاشعث . (٣) وكانت هزيمة ابن الاشعث وبالا على الموالى ، فقد بدأ الحجاج عهدا جديدا من القسوة والارهاب ، حتى ان الخليفة عبد الملك ابدى استياءه ولام الحجاج .(٤)

ويعلق المستشرق (فلهوزن) (٥) على موقف الخليفتين عبد الملك والوليد ،من كل من الحجاج وعمر بن عبد العزيز ،فيقول : كان مسلك عبد الملك من الحجاج احيانا مسلك السيد الآمر ، فلما جاء الوليد بن عبد الملك ، وكان الحجاج يتمتع بكامل سلطته بل كان ينصاع له ويستجيب الى رغباته حتى فى دائرة اختصاصه كخليفة . فمن امثلة ذلك ان عمر بن عبد العزيز كان واليا على المدينة ، فلجأ اليها بعض أهل العراق فرارا من عسف الحجاج ،فكتب عمر الى الوليد ينبهه الى ظلم الحجاج لاهل العراق ،فكتب

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين جـ٢ ص ٦٨

(٢) الطبرى جـ٧ ص ١٤ ومابعدها ــ ابن الاثير : الكامل جـ٤ ص ١٥٨ ومابعدها .

(٣) الطبرى : جـ٨ ص ٧٢ ومابعدها .

(٤) المسعودى : مروج الذهب جـ٣ ص ٧٥

(٥) فلهوزن : الدولة العربية ص ٢٤٣

الحجاج الى الوليد بان لجوء أهل العراق الى المدينة هو وهن فى سلطان الدولة.
فطلب الوليد من الحجاج ان يرشح له رجلين ليوليهما مكة المدينة بدلا من عمر.

على ان الموالى ما لبثوا ان شغلوا بالفتوحات الواسعة التى قام بها الوليد بن عبد الملك عن الثورة ،فاشترك الاف من موالى العراق فى فتح الاجزاء الشرقية من العراق وخراسان مثل بخارى والطالقان وطخارستان والصفد وسجستان وغيرها. (١)

ثم تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٥ هـ ،الذى ولى يزيد بن المهلب حكم العراق وأعلن أنه سيمحو مظالم الحجاج ،فأقام الموائد لاطعام فقراء العراق (٢) ، وأطلق سراح ثلثمائة ألف سجين ازدحمت بهم سجون الحجاج ، ثم صادر أموال آل الحجاج (٣) . وأراد سليمان ان ينفس الموالى عما فى صدورهم من كراهية الحجاج فكان يأمر وفود العراق بشتم الحجاج (٤) . وزاد سليمان عطاء الموالى الى خمسة وعشرين درهما. (٥)

علق المستشرق (فلهوزن) (٦) على احوال الموالى قبيل تولية عمر ،وفى عهد سليمان فقال : بعد موت الحجاج وموت الوليد بعده بقليل تنفس أهل العراق الصعداء،

---

(١) اليعقوبى جـ٣ ص ٣٠
(٢) الطبرى جـ٨ ص ١١٤
(٣) الدميرى : حياة الحيوان جـ١ ص ٧٩
(٤) الجاحظ : البيان والتبيين جـ١ ص ٣١١
(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد
(٦) فلهوزن : الدولة العربية ص٢٥٣

ولكنهم لم يلبثوا ان تبينوا ان تغير الاشخاص لم يأت معه تغير النظم ، وان يزيد بن المهلب وان كان قد آذى آل الحجاج وعماله ، فانه لم يسلك فى الحكم طريقا غير طريق الحجاج . فهو أقام مثله فى واسط ، واستبقى أهل الشام فى العراق ، ووجد انه لايستطيع ان يغير شيئا من نظام الضرائب التى بغضت الحجاج الى الناس ، ان كان لابد ان يبقى دخل الدولة فى المستوى المالى الذى كان عليه . على ان يزيد اراد ان يتفادى بغض أهل العراق له ، فطلب الى الخليفة ان يعفيه من ولاية الخراج وان يقلدها لعامل آخر أشار به ، ولكن ذلك آل الى شيء لم يكن يخطر له على بال ، لان العامل الذى اشار به يزيد وعينه سليمان على خراج العراق كان عاملا قديما من عمال الحجاج ، وهو صالح بن عبد الرحمن ، وهو الذى نقل لغة الديوان الى اللغة العربية . وكان لصالح فى واسط اربعمائة من جند الشام تحت تصرفه يسيرون بين يديه اذا خرج وقد ضيق على يزيد ، ورفض ان يحمل خزانة الخراج تلك النفقات الكبيرة التى كان ينفقها يزيد . وكان يزيد رجلا همه الطعام والشراب والنساء وكان بدينا فاسد الصورة .

كان سليمان بن عبد الملك أخف من الوليد وطأة وألين عريكة وأسمع للنصح ، فضم اليه عمر بن عبد العزيز يستشيره ، ووجد عمر فى سليمان الخصب الذى يزرع فيه فينمو زرعه ، فلزمه يهديه ويرشده ، ولزمه سليمان يسأله ويستفتيه ، وصارت له عنده منزلة دون جميع بنى مروان . (١)

---

(١) سيد الاهل : الخليفة الزاهد ص ٧٥

٥ – فساد الجهاز الحكومي

كانت الدولة الاموية قبيل تولية عمر بن عبد العزيز الخلافة فى حاجة الى حركة تصحيحية ،تصحح من الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية السائدة ،وكان لابد أيضا من توفير أداة تنفيذية صالحة تشرف على التصحيح والتطهير والتطوير ،وذلك بتنقية الجهاز الحكومى والادارى من الشوائب التى شابتها منذ بداية العصر الاموى سنة ٤٠ هـ ٠ وكان لابد من تجديد الدماء ،والاستفادة من العناصر المعروفة بالصلاح والحزم والنزاهة٠

أهمل الامويون التوفيق بين مصالح الطبقات المتضادة ،اى بين مصلحة الغنى والفقير ،وبين مصلحة الاقطاعيين والفلاحين ،فترتب على هذا الاهمال حالة اجتماعية توترت فيها العلاقات بين طبقات المجتمع الاسلامى ،وبلغ هذا التوتر درجة أدت الى اصطدام عنيف مما أدى الى تصدع الدولة الاموية ٠ (١)

اتصفت الادارة فى العصر الاموى بمظاهر سيئة كثيرة ،فقد ولى الخلفاء الامويون عمالا أشداء لايبالون بالدين ولا أحكامه فى سبيل أغراضهم ،وكان هؤلاء العمال يختصون بجانب كبير من أموال الدولة ،وقد تغافل معظم الخلفاء عن هذه المفاسد ترغيبا لهم فى البقاء على ولائهم ،وزادت نفقات العمال زيادة فاحشة٠ (٢)

---

(١) جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ص٠ ٤

(٢) جرجس زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى جـ٤ ص ٧٩٠

ولى بعض الخلفاء حكم الولايات لبعض ابناء البيت الاموى فأساءوا السيرة ، وأغمض الخلفاء عيونهم من مظالمهم حرصا على الرابطة العائلية ، وكان هم معظم الولاة ابتزاز الاموال وارضاء العامة ببذل الاموال الكثيرة . ولم يكن الرؤساء وحدهم هم الذين يثرون على حساب بيت المال ، فقد كان هناك طائفة من صغار الموظفين لاشغل لهم الا الاثراء بالاختلاس والسلب واستطاع عدد كبير منهم جمع ثروات ضخمة .(١)

علق المستشرق (فلهوزن)(٢) على تولية الامويين حكم الامصار الاسلامية ، فقال : أعطى عبد الملك أقاربه من بنى امية من التمتع بالسيادة نصيبا اوفر لما كان يعطيهم اياه من كان قبله من الخلفاء فكادت تكون فى أيديهم فى اول الامر كل امارات الامصار ، فكان عبد العزيز بن مروان أميرا على افريقية ومصر ، وكان محمد بن مروان اميرا على الجزيرة وأرمينية ، وكان لهذه الامارة خطرها ، نظرا للحرب مع الروم . وتقلد بشر بن مروان على صغر سنه ، امارة الكوفة ، ثم ضمت اليه امارة البصرة . وكانت جماعة بنى امية فى مجلس الخلافة ، منذ ان خرجوا مع مروان من المدينة الى دمشق ، أكبر بكثير من ذى قبل .

ثم يقول فلهوزن :(٣) وقد يبدو ان عبد الملك قد اقام الدولة على قواعد جديدة ، فأصبحت ادارتها فيما يظهر ذات طابع فنى ومتدرج اكثر مما كانت عليه من قبل ، ولكن

---

(١) فان فلوتن : السيادة العربية ص ٣٠

(٢) فلهوزن : الدولة العربية ص ٢١٥

(٣) المرجع السابق ص ٢١٣ — ٢١٤

هذه الادارة لم تبلغ فى ذلك الا درجة أقل بكثير مما بلغته ادارة الدولة العباسية. وقد اصبح عبد الملك أيضا لايسمح لذوى النباهة من الرجال بأن يرفعوا الكلفة بين انفسهم وبينه ،كما كان يفعل معاوية من قبل ومطمئنا الى ان رجحان عقله كفيل بان يسعفه ولم يكن لعبد الملك ولا لمن جاء بعده من خلفاء بنى امية ، ذلك اللطف المعروف عن الخلفاء السفيانيين ،وهو اللطف الذى ربما كان لهم ، كما كان للسيد العربى القديم ،أشبه بفضيلة مكتسبة منه بأن يكون صفة فطرية ،وانما أراد عبد الملك ان يظهر بمظهر السيد الصارم.

ويعتبر بعض الخلفاء الامويين مسئولين عن فساد الادارة المالية ،فقد اطلقوا ايدى ولاتهم فى ابتزاز الاموال اولا ثم حاسبوهم وعذبوهم حتى الموت ،وحينئذ كانت كل قبيلة تهب للدفاع عن ابنائها من الولاة . وكان الخليفة المتعصب لليمنيين يقوم بمحاسبة الولاة المضريين ، والعكس بالعكس.[1] وهناك امثلة كثيرة يضيق البحث عنها . فقد تكلف الحجاج الثقفى فى بناء مدينة واسط بالعراق ثلاثة واربعين مليون درهم واحتسب معظم النفقات ضمن نفقات الحروب حتى لا يستكثرها الخليفة عبد الملك ابن مروان.[2] وكان عبد الملك يبعث الى الحجاج برسائل متوالية يلومه فيها كلها على اسرافه فى الاموال ،بدون استجابة من الحجاج[3] وكان يزيد بن المهلب يعيب

---

(١) الخربوطلى : تاريخ العراق ص ٣٨٩

(٢) ياقوت : معجم البلدان جـ ٨ ص ٣٨١

(٣) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٧٥

على الحجاج اسرافه ،حتى اذا تولى الحكم فاقه فى الاسراف مما أدى الى احتجاج عامل الخراج .(١) وتساهل سليمان بن عبد الملك مع واليه بالعراق يزيد بن المهلب مما ادى الى سوء الاحوال المالية (٢) وكان كثير من الخلفاء الامويين يحرصون على شراء رضاء العامة.

وكانت طرق جباية الضرائب مظهرا من مظاهر سوء الادارة المالية. فقد أمر الخلفاء الامويين ولاتهم بجمع اكبر قدر ممكن من الاموال ومدوهم بكل السلطات والنفوذ ، وأصبح العمال لايهتمون الا بجمع الاموال والاستكثار بالصنائع والموالى ،واصبح الخلفاء من جهة اخرى يطمعونهم بالرواتب الفادحة. (٣) ويذكر (فان فلوتن) (٤) ان الضرائب لم تكن فادحة ، ولكن الذى أغضب اهالى الامصار وزاد من حنقهم ،انما هى الطريقة التى سلكها عمال الخراج فى جباية الضرائب ،فقد كان الولاة لا يدعون فرصة للاثراء وجمع الاموال تمر بهم دون ان ينتهزوها ،ولا يترددون فى ارهاق الاهالى ،حتى اذا جاء وقت الحساب أدوا الى الحكومة جزءا من تلك الاموال ليبقى لهم الكثير.

صور أبو يوسف (٥) سلوك العمال فى جمع الخراج ،فقال : " يقيمون اهل الخراج فى الشمس ،ويضربونهم الضرب الشديد ،ويعلقون عليهم الجرار ،ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة ".

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ٤ ص ٩
(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص٥٠
(٣) جرجس زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى جـ٢ ص ٢٦
(٤) فان فلوتن : السيادة العربية ص٢٦
(٥) ابو يوسف : الخراج ص ٦٢

وعمل الحجاج الثقفى على جمع الاموال بكل الطرق ليرضى الخليفة عبد الملك بن مروان ورغم قسوة الحجاج فى جمع المال فان جملة خراج العراق كان اقل من جملته فى خلافة عمر بن عبد العزيز رغم ما نعرفه من عدله ورحمته (١).

أدخلت على الخليفة عبد الملك الاموال التى ارسلها واليه بالعراق الحجاج الثقفى، فقال عبد الملك : هذا والله التوفير وهذه الامانة. فقال احد الجالسين : ان هذا جبى الاموال وزرع لك البغضاء فى قلوب الرجال فيوشك ان تنبت البغضاء، فلا اموال ولا رجال (٢).

ومن الطريف ان عدى بن أرطأة عامل عمر بن عبد العزيز بالعراق حاول ان يتبع سياسة الحجاج فى القسوة والارهاب، ولكن عمر نهاه عن ذلك (٣) وعادت المظالم بعد نهاية عهد عمر، واعترف بنو امية بأن هذا الظلم كان سببا فى زوال دولتهم، فقالوا : " ظلمنا رعيتنا، فيئسوا من انصافنا، وتمنوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا عنا وخربت ضياعنا، فخلت بيوت أموالنا " (٤).

اتبع الحجاج نظام السخرة فى فلاحة الارض، فكان يجمع العمال من كل مكان بالقوة، ويأمر بربطهم بالسلاسل حتى لا يهربوا (٥). واختلت نظم ملكية الاراضى بالعراق، نتيجة حريق أصاب الديوان خلال ثورة ابن الاشعث ضد الحجاج، فضاعت أصول الملكيات (٦).

(١) بلغ خراج العراق فى عهد عمر ثمانين مليونا، بينما بلغ فى عهد الحجاج اربعين مليونا (ابن كثير : البداية والنهاية جـ٩ ص١٣٦).
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٤ ص٢٣
(٣) ابن الجوزى ص٥٠
(٤) المسعودى : مروج الذهب جـ٣ ص١٥٩
(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٨٣
(٦) ابو يوسف : الخراج ص٣٢

لم يمض على الدولة الاموية خمسون سنة حتى أصبحت أخضب اراضى الدولة فى أيدى بنى امية أو خلفائهم أو مواليهم ، واستغلوها بواسطة الاهالى فى ظروف صحية غير ملائمة . (١) وأدى ايجاد الخلفاء لهذه الاقطاعيات الكبيرة التى منحوها للمقربين اليهم الى استخدام أساليب الزراعة البدائية ، مما أدى الى عدم التوازن فى الانتاج وتوزيع السكان . (٢)

اتبعت الحكومة الاموية سياسة حرية التجارة ، فلم تقيد نقل السلع بين مختلف ولايات الدولة الاسلامية ، ولم تحتكر اية بضاعة أو تمنع مبادلتها ، ولا ريب ان هذه السياسة أتاحت لبعض الافراد فرصة احتكار بعض السلع . (٣)

خالف بنو أمية قواعد الفئ ، فاستأثروا بالفئ وحرموا بنى هاشم وزعموا أنهم ذو القربى من الخليفة الاموى . (٤) وكان الحجاج اول من أبقى الجزية على من أسلم ، فقد لاحظ ان عددا كبيرا من أهل الذمة قد اعتنق الاسلام وأسرعوا الى سكنى المدن . ولذا امر بعدم اعفائهم من الجزية واعادتهم الى قراهم بالقوة . (٥) وأهمل الامويون القواعد الاسلامية التى تقضى بصرف صدقة كل ناحية فى أهلها ، اذ لا يجوز نقل صدقات بلد الى غيره . (٦) وامتدت ايدى الخلفاء الامويين وولاتهم الى أموال الصدقات .

---

(١) جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ص ٤٨
(٢) ديموبين : النظم الاسلامية ص ٢٤٤
(٣) صالح احمد العلى : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة ص ١٥١
(٤) المقريزى : النزاع والتخاصم ص ٤٢
(٥) الطبرى جـ ٨ ص ٣٥
(٦) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١١٩

فكانوا يمنحون الصلات وجوائز الشعراء منها زاعمين ان الشعراء من فقراء المسلمين . وكان عمر بن عبد العزيز هو الخليفة الوحيد الذى اهتم بصرف الصدقات فى وجوهها .(١)

ولم يتبع الامويون سياسة ثابته فى العطاء الممنوح لرعاياهم ، فكان يزيد وينقص تبعا لاهواء الخلفاء وولاتهم ، وتبعا للظروف السياسية ، ولعبت العصبية الشعبية ، نحو العرب اليمنيين . أو الحجازيين ، دورها فى زيادة العطاء او نقصانه . وكان انقاص العطاء وسيلة لعقاب الاقطار الثائرة مثل العراق .(٢)

يعيب المستشرق (ديموبين)(٣) على الدولة الاموية عدم تخصيصها جانبا من أموال بيت المال للصرف على المشاريع الانتاجية والاعمال العامة كما كان الحال فى الامبراطورية الرومانية ، ويذكر ان الامل فى الثواب فى العالم الاخر كان هو الدافع الوحيد للولاة الامويين للقيام بالاصلاحات .

ادت سياسة المظالم التى اتبعها الحجاج الثقفى الى حالة سخط عام ، وشعر بها عمر بن عبد العزيز ، وادرك استياء رعايا الدولة الاموية ، وأيقن بضرورة الاصلاح . فقد خالف الحجاج القواعد الخاصة بالخراج والجزية . واتبع سياسة الارهاب والقسوة ، وأغضب الموالى . ومن الطريف ان الحجاج تعجب يوما من كراهية أهل العراق له ، فقال

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص١٧١
(٢) الطبرى جـ٨ ص ٢٧٨
(٣) ديموبين : النظم الاسلامية ص١٥٥

احدهم له : " اما انهم لو أحبوك لاطاعوك ،على أنهم ما شنئوك لنسبك ولا لبلدك ولالذات نفسك ،فدع مايبعدهم منك الى مايقربهم اليك. . . فقال الحجاج : انى والله ما أرى ان أرد بنى اللكيمة الى طاعتى الا بالسيف. (١) وقد واجه الحجاج ثورة عبدالله بن جارود (٢) ، وثورة عبدالرحمن بن الاشعث (٣) ،وانتهز الزنج الفرصة ليعبثوا فسادا على شاطىء الفرات فى البصرة. (٤) كما تعددت ثورات الخوارج .

قال صالح بن مسرح زعيم الخوارج الصفرية ،وكان رجلا صالحا ناسكا (٥) ، لاهالى العراق يدعوهم الى الثورة ضد مظالم الحجاج : " ما أدرى ماتنتظرون ؟ حتى متى أنتم مقيمون ؟ هذا الجور قد فشا ، وهذا العدل قد عفا ،ولاتزداد هذه الولاة على الناس الا غلوا وعتوا وتباعدا عن الحق ، وجرأة على الرب ، فاستعدوا ، وابعثوا الى اخوانكم الذين يريدون من انكار الباطل والدعاء الى الحق مثل الذى تريدون فيأتوكم فتلتقى وننظر فيما نحن صانعون ،وفى اى وقت ان خرجنا نحن خارجون ". (٦) ودعا صالح بن مسرح انصاره الى ان يتقوا الله ،والا يسفكوا الدماء بغير حلها ،وألا يأخذوا الاموال بغير حقها . (٧) فلا عجب ان يدى عمر بن عبد العزيز غبطته حين علم بموت

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين جـ٢ ص ٦٨
(٢) انظر تفاصيل هذه الثورة فى كتاب الطبرى جـ٧ ص ٢١٤ ومابعدها ،وكتاب الكامل لابن الاثير جـ ٤ ص ١٥٥ ومابعدها .
(٣) انظر التفاصيل فى تاريخ الطبرى جـ٨ ص ١٥ ومابعدها ،والكامل لابن الاثير جـ٤ ص ١٦٠ ومابعدها .
(٤) ابن الاثير : الكامل جـ ٤ ص ١٦
(٥) المصدر السابق
(٦) الطبرى جـ٧ ص ٢١٨
(٧) المصدر السابق جـ٧ ص ٢٢

طاغيـة العـراق الحجـاج ،وطاغيـة مصـر قرة بن شـريك .(١)

حاول الحجاج ان يتشبه بزياد بن ابيه ،وكان زياد يتشبه بعمر بن الخطاب ، ولكن الحجاج أخفق فى ذلك تماما ، لقد وصل زياد الى أعظم المناصب قبل ان يعرف معاوية ،ولكن الحجاج قد خلقه عبد الملك . وأدرك عبد الملك انه لم يستطع ان يخلق زيادا آخرا ،فقال لعباد بن زياد : أين كانت سيرة زياد من سيرة الحجاج ؟ فأجاب عباد : يا أمير المؤمنين ان زيادا قدم العراق وهى جمرة تشتعل ،فسل أحقادهم، وداوى أدواءهم ،وضبط أهل العراق بأهل العراق ،وقدمها الحجاج فكسر الخراج ، وأفسد قلوب الناس ولم يضبطهم بأهل الشام ،فضلا عن أهل العراق ،ولو رام منهم ما رامه زياد لم يفجأك الا على قعود توجف به ".(٢)

وتحدث المستشرق (فلهوزن) (٣) عن نظرة عمر بن عبد العزيز الى كل من زياد والحجاج فقال : ان المؤرخ ليشعر بميل الى المقارنة بينهما ،فأما زياد فانه كان قد وصل الى مكانة رفيعة قبل ان يجعله معاوية خليفا له وقبل ان يضمه الى جانبه ،وأما الحجاج فهو منصنع يدى عبد الملك. وكان عمر بن عبد العزيز يعجب بزياد ، لانه قبض على زمام أهل العراق من غير ان يكلف أهل الشام قط مؤونة مساعدته فى ذلك ،أما الحجاج فلم يمكن يستطيع ان يحافظ على سلطانه الا من طريق الاستعانة بالسيادة الاجنبية ،اى مستندا الى جند الشـام.

---

(١) ارجع الى اخبار قره بن شريك فى كتاب فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٥٢ ــ ١٥٣ وكتاب حسن المحاضرة للسيوطى جـ١ ص ٥٠ ويذكر ابو المحاسن (النجوم الزاهرة جـ١ ص ٢١٧) ان قرة كان " خبيثا ظالما غشوما فاسقا متهتكا ".

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٥ ص ٨

وهكذا أصبح عمر بن عبد العزيز يدرك ان المحافظة على شكل الارتباط فى المجتمع الاسلامى ،ونقاء صورته الخارجية هو جزء أصيل من مهمة الخلافة الراشدة ،وأنه يجب على الموظفين والعمال وسائر الاداريين ان يعملوا على بقاء صورة المجتمع المسلم نظيفة نقية ،لانه المجتمع الذى يتحرك بشريعة الله وهديه ، وهذا كله لايتم الا بتنفيذ قاعدة (الامر بالمعروف والنهى عن المنكر) (١).

---

(١) عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب الاسلامى ١٦٥

الباب الثاني

الاصلاحات الاجتماعية

١ـ أسس الاصلاح الاجتماعي .

٢ـ القدوات الاجتماعية .

٣ـ العدالة الاجتماعية .

٤ـ السلام الاجتماعي .

٥ـ الضمان الاجتماعي والرعاية الاجتماعية .

٦ـ أهل الذمة في المجتمع الاسلامي .

١ـ أسس الاصلاح الاجتماعي

تولى عمر بن عبد العزيز مهام الخلافة نحو سنتين ونصف سنة ، أى ثلاثين شهرا . ورغم قصر المدة نسبيا ، الا انها شهدت كثيرا من الاصلاحات الاجتماعية الهامة ، نشهد تفاصيلها فى هذا الباب الثانى .

وقبل ان نخوض فى دراسة تفاصيل وأركان هذه الاصلاحات الاجتماعية ، ندرس الاسس التى قامت عليها هذه الاصلاحات ، فنتساءل :

— هل هى أسس دينية ؟

— أم هى أسس حضارية ؟

— وهل تعتمد هذه الاصلاحات الاجتماعية على العقل والمنطق وتنبع من ظروف المجتمع وحاجاته ؟

— وهل أراد عمر بن عبد العزيز باصلاحاته الاجتماعية ارضاء مشاعر الجماهير ، أم اراد ارضاء الخالق العظيم ؟

— وهل تنبع الاصلاحات الاجتماعية من أحكام وتعاليم وروح الاسلام ، أم هى تخضع لسنة الحياة والتطور الاجتماعى وتحل مشاكل اجتماعية قائمة ؟

ونستطيع ان نجيب على هذه التساؤلات كلها فنقول :

قامت اصلاحات عمر الاجتماعية على أسس دينية ، نابعة من الاسلام . فهى تساير روح الاسلام السمحاء ، وتطبق أحكامه وتعاليمه الغراء . والاسلام هو خاتم الاديان

والعقيدة التى ارتضاها الله عز وجل للبشرية جمعاء حتى يوم القيامة. والاسلام هو دين كل زمان ومكان ، وهو صالح لكل الاجناس والشعوب ،ويتلاءم مع كل درجات الحضارة ، ويعالج جميع المشكلات الاجتماعية ،ويلبى حاجات المجتمع ، ويحقق التطور الاجتماعى والتقدم الحضارى. وكان لابتعاد كثير من الخلفاء الامويين السابقين لعمر عن روح الاسلام وتعاليمه ،أثره فى ظهور مشكلات اجتماعية ، وفى وجود صراع داخل المجتمع ، فأصبح من الضرورة بمكان مواجهة هذه المشكلات ،وتحقيق السلام الاجتماعى ،والاسلام فيه الدواء الناجع الشافى ، لكل داء اجتماعى واقتصادى .

كان قيام الدولة الاموية سنة ٤٠ هـ وايذانا بعهد جديد ،يختلف عن مرحلة الخلفاء الراشدين الاربعة السابقة. فقد اتجهت هذه الدولة اتجاها دنيويا اكثر منه دينيا . ولذا اراد عمر بن عبد العزيز ان يعود الى الخط الدينى ،فلا غرو أن سماه المؤرخون (خامس الراشدين).

كان الدولة الاسلامية ضد اضطربت أحوالها نتيجة الفتنة فى عهد عثمان بن عفان ،والحرب الاهلية فى عهد على بن أبى طالب وما تبعها من ثورة الخوارج ،ثم صراع الحسن بن على ومعاوية بن ابى سفيان . وبات المسلمون يترقبون فترة هدوء واستقرار ،ورأوا انه مادام الحسن قد تنازل عن الخلافة لمعاوية ،فقد اصبحت خلافته امرا محتوما ،فعليهم السمع والطاعة له ،واحترام اجماع الامة. (١) عملا بالاية الكريمة

(١) الماوردى : الاحكام السلطانية ص٣

(يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) ، والحديث الشريف : " سيليكم بعدى ولاة ،فيليكم البر ببره ،ويليكم الفاجر بفجوره ، فاسمعوا لهم وأطيعوا فى كل ما وافق الحق ، فان احسنوا فلكم ولهم ، وان أساءو فلكم وعليهم ". ورأى كثير من المسلمين ،ان الدولة الاموية اذا كانت قد اتخذت الطابع الملكى فقد تنبأ الرسول عليه الصلاة والسلام بذلك فقال : " والخلافة ثلاثون عاما ثم يكون بعد ذلك الملك ".(١) ورأى فريق من المسلمين ان معاوية لو كان بالفرض ملكا ، فلا مانع من طاعته ،فهناك " مراتب فى الولاية : خلافة ثم ملك ،فتكون ولاية الخليفة للاربعة ،وتكون ولاية الملك لابتداء معاوية ،وقد قال الله فى داود (وآتاه الله الملك والحكمة) (٢) ،فجعل النبوة ملكا ".(٣) ورأى فريق آخر من المسلمين ان حزب بنى امية هو حزب الدين والنظام .(٤)

كان معاوية جديرا بالخلافة ،فقد كان " مربى دول ،وسائس أمم ،وراعى ممالك ".(٥) وكان له من الخبرة والتجربة ما يؤهله للخلافة ،فقد كان كاتب وحى الرسول ، ووالى عمر وعثمان على الشام لمدة عشرين سنة ،فتحنك فى الادارة ،وأصبح اماما فى صناعته .(٦) ولذا أمل المسلمون فى بداية عهد من الاستقرار والهدوء، والسلام.

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٨ ص٢٠ ،السيوطى : تاريخ الخلفاء ص٦
(٢) سورة البقرة آية ٢٥١
(٣) ابن العربى : العواصم من القواصم ص٢١
(٤) فان فلوتن : السيادة العربية ص٧
(٥) الفخرى ص٧٨
(٦) كرد على : الادارة الاسلامية ص٦٥

والحقيقة التاريخية هى ان الدولة الاسلامية كانت دولة عربية أوضح منها دولة اسلامية . ونحن لاننفى اهتمام الخلفاء الامويين بانتشار الاسلام وحمايته من أعدائه ، فضلا عن اهتمامهم بالفتوحات الاسلامية الواسعة النطاق ، والتى ترتب عليها انتشار الاسلام فى أقاليم شاسعة . ولكن رغم ذلك كله ـ كانت السياسة العربية فى الدولة الاموية أكثر وضوحا ورسوخا من السياسة الاسلامية. (١)

وادى نقل معاوية العاصمة الى دمشق الى بداية عهد جديد متميز . فيرى المستشرق (توماس ارنولد) (٢) انه مادامت الحكومة المركزية فى المدينة فالنفوذ الاسلامى هو المسيطر ، اذ كان بامكان اصحاب النبى المخلصين ان يحاولوا تنظيم المجتمع الجديد حسب تعاليم الرسول ، ولكن عندما جعل معاوية دمشق عاصمة الدولة ، اعتبر العرب انفسهم طبقة حاكمة سامية .

صبغ الامويون دولتهم بصبغة زمنية دنيوية ، واقتبسوا بعض النظم الرومانية والفارسية ، وصور المؤرخ اليعقوبى (٣) الاتجاهات الاموية الجديدة فقال : " وكان معاوية أول من اقام الحرس والشرط والبوابين فى الاسلام ، وأرخى الستور واستكتب النصارى ، ومشى بين يديه بالحراب ، واخذ الزكاة من الاعطية ، وجلس على السرير والناس تحته ، وجعل ديوان الخاتم ، وبنى وشيد البناء ، وسخر الناس فى البناء ... وكان

(١) الخربوطلى : أضواء جديدة على تاريخ العالم الاسلامى ص ١١٦
(٢) الخلافة : ص ١٠١ـ١١
(٣) تاريخ اليعقوبى جـ٢ ص ٢٠٧

معاوية يقول : أنا أول الملوك " . ويرى المستشرق (نيكلسون)[١] أن الامويين كانوا ملوكا بالفعل خلفاء بالاسم.

وزاد الطابع الملكي بعد تحويل الخلافة الى نظام ملكي وراثي ، حين بايع معاوية لابنه يزيد بولاية العهد ، وعبر الكثير من المسلمين عن سخطهم عن التحول عن نظام الشورى والانتخاب فقال عبد الرحمن بن أبي بكر : " وتريدون ان تجعلوها هرقلية ، كلما مات هرقل قام هرقل "؟[٢].

تزعم حركة المعارضة لهذا الاتجاه الدنيوي ، في عهدي معاوية ويزيد ، جماعة ابناء الصحابة في الحجاز .[٣] والذين لم يرضوا عن الولاة الامويين لبلاد الحجاز والذين وصفهم المستشرق (فان فلوتن)[٤] بانهم كانوا من الممهدين في النعمة والترف ، والذين تعودوا الاستمتاع بما في الحياة من عبث ولهو دون ان يذوقوا عناء العمل ومشقته ، كما ان هؤلاء الولاة اتبعوا في الحجاز سياسة التضييق الاقتصادي ، مما اضطر كثيرا من الحجازيين الى بيع ممتلكاتهم فاشتراها الولاة بأبخس الاثمان.[٥]

(١)

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ٢١٦

(٣) مثل عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن العباس ، وعبد الله بن الزبير ، والحسين بن علي ، وعبد الرحمن بن ابي بكر ، وغيرهم.

(٤) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١٥١

(٥) الطبري ج ٤ ص ٣٠

وزادت حالة السخط حين تولى يزيد بن معاوية الخلافة ، الذى وصفه عبد الله ابن الزبير فقال : " يزيد الخمور ، ويزيد الفجور ، ويزيد النهود ، ويزيد القرود ، ويزيد الكلاب ، ويزيد النشوات ، ويزيد الفلوات ".(١) ووصف وفد المدينة احوال يزيد بعد عودته من دمشق ، فقال : " انا قدمنا من عند رجل ليس له دين ، ويشرب الخمر ، ويعزف بالطنابير ويضرب عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسامر الخراب والفتيان "(٢)

وكانت مذابح وفظائع واقعة الحرة قرب المدينة ، صورة لانتهاك تعاليم الاسلام ، فقد انتهك الجيش الاموى قداسة مدينة الرسول ، وقتلوا من قريش والانصار سبعمائة ، وأهلكوا جميع البدريين ، وقتلوا من سائر الناس عشرة آلاف (٣) كما قذف الجيش الاموى الكعبة بأحجار المنجنيق فتصدعت .(٤) وفجع المسلمون باستشهاد حفيد النبى صلى الله عليه وسلم الحسين بن على ، والمصادر التاريخية حافلة بأخبار مأساة كربلاء.(٥)

ومضت الاحداث ، وتنازل معاوية الثانى ، ونجح مروان بن الحكم فى انتزاع الخلافة من الفرع السفيانى . ويصف المؤرخ المقريزى (٦) مروان فيقول انه كان " لافقه له ولا يعرف

---

(١) الطبرى جـ٤ ص ٣٠
(٢) ابن الاثير : الكامل جـ٤ ص ٤٥
(٣) اليعقوبى جـ٢ ص ٢٢٣
(٤) ابن الاثير : الكامل جـ٤ ص ٥٢
(٥) الطبرى جـ٦ ص ٢٦٠ ، الفخرى ص ٨٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ٨ ص ١٦٠ يروى البيهقى (المحاسن والمساوىء جـ١ ص ٤٦) ان قيصر الروم غضب لفاجعة كربلاء وكتب الى يزيد " قتلتم نبيا او ابن نبى ".
(٦) النزاع والتخاصم ص ٢٥

بالزهد ولا برواية الاثار ،ولا بصحبة ولا ببعد همة " ويقول المسعودى(١) : " وكان مروان أول من أخذها بالسيف كرها على ماقيل ،بغير رضا عن عصبة من الناس ،بل كل خوفه الا عددا يسيرا حملوه على وثوبه عليها ".

ولم يحترم الخلفاء الامويون فى نطاق اسرتهم وفيما يرتبط بالخلافة ما أمر به الاسلام من وفاء بالعهد ،فكان كل خليفة يعمل على نقض عهده لسلفه. فقد حرم مروان خالد بن يزيد من حقه فى الخلافة وبايع لابنيه عبد الملك وعبد العزيز ، ثم رأينا عبد الملك يقتل بيده ابن عمه عمرو بن سعيد لانه تطاول للخلافة ،وقد عارضه اخوه عبد العزيز فيما أراده من جعل الخلافة فى أبنائه ،فلم ينقذه من بطش الملك الا الموت.(٢)

وأساء الحجاج بن يوسف الثقفى الى تاريخ الخليفة عبد الملك بن مروان ، فقد حاصر الحجاج عبد الله بن الزبير فى مكة فى موسم الحج ،وقذف الكعبة بأحجار المنجنيق.(٣) كما أعلن الحجاج فى العراق سياسة الارهاب والعنف والقسوة ،فأغضب رعايا عبد الملك . حتى اذا لجأ العراقيون الى والى الحجاز عمر بن عبد العزيز ،أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك باعادتهم الى قبضة الحجاج.(٤)

---

(١) مروج الذهب جـ٣ ص ٣٢

(٢) فلهوزن : الدولة العربية ص٢١٤

(٣) المسعودى : مروج الذهب جـ٣ ص ٥٦ ،ابن الاثير : الكامل جـ٤ ص١٤٦

(٤) اليعقوبى جـ٣ ص ٢٣٤ ،ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ٢ ص٥٩ـ٦٠

وبدت فى عهد الوليد بن عبد الملك بارقة من الامل ، فى العودة الى روح الاسلام وتعاليمه . ولكنه لم ينجح فى ذلك النجاح الكامل المأمول . فيقول المستشرق (فلهوزن) (١) :

وقد عمل الوليد على تقوية الاسلام من حيث هو دين الدولة ،وربما كان له فى قلبه محبة عميقة أيضا ،فوضع حدا لايذاء أهل الدين والورع فى المدينة على يد أميرها هشام بن اسماعيل المخزومى ،وولى مكانه ابن عمه عمر بن عبد العزيز ،وكان تعيينه موافقا لهوى الفقهاء . وكان الوليد يحتم على الناس جميعا ان يقرءوا القرآن ويعرفوه وكان يجعل ذلك شرطا فى قضاء حوائجهم وصلة أرحامهم . وان كان هو فى شبابه قد كان يلحن فى اللغة التى نزل بها القرآن لحنا فاحشا ، مما اهتم له أبوه كثيرا ،وقد نفذ الوليد مايقال ان أباه عبد الملك كان قد عزم عليه ثم تركه ،وهو أنه أخذ من النصارى فى دمشق كنيسة القديس يوحنا ، فوسع بها المسجد الملاصق لها وجدده تجديدا رائعا فى سنة ٨٤ هـ وكذلك أمر باعادة بناء مسجد المدينة على انه قد أغضب اهل الورع فى المدينة بذلك ، كما أغضبهم بانه فى سنة ٩١ هـ خطب فيه الخطبة الاولى من الخطبتين ،وهو جالس ،على عادته فى الشام . وكان مولعا بكل انواع البناء والتخطيط ، فانتقلت منه هذه الروح الى الناس ،وعنى الوليد بأهل العاهات ، فأعطى المجذومين ،وأعطى كل مقعد خادما وكل ضرير قائدا لكيلا يضطروا الى سؤال الناس . وكان اهل الشام أكثر من استفاد منه ،وكانوا يعتبرونه أفضل خلفائهم .

---

(١) فلهوزن : الدولة العربية ص ٢١٦ ـ ٢١٧

ولم يكن عمر بن عبد العزيز راضيا عن سياسة الوليد بن عبد الملك . ويروى ابن الاثير (١) قصة طريفة عن الرجلين . فقد كان الوليد لحانا ، يخطىء فى النحو ، فخطب يوما فقال : ياليتها كانت القاضية ، ووصل الكلام فضم التاء ، فقال : عمر بن عبد العزيز عليك وأراحتنا منك . وابدى عمر فرحة وسروره لموت الوليد ، بل تولى بنفسه أخذ البيعة بالخلافة لسليمان فى نفس يوم موت الوليد . (٢)

واستجاب سليمان بن عبد الملك لكثير من نصائح عمر وارشاداته ، فقد اصبح عمر من الخليفة بمثابة المستشار والناصح ، ويتحدث المستشرق (فلهوزن) (٣) عن سليمان فيقول : ورغم ان سليمانا كان شهوانيا ، الا ان ذلك لم يمنعه من ان يميل الى أهل الديانة والصلاح وهذا يتجلى فى أنه كان يظهر العطف على معارضة اهل العراق ضد الحجاج ، هذه المعارضة التى كانت دائما تظهر فى ثوب معارضة دينية باسم الله وباسم سلطان الله ضد غشم الاقوياء . على ان اوضح مايدل على ميله لاهل الدين والورع هو انه كان يستمع لرجاء بن حيوه احد علماء الدين فى القصر . وان المكانة التى جعلها خلفاء بنى امية لهذا الرجل هى مقياس لموقفهم هم أنفسهم من الاسلام . وقد بدأ تأثير رجاء فى عهد عبد الملك ، وازداد فى عهد الوليد ، وبلغ اوجه فى عهد سليمان . وقد استطاع رجاء ان يقنع سليمان بجعل الخلافة فى عمر بن عبد العزيز .

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ٥ ص٥
(٢) اليعقوبى جـ٣ ص٣٧
(٣) فلهوزن : الدولة العربية ص٢٥٦

تولى عمر الخلافة يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة ٩٩هـ (١) ، وكانت اول كلمات قالها عمر من فوق المنبر ، تدل على تدين وورع ، وتعلن أن الدين سيكون أساس كل سياسة وكل اصلاح ، وان اتجاه الدولة سيكون دينيا وليس ماديا ، فخطب : " أوصيكم بتقوى الله ، فان تقوى الله خلف من كل شيء ، وليس من تقوى الله عز وجل خلف ، فاعملوا لاخرتكم ، فانه من عمل لاخرته كفاه الله أمر دنياه ، وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم ، وأكثروا ذكر الموت ، وأحسنوا له الاستعداد قبل أن ينزل بكم ، وان من لا يذكر من آبائه - فيما بينه وبين آدم - أبا حيا لعرق في الموت ، وان هذه الامة لم تختلف في ربها عز وجل ولا في نبيها ولا في كتابها ، وانما اختلفوا في الدنيا والدرهم ، واني والله لاعطي احدا باطلا ، ولا امنع احدا حقا .... يأيها الناس ، من اطاع الله فقد وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له . أطيعوني ما أطعت الله ، فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم " (٢) .

والعبارة الاخيرة كان يرددها الخلفاء الراشدون من قبل ، حيث يعلنون ان بيعتهم مستمدة من مدى الالتزام بالقرآن والسنة .

وأبدى عمر زهدا في الخلافة حتى انه قال " ايها الناس اني قد ابتليت بهذا الامر عن غير رأي كان مني فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين . واني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لانفسكم " . فصاح الناس صيحة رجل واحد :

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٣ ص ٤٣٢

(٢) ابن الجوزي : صفوة الصفوة جـ٢ ص ٦٤

قال

قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك ،أمرنا باليمن والبركة (١)، وهكذا أراد عمر ان يتولى الخلافة باختيار من الامة الاسلامية ممثلة فى أهل الحق والعقد ،من العلماء والفقهاء ،وليس بعهد تقليدى يكتبه سلفه الخليفة .

وظل عمر يؤمن بانه يتولى شئون امة الاسلام كتعبير عن ارادتها ورغبتها ،وبأن استمراره فى الخلافة مرهون باستمراره فى سياسة العدل والانصاف والحق. فقد حاوره مندوبان عن شوذب الخارجى (٢) ،فقالا : ما نقمنا سيرتك ،انك لتتحرى العدل والاحسان ،فاخبرنا عن قيامك بهذا الامر ،أعن رضى من الناس ومشورة أم ابتززتم امرهم ؟ فأجاب عمر :ما سألتهم الولاية عليهم ،ولا غلبتهم عليها ،وقد عهد لى رجل كان قبلى فقمت ولم ينكره على احد ،ولم يكرهه أحد غيركم ،وأنتم ترون الرضا بكل عدل وانصف من كان من الناس ،فاتركونى ذلك الرجل ،فان خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لى عليكم. (٣)

وفى الساعات الاولى لتولية عمر الخلافة ،أعلن للناس جميعا ، الاسس الخلقية التى يجب ان يتبعها من أراد التعاون مع عمر ،فقال : " ان من أراد ان يصحبنا ،فليصحبنا

---

(١) ابن الجوزى : عمر بن عبد العزيز ص٥٥

(٢) نادت الخوارج بنظرية جمهورية ديمقراطية فى الخلافة ،فهم يجعلوها من حق كل مسلم تتوفر له صلاحيات الخلافة ،عربيا أو غير عربى ،حرا أو عبدا . وهم يعارضون استئثار قريش للخلافة ،ولا يعترفون بشرعية الخلافة الاموية ،ويكفرون معاوية.

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ٥ ص ٤٥

بخمس : يوصل الينا حاجة من لاتصل اليه حاجته ،ويدلنا من العدل الى ما لانهتدى اليه ،ويكون عونا لنا على الحق ،ويؤدى الامانة الينا والى الناس ،ولا يغتب عندنا أحدا . ومن لم يفعل فهو فى حرج من صحبتنا والدخول علينا "(١) وهكذا أراد عمر ان ينقى البلاط الاموى من الشوائب ،ويجعل الحاشية أعوانا صادقين لرئيس الدولة ، وقد كانت بطانة السوء فى القصر الاموى فى الماضى ، من عوامل فساد الحكم .

وقبل دفن سليمان بن عبد الملك ،أنفذ الخليفة الجديد ،عمر بن عبد العزيز ، ثلاثة رسائل هى تعبير صريح عن اتجاهات عمر فى حكومته : رسالة الى مصر ،ورسالة الى الجيش الاسلامى المرابط على ابواب القسطنطينية ،ورسالة ثالثة الى افريقية .

اما الرسالة الاولى المبعوثة الى مصر ، فتحمل أمرا بعزل أسامة بن زيد صاحب خراج مصر ، الذى اساء استخدام سلطاته وأرهق الرعايا ،وكان عمر ينتقد رضا سليمان ابن عبد الملك عن سياسته ، وقد كان سليمان فى الحقيقة هو المسئول عن مظالم أسامة اذ كتب اليه : " اصلب الدر حتى ينقطع وأحلب الدم حتى ينصرم ".(٢) وقد نفذ اسامة تعليمات سليمان بكل دقة واشتد فى طلب الخراج والجزية وأمر عماله الا يتوانوا فى جمع الضرائب فأسلم الكثيرون فى عهده كى يتخلصوا من الاعباء المالية ، ولكن حركة الهرب استمرت من جانب الذين اثقلت كاهلهم الاعباء المالية ولم يرغبوا فى اعتناق الدين الاسلامى . وقد أمر اسامة الا يأوى أحدا غريبا فى الكنائس او الفنادق أو السواحل .

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٤٠

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص ٢٣١

ولشدة الخوف منه طرد الناس من كان عدهم من الغرباء أو الهاربين. ولكى لايتمكن احد من الهرب من منطقة الى أخرى عملت سجلات للاهالى تشبه البطاقات الشخصية أو جوازات السفر الان ، وكان يقبض على كل شخص ليس معه سجل. (١)

ونتج عن هذه الشدة فى جمع المال أن بلغت الجباية فى عهد سليمان بن عبد الملك اثنى عشر مليون دينار. (٢)

أما الرسالة الثانية فكانت تحمل أمرا برجوع الجيش الاسلامى من بلاد الروم ، بسبب قسوة الشتاء وتراكم الثلوج ، وتعرض الجند المسلمين للمخاطر والمجاعات ، وأصر سليمان على استمرار محاولات فتح القسطنطينية غير مقدر الظروف القاسية التى احاطت بالجيش الاسلامى ، وكان عمر فى خلافة سليمان عالما بكل هذه الظروف ، ولذا سارع بعد توليته الخلافة مباشرة باصدار أوامره لمسلمة بن عبد الملك بالانسحاب والعودة . (٣)

ولنا ان نتساءل : هل يعنى هذا ان عمر ، بمواقفه هذه من البيزنطيين كان يعبر عن الجانب السلبى من قضايا الحرب ؟ والاجابة بالنفى ، فقد رأى عمر ان يسير على نفس النظام العسكرى الذى وضعه معاوية بن أبى سفيان ، وهو نظام (الصوائف والشواتى)

---

(١) سيده كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٣٠٤
(٢) خطط المقريزى جـ١ ص ٩٩
(٣) الطبرى جـ ٦ ص ٥٥٣

ذلك الذى يجعل المبادرة العسكرية بأيدى المسلمين دائما ازاء الروم عن طريق ارسال حملات نظامية موسمية فى كل صيفوشتاء لغزو بلاد الروم ، وعدم اتاحة اى مجال لهم فى التحول الى الهجوم (١) فنرى عمر فى الصيف التالى يرسل الوليد بن هشام المصيطى (٢) وعمرو بن قيس الكندى على رأس قوات الصائفة الى بلاد الروم.

أما الرسالة الثالثة فكانت بعزل يزيد بن أبى مسلم عن افريقية ، وقد اشتهر بالتجبر والتكبر والظلم. فأصبح عبرة لمن يعتبر (٣).

أعلن عمر بعد توليته الخلافة ، على الملأ جميعا ، سياسته الاسلامية الجديدة فقال : " ايها الناس ، انه لاكتاب بعد القرآن ولانبى بعد محمد عليه الصلاة والسلام . ألا وانى لست بقاض ولكنى منفذ ، ولست بمبتدع ولكنى متبع ، ولست بخيركم من أحدكم ، ولكنى أثقلكم حملا. ان الرجل الهارب من الامام الظالم ليس بظالم. ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق (٤) ".

---

(١) عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب الاسلامى ص٨٩

(٢) الطبرى ج ٦ ص٥٦٠

(٣) ابن عبد الحكم سيرة عمر بن عبد العزيز ص٣٢

(٤) المصدر السابق ص ٤١

وكتب عمر الى يزيد بن المهلب ،والى العراق ،وهى من أبرز ولايات الدولة ، يخبره بموت سليمان وبتوليته الخلافة ،يبين له المسئولية الكبرى أمام الله تعالى ،وخوفه من حساب الخالق العظيم ، وتعبر الرسالة عن روح الايمان العميق ، فكتب عمر :

" أما بعد ،فان سليمان بن عبد الملك كان عبدا من عبيد الله أنعم الله عليه ،ثم قبضه واستخلفنى ،ويزيد بن عبد الملك من بعدى ان كان ،وان الذى ولانى الله من ذلك ،وقدر لى ليس على بهين • ولو كانت رغبتى فى اتخاذ ازواج ، واعتقاء اموال ، كان فى الذى أعطانى من ذلك ما قد بلغ بى أفضل ما بلغ بأحد من خلقه • ولكنى أخاف — فيما ابتليت به — حسابا شديدا ،ومسألة غليظة ، الا ما عافى الله ورحم.. "(١)

وتحفل المصادر التاريخية (٢) بخطب عمر فى الناس وبرسائله الى ولاته ،وبأحاديثه الى جلسائه وزواره• وكلها تحث على خشية الله عز وجل وتنصح بالتقوى والورع ،وتذكر بالموت ،وبيوم الحساب ،وتدعو للايمان بقدر الله تعالى• خاطب عمر بها عقول الناس ووجدانهم ،وبكى وأبكاهم • وهذه العبارات لاتعبر ابدا عن سلبيات• بل هى تصوير لايجابيات الحياة ،ولايمكن ان تبدأ اصلاحات من فراغ ، او تقوم على غير أسس وطيدة• وقد فطن عمر بن عبد العزيز ان الدين هو خير أساس تقوم عليه سياسته الاصلاحية ، سياسة التطهير والتطوير•

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٥٦٧

(٢) انظر كتابى ابن عبد الحكم وابن الجوزى تجد حشدا من خطب عمر ورسائله•

ويعلن عمر بن عبد العزيز بداية سياسة (الحق) وتجد تلك الكلمة تتردد في خطب عمر ، وفي رسائله الى عماله ، مئات المرات وأراد عمر ان يعطي كل مواطن حقه قبل ان يطالب به ، فقال لاحد مواليه : " ليس أحد من الامة الا وانا اريد أن أوصل اليه حقه ، غير كاتب الى فيه ولا طالبه مني ". وطلب عمر من أمير الحج ، ان يعلن الى الحجاج سياسة (الحق) ، وهؤلاء الحجاج يمثلون المسلمين في سائر الاقطار، ووقف امير الحج يقرأ رسالة عمر وجاء فيها : " .... أنا معول كل مظلوم ،ألا وأي عامل من عمالي رغب عن الحق ،ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم ،وقد صيرت أمره اليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم . ألا وانه لا دولة بين أغنيائكم ،ولا أثرة على فقرائكم في شيء من فيئكم ... ". (١)

ويعلن عمر لولاته وعماله أنهم شركاء له في المسئولية أمام الله تعالى ،وأن عليهم جميعا المحافظة على (حقوق الله) ، فقد كتب عمر الى عاملة بالكوفة يقول " اعلم أني قد اشركتك في أمانة عظيمة ،فان ضيعت حقا من حقوق الله كنت أهون خلقه عليه ، ثم لا يغني عنك عمر من الله شيئا ". (٢)

ولا يجد عمر اى حرج وهو يشعر ولاته بالمسئولية ،ان يطلب منهم عدم تنفيذ أوامره اذا كانت على غير حق ،فكتب الى أحد عماله : " اذا جاءك كتاب مني على غير الحق فاضرب به الارض ". (٣)

---

(١) ابن الجوزي : عمر بن عبد العزيز ص٧٢ـ٧٣
(٢) طبقات ابن سعد جـ٥ ص٢٩
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٩ ص٢٠١

والحق خير تعبير عن القيم الدينية والخلقية ،كما قال عمر : " لم أر شيئا أعون للمسلم على دينه من أعطائه حقه ".(١)

وأراد عمر بن عبد العزيز ان يكون " الامام العادل " فكتب الى الحسن البصرى، وهو من اعلام عصره ،يطلب منه ان يكتب اليه بصفة الامام ،فكتب اليه الحسن رسالة طويلة ،نذكر منها : " اعلم يا أمير المؤمنين ان الله جعل الامام العادل قوام كل مائل ،وقصد كل جائر ،وصلاح كل فاسد ،وقوة كل مظلوم ،ونصفه كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف ....

"والامام العادل ، يا أمير المؤمنين ،كالراعى الشفيق على ابله ... كالاب الحانى على ولده.... كالام الشفيقة البرة الرفيقة بولدها ... وصى اليتامى ، وخازن المساكين ... كالقلب بين الجوانح ... القائم بين الله وبين عباده.... "(٢)

ان سياسة الاصلاح النابعة من الدين تبدو فى مئات من عبارات عمر. نذكر القليل منها :

- ما ازددت علما بالولاية الا ازددت لها مخافة ، ومنها وجلا ،ولها اعظاما ، حتى قدر الله لى منها وقدر على ماقدر ،فأنا أشد ماكنت لها استثقالا .

- ان للاسلام حدودا وشرائع وسننا : فمن عمل بها استكمل الايمان ،ومن لم يعمل بها لم يستكمل الايمان.

---

(١) تاريخ اليعقوبى جـ٢ ص٣٠٦

(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ١٥٠

- ماوجدت فى امارتى هذه شيئا ألذ من حق وافق هواى.

- ان الله لايطالب بما قضى وقدر ، وانما يطالب بما نهى و أمر.

- ان الله لايعذب العامة بعمل الخاصة ، فاذا المعاصى ظهرت فلم يغيروا ، أخذت العامة والخاصة.

- قرة عيون الملوك فى استفاضة الامن فى البلاد ، وظهور مودة الرعية لهم ، وحسن ثنائها عليهم.

- الزم الحق ينزلك الحق منازل اهل الحق ، يوم لايقضى بين الناس الا بالحق وهم لا يظلمون.

- ادرأوا الحدود ما استطعتم فى كل شبهة ، فان الوالى اذا أخطأ فى العفو خير من ان يتعدى فى العقوبة.

- ان استطعت ان تكون فى العدل والاصلاح والاحسان بمنزلة من كان قبلك فى الظلم والجور والعدوان فافعل ، ولاحول ولاقوة الا بالله.

- اتق الله فيما وليت أمره ، ولاتأمن مكره فى تأخير عقوبته ، فانه انما يعجل بالعقوبة من يخاف الفوت.

- انما هلك من كان قبلنا بحبسهم الحق حتى يشترى منهم ، وبسطهم الظلم حتى يفتدى منهم.

- لاتستنصروا على أهل أرض الحرب بظلم أهل ارض الصلح.

— نرى ألا يتجر امام ، ولا يحل لعامل تجارة فى سلطانه الذى هو فيه ، فان الامير متى يتجر يستأثر ويصب أمورا فيها عنت ، وان حرص على ألا يفعل . (١)

وكان عمر يخرج بنفسه أحيانا الى بعض القرى ، متخفيا ، متجولا ، متفقدا أحوال الرعية ، وفى احدى هذه الجولات ، التقى فى الطريق برجل قادم من مدينة ، فسأله عن أحوال الناس فيها فأجاب : انى تركت المدينة والظالم بها مقهور ، والمظلوم بها منصور . وابدى عمر فرحه وسروره والتفت الى أحد أصحابه وقال : والله لئن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحب الى مما طلعت عليه الشمس . (٢)

وأطلق عمر حرية الكلمة ، والتعبير ، والنقد ، والشكوى ، حتى وصف القاسم بن ابى بكر الصديق عصر عمر بقوله : " اليوم ينطق كل من كان لا ينطق " . (٣)

تحدث المستشرق (فلهوزن) (٤) عن اتجاهات عمر الدينية فقال : قويت الروح الاسلامية فى الاسرة الاموية الحاكمة ، فمنذ معاوية وعبد الملك الى الوليد وسليمان نراها فى ازدياد مستمر . وعمر بن عبد العزيز يقف على رأس هذه السلسلة من خلفاء

---

(١) الشرباصى : خامس الراشدين جـ١ ص ٨٥ — ٩٠

(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٣١

(٣) طبقات ابن سعد جـ ٥ ص ٢٥٤

(٤) فلهوزن : الدولة العربية ص ٢٥٩ — ٢٦٠

بنى امية . ولكن تدينه وورعه لم يكونا شبيهين بما كان عند سلفه ،ذلك أن روحه تشربت هذا الورع على نحو آخر تماما . وكان الورع موجها لاعماله فى امور الدولة . ولقد كان سليمان صاحب متاع ،أما عمر فزاهد ألقت الخلافة على كاهله مسئولية ثقيلة ،وكان فى كل شئ يفعله يتمثل الحساب أمام عينيه ،وكان يخشى دائما أن يقصر فى حدود الله.

---

٢ - القدوات الاجتماعية

كان الخليفة دائما هو مصدر كل السلطات ،وقد طبع عصره بطابعه ،وبخصائصه النفسية والخلقية . واذا صح الرأس صح البدن ،والعكس . وأصبح الخليفة هو القدوة الطيبة للمجتمع والاسوة الحسنة لرعاياه. وقد رأينا كيف كان الناس فى عهد الوليد يتكلمون عن البناء والعمران ،ثم أصبحوا فى عهد سليمان يتحدثون عن الجوارى والطعام حتى اذا تولى عمر بن عبد العزيز أصبحوا يتكلمون عما أدوه من صلوات ،وما قرأوه من أجزاء القرآن.

أما وقد عزم عمر بن عبد العزيز على أن يبدأ سياسة الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى ، فقد كان عليه ان يخلق القدوة الطيبة ويضرب المثل الاعلى . فبدأ بنفسه ،ثم ببيته ،ثم بقومه من بنى امية وولاته وعماله ،حتى يقنع رعاياه باتباع ما خطه لهم من اصلاحات اجتماعية واقتصادية . وأصبح على عمر ان يبدأ هرم الاصلاح من قمته.

بدأ عمر بن عبد العزيز بنفسه ، فأصبح بعد توليته الخلافة انسانا آخرا . يختلف فى تفكيره وسلوكه ونفسيته عن عمر الشاب ، أو والى المدينة . وكان هذا التغيير فجائيا ، وبعد البيعة له مباشرة . فقد رفض امتطاء تلك الدواب المطهمة التى أعدوها للخليفة الجديد ، واستنكر تلك السرادقات الفخمة المنصوبة له ، فهى تعبر عن اسراف ومظاهر كاذبة . ووجد عمر صاحب الشرطة يتأهب للسير بين يديه ، فيقول له عمر : تنح عنى ، مالى ومالك .. وانما انا رجل من المسلمين .. وقصد بغلته فركبها ، وسرح الفرسان والحراس والشرطة ، وكان عددهم أكثر من ستمائة . ودفع بقدمه الفرش الفاخرة حتى بان الحصير من تحتها ، ثم دعا بمولاه مزاحم وقال له : هذه البراذين والخيل ، وهذه السرادقات والحجر ، وهذه الفرش والرياض ، ضمها الى بيت المال .(١)

ودار عمر ببصره فرأى ابنا له قد لا تمزق قميصه من كثرة ازدحام الناس حوله ، فقال عمر لابنه : أصلح جيب قميصك ، فانك لم تكن قط احوج الى ذلك منك اليوم . ثم نظر عمر الى الحرس فرأى عمرو بن مهاجر الانصارى فقال عمر : والله انه لتعلم ياعمرو أنه مابينى وبينك قرابة الا قرابة الاسلام ، ولكنى قد سمعتك تكثر تلاوة القرآن ورأيتك تصلى فى موضع تظن ان لا يراك احد ، فرأيتك حسن الصلاة ، خذ هذا السيف ، قد وليتك حرسى .(٢) وهكذا اصبح التدين والورع الاساس الاول لتولى المناصب .

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص١٦٨

(٢) المصدر السابق ص١٥١ .

ودار عمر حول نفسه كما تدور العاصفة فاقتلع جذور الباطل وطمس معالم الغرور، ونوى ان يغنى المال المجتمع ويضيع المقار الموروث، ويبدد القطائع الموهوبة لا ليزهد زهاده تفقره وتفقر أهله ولا تغنى الناس، ولكن ليرد الحق الى نصابه، ويعيد العدالة الى مجراها، ويبنى من هيبة الحق ما هدمه السلف فى القلوب، ويوضح من معالم الاسلام ما طمسته الخطوب فى الاذهان. وانه لماض مثقل باوزار غلاظ تصعب عن كل تطهير ولكن عمر صمم على ان يطهر الارض، ولو قدر ان يطهر بدنه من سموم الطعام الذى أكله من قبل، وأن يمحو من الهواء نفحات الطيب الذى نفحت فيه منه.(١)

تقدم أهل سليمان بن عبد الملك، الى عمر بن عبد العزيز بعد توليته الخلافة مباشرة، يشيرون الى مخلفات سليمان فى دار الامارة، ويقولون: هذا لك، وهذا لنا فيسألهم عمر: وما هذا وما هذا؟ فيقولون: هذا ما لبس الخليفة - أى سليمان - من الثياب، ومس من الطيب فهو لولده، وما لم يمس ولم يلبس فهو للخليفة بعده، وهو لك ويغضب عمر ويقول لمولاه مزاحم: ما هذا لى ولا لسليمان ولا لكم، ولكن يا مزاحم ضم هذا كله الى بيت مال المسلمين.(٢)

لقد تغيرت سيرته ، ساعة تحمله المسئولية، فكأنه لا يتصل بماضيه وذكرياته، ولا بآبائه واهله بصلة، ولا يعرف غير جده عمر بن الخطاب أسوة له. رد الجوارى الى أهلهن

---

(١) سيد الاهل : الخليفة الزاهد ص٩٣

(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٣٩

وبلاد هن ، ورد المظالم ،وألغى المجالس التى اشبهت مجالس الاباطرة ، وأعادها الى بساطتها الاولى ووضعها الاسلامى ،فنهى عن القيام له ، وابتدأ بالسلام وأباح دخول المسلمين عليه بغير أذن.(١)

نزع عمر ثيابه ،وغسل يدنه عن الطيب ،وارتدى ثيابا ثمنها ثمانية دراهم،وأزال شعره ،وأمر ببيع ما عنده من متاع ومركب ولباس وعطر ،فبلغ بيعه ثلاثة وعشرين ألف دينار ،ثم دفع بثمنها الى بيت المال.(٢) واصبح المسلمون المحتشدون فى الجامع فى يوم الجمعة ينتظرون قدوم الخليفة عمر اليهم ، فيتأخر اذ كان ينتظر قميصه الوحيد ان يجف ، ولم يجد عمر نفقات أدائه الحج ، فقد كانت نفقته اليومية لاتزيد على درهمين.(٣)

وخاف عمر اول ما خاف مطامع النساء ،وكان عنده امرأة لو شاءت ان تجتمع لديها الدنيا لاجتمعت ،حفيدة خليفة وبنت خليفة وأخت خلفاء ،وهى فاطمة بنت عبد الملك ، فمال اليها يقلم أظافرها منذ أول الامر لئلا تقلق جانبه ،فأخذ جواهرها وحليها ـ فيما اخذ ـ واودعه بيت المال ،حتى اذا احتاج اليه المسلمون انفقه عليهم ،وكان عمر قد شعر ان فاطمة لم ترض كل الرضا بما فعل ،فمال اليها يخيرها بين ان تقيم عنده وبين ان تلحق بأهلها ،وأعلمها انه انما شغل عن النساء بما فى عنقه ،فرضيت ان تقيم وان تدفع بحليها الى بيت المال ثم لاترده اليها أبدا.(٤)

(١) الندوى : رجال الفكر والدعوة فى الاسلام ص٣٢
(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص١٦٧
(٣) المصدر السابق. ص٦٢ ـ ٦٣
(٤) سيد الاهل : الخليفة الزاهد ص٩٥

كان عمر فيما مضى يستخشن الحلة المشتراة بألف دينار وقد يلبسها مرة واحدة ، واليوم يرتدى عمر قميصا خشنا بسيطا بدراهم قليلة.(١) وكلما تذكر عمر (المشية العمرية) استنكرها ، وندم عليها ، وقال : والله ما رأيتها كانت الا جنونا.(٢)

والمصادر التاريخية حافلة بمئات الروايات التى تصور زهد عمر وتقشفه وعفته ، الذى بلغ حد التضييق على نفسه وعلى أهله. ولكنه أراد ان يكون القدوة الطيبة والاسوة الحسنة ، لقومه ، ولرعاياه. وأراد ان يطبق سياسة (الحرص على المال العام).

وبدأ عمر بسياسة التجرد الذاتى ، فباع كل ممتلكاته ، من مزارع وماشية وخيول وملابس وعطور ورياش ، وضم اثمانها الى بيت المال ، مكتفيا بدرهمين يوميا ، لايفيان حاجته الضرورية.(٣) لقد اشتهى عنبا ثمنه درهم ، فلم يصل اليه ، وكان يحب العسل فلم يستطع شراءه ، حتى اذا نظرت اليه زوجته نظرة عطف واشفاق قال لها : يافاطمة انى أخاف النار... يا فاطمة انى أخاف عذاب يوم عظيم.(٤)

وبعد ان نجح عمر وزوجته فاطمة فى تحقيق سياسة التجرد الذاتى ، انتقل عمر الى ابنائه. فبلغه ان أحد ابنائه اشترى فص خاتم ثمين ، فكتب اليه : بلغنى انك اشتريت فصا بألف درهم ، فبعه واشبع به ألف جائع ، واتخذ خاتما من حديد.(٥)

---

(١) حســـن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ١ ص ٣٣٠
(٢) طبقات ابن سعد جـ٥ ص٢٧٥
(٣) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص١٤٦
(٤) المصدر السابق ص٤٩ـ٥٠
(٥) ابن الجوزى : سيرة عمر بن عبد العزيز ص٢٧٥

وكتب ابن آخر الى عمر يطلب منه ان يزوجه ،وان يجعل صداقه من بيت المال ، وكان هذا الابن له زوجة ، فغضب عمر وكتب اليه : لعمر الله ،لقد اتانى كتابك تسألنى ان اجمع لك بين الضرائر من بيت مال المسلمين ،وابناء المهاجرين لا يجد أحدهم امرأة يستعف بها ،فلا أعرفن ماكتبت بمثل هذا ...(١)

وأصبح بيت عمر أبسط بيوت المسلمين ،فيروى ابن عبد الحكم (٢) ان امرأة جاءت الى بيت عمر ،فرأت زوجته فاطمة قائمة على مغزل تغزل ثوبا لها ،وتلفتت المرأة فلم تجد فى البيت شيئا له قيمة ، فعجبت وقالت : انما جئت لاعمر بيتى من هذا البيت الخرب ؟ فتقول فاطمة : انما خرب هذا البيت عمارة بيوت امثالك .

حتى اذا اطمأن عمر الى تنفيذ سياسة التجرد الذاتى فى بيته ،أراد ان يطبقها أيضا على سائر بنى امية ولكن لم يكن الامر سهلا ميسورا هذه المرة.

بعد تولية عمر الخلافة ،انقطع ثلاثة ايام، لزم خلالها داره ،وتساءل الكثير عن أسباب هذا الانقطاع ،وقد قضى عمر هذه الايام الثلاثة مع مولاه مزاحم يجمعان سجلات قطائع عمر ،وقطائع امراء بنى امية ،وعهود عطاياهم والاموال التى تجرى عليهم ،وكانت نصف ما فى بيت المال أو ثلثيه.

---

(١) ابن الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص١٢٥

(٢) المصدر السابق ص١٦٩

ثم أمر عمر مناديه بأن ينادى بصلاة جامعة ، واحتشد المسلمون فى جنبات الجامع لرؤية الخليفة الجديد والاستماع اليه ، وفوجئوا جميعا برؤية عمر فى ثوب لا يزيد ثمنه على اثنى عشر درهما . ثم بدأ عمر خطبته ، ليعلن للناس انه بدأ سياسة جديدة للاصلاح ، يبدأ بنفسه ، وبأهل بيته .

وقف عمر على المنبر ، ومزاحم دونه ، وقال عمر : أما بعد ، فان هؤلاء أعطونا عطايا ما كان ينبغى لنا ان نأخذها ، وما كان ينبغى لهم ان يعطوناها ، وانى قد رأيت ذلك ليس على فيه دون الله محاسب ، وانى قد بدأت بنفسى وأهل بيتى . اقرأ يا مزاحم .

وبدأ مزاحم يقرأ السجلات سجلا بعد سجل ، وعهدا بعد عهد ، لعمر أو للامراء الامويين ، فيأخذه عمر ويمزقه بمقص فى يده ، حتى حلت صلاة الظهر . (١)

هذا ماكان فى السجلات التى حصل عليها ، أما التى لم يحصل عليها فقد أمر عمر الا ينتفع أحد بأرض قد اغتصبها أو اغتصبت له .. ونادى عمر ان ليس لاحد مال الا بما فى كتاب الله . ولم يترك ظلامة مزرعة ، ولا طلبة لاحد عنده الا ردها اليه ، وخرج مما كان فى يده من مزارع واشياء وعبد وأمه فجعلها جميعا فى بيت مال المسلمين . (٢)

---

(١) ابن الجوزى : عمر بن عبد العزيز ص ١٠٦

(٢) سيد الاهل : الخليفة الزاهد ص ٩٧ — ٩٨ .

تنازل عمر عن كل اقطاعياته فى السهلة باليمامة ،وفى المكيدس ، وجبال الورس باليمن. وأما ما لم يكن له سجل من الارض فقد امر وكلاءه ان يردوا ثماره الى بيت المال ،وأما ماكان له شركاء فلم يمسه لحقوق شركائه فيه . ولما كان عمر قد قضى على نفسه ألا يأخذ من بيت المال شيئا قط فانه أبقى لنفقة بيته وأهله عينا بالسويداء كان استنبط ماءها فى أرض خربة براح ليس فيها لاحد غرية معول ،فعملها من صلب عطائه ،فكانت تجيئه غلتها مائتا دينار وجراب فيه تمر. فاكتفى بها ولم يجر على نفسه من بيت المال درهما . (١)

قال احدهم لعمر : لو اخذت من بيت المال ما كان يأخذ عمر بن الخطاب ، فقال عمر : ان ابن الخطاب لم يكن له مال ،وأنا مالى يغنينى ،وجعل عمر نفقته من بيت المال درهمين يوميا فحسب . (٢)

نزل عمر من فوق المنبر ،وجمع امراء بنى امية حوله ،وقال لهم : أدوا ما فى أيديكم من حقوق الناس ،ولا تلجئونى الى ماأكره فاحملكم على ماتكرهون ،وانى لاصيب شطر اموال هذه الامة أو ثلثيها فى أيديكم. وصمت الامويون ولم يتكلموا ، فقال عمر : اجيبونى . فقال هشام بن عبد الملك : والله لانخرج من اموالنا التى صارت الينا من آبائنا فنفقر أبناءنا ونفقر أبناءنا حتى تزايل رؤوسنا أجسادنا .

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص٤٥
(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ص٥٨٨ ،ابن عبد ربه : العقد الفريد ج٤ ص٤٣٤

وأدرك عمر أن الامر ليس سهلا ميسورا ،فللامويين انصار وأتباع ينبثون فى كل مكان ،يستفيدون منهم ،ويعيشون على خيراتهم ،وخشى عمر أن يثير الامراء الامويون الفتنة بين الناس ،فقال لاحد رجاله : أما والله لولا ان يستعينوا على بمن أطلب هذا الحق له لاضرعت خدودهم عاجلا ،ولكنى أخاف الفتنة ،ولئن أبقانى الله لاردن لكل ذى حق حقه ان شاء الله.(١)

وندب الامراء الامويون أميرة اموية ،كان لها شخصيتها المرموقة فى البيت الاموى ، وهى فاطمة بنت مروان بن الحكم ، لتنوب عن بنى امية فى الحديث الى ابن اخيها عمر، وأدرك عمر بذكائه سبب قدومها اليه ،فسبقها فى الحديث وقال : ياعمة ،ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض فترك الناس على ورد مورود ،فتولى ذلك الورد رجل فلم يستنقص منه شيئا ، ثم تولاه الرجل بعد الرجل ،حتى ولى معاوية فشق الانهار ،ثم لم يزل الناس يكرون منه حتى تركوه يابسا ليس فيه قطرة ،وايم الله لئن أبقانى الله لاعيدنه الى مجراه الاول.

ثم قالت العمة : ان قرابتك يشكونك ويزعمون انك أخذت منهم ما لم يأخذه غيرك. فقال عمر : ما صنعتهم حقا كان لهم. فقالت : انى رأيتهم يتكلمون ،وانى

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٤ ص٤٣٧.

أخاف ان يهيجوا عليك يوما عصيبا . وغضب عمر وقال : كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقانى الله شره.

وعادت فاطمة بنت مروان الى الامراء الامويين تقول لهم : تزوجون ابنكم عبد العزيز من آل عمر بن الخطاب فاذا نزعوا الى الشبه جزعتهم ؟ اصبروا ،وذوقوا مغبة أمركم. (١)

وقدم أحد اولاد سليمان بن عبد الملك على عمر يطالب بأرض قد صادرها عمر، وقدم له سجلا ،وظن ان عمر سيقدر عهد سليمان له بالخلافة فيرد له أرضه. وقال ابن سليمان : يا أمير المؤمنين ،لم لاترد على أرضى ؟ فقال عمر : معاذ الله ألا ارد أرضا رسخت لك فى الاسلام. فأخرج ابن سليمان السجل ودفعه الى عمر ،فنظر عمر الى السجل وسأله : لمن كانت هذه الارض؟ فأجاب : للفاسق ابن الحجاج ، فقال عمر : فهو أولى بها . فقال : يا امير المؤمنين ، فانها لى من بيت مال المسلمين قال عمر : فالمسلمون اولى بها . فقال ابن سليمان : فرد على السجل. فقال عمر: لو لم تأتنى به لم أسألكه ،فأما اذا جئتنى به فلا ندعك تطالب بباطل.

وعطف مزاحم ،مولى عمر ،على ابن سليمان ،وقد رآه يبكى بحرارة ،فقال لعمر: يا أمير المؤمنين ،ابن سليمان تصنع معه هذا ؟ فقال عمر : ويحك يامزاحم ،انها نفس أحاول عنها ،وانى لاجد له من المشقة ما أجد لولدى. (٢)

(١) ابن الجوزى : عمر بن عبد العزيز ص٦١١ ،الاصفهانى : الاغانى ج٨ ص١٤٦
(٢) ابن الجوزى : سيرة عمر بن عبد العزيز ص١١٨

وكان سليمان بن عبد الملك قبيل وفاته قد أمر لعنبسة بن سعيد بن العاص ، وهو من أشراف بنى امية ،عشرين ألف دينار يصرفها من بيت المال ،ومات سليمان قبل ان يوقع ديوان الخاتم على أمر الصرف ،وطالب الديوان بتوقيع الخليفة الجديد . وطلب عنبسة من عمر وكان بينهما صداقة ومودة ، ان يوقع أمر الصرف ،وأبدى عمر ذعرا شديدا وصاح : عشرون الف دينار ؟ عشرون ألف دينار تغُنى أربعة آلاف بيت من بيوت المسلمين وأدفعها الى رجل واحد ؟ والله ما لى الى ذلك سبيل .(١)

وأناب الامراء الامويون ــ مرة اخرى ــ عنهم هشام بن عبد الملك ،فقدم على عمر ، فقال : يا أمير المؤمنين ،انى رسول قومك اليك ،وان فى انفسهم ما أكلمك به ،وانهم ليقولون : استأنف العمل برأيك فيما تحت يدك ، وخل بين من سبقك وما ولوا بما عليهم ولهم. فقال عمر : أرأيت يا هشام ان جئت بسجلين أحدهما من معاوية والاخر من عبد الملك بأمر واحد ، فبأى السجلين آخذ ؟ فأجاب هشام : تأخذ بالاقدم . فقال عمر : فانى وجدت كتاب الله الاقدم ، فأنا حاصل عليه من أتانى ممن تحت يدى وفيما سبقنى .(٢)

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص٥٦

(٢) ابن الجوزى : عمر بن عبد العزيز ص١١٨

وكان للوليد بن عبد الملك ابن يدعى (روح) نشأ فى البادية ، فأصبح جلفا فظ الطباع ، وقد أقطعه الوليد حوانيتا فى حمص ، وقدم أهالى حمص الى عمر يشكون اليه روحا ، فرد اليهم حوانيتهم . (١)

واذا كان عمر بن عبد العزيز قد أصبح القدوة الطيبة لابناء المجتمع الاسلامى ، فقد كان الى جواره قدوة طيبة أخرى ، تمثل الشباب المسلم الصالح ، وهو ابنه عبد الملك الذى لم يجد حرجا فى وعظ ابيه وحثه على اقرار الحق والعدل ، رغم ان عمر ـ فى الحقيقة ـ لم يكن فى حاجة الى من ينصحه ويذكره . وكان الفارق بينهما هو رزانة الشيوخ وحماسة الشباب .

وحين انصرف عمر من دفن سليمان ورد القطائع الى بيت المال ، وسهر فى بيع المتاع والبراذين والسرادقات وفى تسريح الجوارى ، وطلع النهار ، واستمر يمارس أعمال الخلافة نهارا حتى أدى صلاة الظهر ، ثم أراد الراحة ساعة القيلولة ، فقدم ابنه عبد الملك عليه يعاتبه ويقول : تقيل ولا ترد المظالم ؟ فقال عمر : انى قد سهرت البارحة فى أمر عمك سليمان ، فاذا قلت قمت فرددت المظالم . فقال عبد الملك : يا أمير المؤمنين ، من لك ان تعيش حتى تقوم فتردها ؟ . وقبل عمر ابنه وقال : الحمد لله الذى أخرج من صلبى من يعيننى على دينى . ثم أمر مناديه بأن ينادى فى الناس : ألا من كانت له مظلمة فيرفعها . (٢)

---

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص ٢٦٠
(٢) ابن الجوزى : صفوة الصفوة جـ٢ ص٦٥

وعاتب عبد الملك أباه عمر على موقفه الهادئ العاقل من بنى أمية ، فقال عمر : يا بنى ، ان قومك شدوا هذا الامر عقدة عقدة ، وعروة عروة ، ومتى ما أريد مكابرتهم على انتزاع ما فى أيديهم لم آمن ان يفتقوا على فتقا تكثر فيه الدماء ، والله لزوال الدنيا أهون على من ان يهرق بسببى محجمة من دم . او ما ترضى الا يأتى على ابيك يوم من ايام الدنيا ألا وهو يميت فيه بدعة ويحيى فيه سنة ، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ؟ (١)

وكانت عبارات عبد الملك لابنه عمر كفيلة باشعال نيران حماسة عمر لرد مظالم بنى أمية ، حتى قال الناس : أفضل الخلفاء أبو بكر يوم الردة ، وعمر بن عبد العزيز فى رد مظالم بنى أمية. (٢)

ثم رأى عمر ان يخلق قدوات اجتماعية طيبة فى كل قطر من الاقطار الاسلامية ، فيختار أفضل الولاة والعمال ، الذين يمثلون الخليفة ، ويصحبون صورة له فى عيون الرعايا . وكان الناس يتساءلون : من الذى يحقق لهم العدالة ؟ أهو الراعى أم هى الرعية ، أم هما معا ؟ أما عبد الملك بن مروان فكان يرى أن تبدأ الرعية بالطاعة العمياء ، وطلبت الرعية فى عهده العدل فظنها عبد الملك أنها لاتستحقه ، ثم كان يقول : أنصفونا يامعشر الرعية ، تريدون منا سيرة أبى بكر وعمر ، ولا تسيرون فينا ولا فى أنفسكم بسيرة

(١) ابن الجوزى : صفوة الصفوة جـ٢ ص ٧٢
(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص٢٧٥

رعية أبى بكر وعمر ،فسأل الله ان يعين كلا على كل .

أما عمر بن عبد العزيز ،فرأى ان يبدأ الحكام ثم تفعل الرعية ،واذا كان على الحكام أن يبدءوا وعلى الرعية ان تفعل من بعدهم فلأن العدالة فى حصانة الناس جميعا . واذا كان الحاكم عليه اثم الظالم فان الرعية تحمل معه اثمه اذا لم تراقبه وتقف له بالمرصاد . واذا لم تفعل الرعية ولم تحاسب الولاة أخطأت الرأى وأصيبت بالحرمان . بل رأى عمر ان الرعية التى لاتراقب الحاكم ولاتحاسبه مستحقة للعقوبة اذا لم تنكر المعصية وترفض الظلم .(١)

طلب عمر من الولاة وسائر الموظفين ،تحمل المسئولية كاملة ،والمحافظة على المال العام ،ورعاية مصالح الرعايا ،وأعلن سياسة التقشف ،وبالغ احيانا فى هذه السياسة . فقد كتب الى والى المدينة أبى بكر بن عمرو : " أما بعد ، فقد قرأت كتابك الى سليمان تذكر انه قد كان يجرى على من كان قبلك من أمراء المدينة من القراطيس لحوائج الناس كذا وكذا ،فابتليت بجوابك فيه ،فاذا جاءك كتابى هذا فارق القلم واجمع الخط ،واجمع الحوائج الكثيرة فى الصحيفة الواحدة فانه لا حاجة للمسلمين فى فصل قول اضر بيت مالهم . والسلام عليكم ".(٢) كما كتب عمر الى نفس الوالى رسالة اخرى جاء فيها : " أما بعد . فقد قرأت كتابك الى

(١) سيد الاهل : الخليفة الزاهد ص١١٧
(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص٦٥

سليمان تذكر فيه انه كان يقطع لمن كان قبلك من أمراء المدينة من الشمع كذا وكذا ، يستضيئون به فى مخرجهم ، فابتليت بجوابك فيه ، ولعمرى لقد عهدتك يا ابن أم حزم ، وأنت تخرج من بيتك فى الليلة الشاتية المظلمة من غير مصباح . ولعمرى انت يومئذ خير منك اليوم ولقد كان فى فتائل أهلك مايغنيك ".(١)

ومنع عمر الولاة والموظفين من الاشتغال بالتجارة ، فكتب عمر : " لايحل لعامل تجارة فى سلطانه الذى هو عليه ، فان الامير متى يتجر ليستأثر ويصيب أمورا فيها عنت وان حرص على ألا يفعل "(٢) . كما منع الولاة والعمال من قبول الهدايا التى قد تعبر عن الرشوة واستغلال النفوذ .(٣)

ولم يأت عمر الخلافة غافلا قد جهل الامور ، ولكنه اتاها على قدر ومعرفة ، قد خبرها عن قرب وعرف كل احوالها وأعد لكل داء دواء ، ولم يدع الامور تجرى على سجيتها وقد رأى منذ بدأ يحكم ان يستعين بخيار العمال ويستمع لمشورة الناس فيهم . وكان لايولى الرجل حتى يختبره ظاهرا وباطنا فاذا اطمأن له بعد الاختبار استعمله فى أحدى الوظائف ، وكلهم اختارهم عمر من أولى القسوة فى العدالة والرفق بالرعية ، وهما

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٤ ـ ٦٥
(٢) المصدر السابق ص ٩٩
(٣) الطبرى جـ٦ ص ٥٦٩

أمران لا يتعارضان ، وقد ضوعن باختبار الرجال واختيارهم أن يضع الرجل فى العمل الذى يصلح له وينتفع الناس به. (١)

عزل عمر أسامة بن زيد عن خراج مصر ، ويزيد بن المهلب وصالح بن عبد الرحمن عن العراق ، والحارث بن عبد الرحمن الثقفى عن الاندلس ، ومحمد بن يزيد بن مسلم عن افريقية . ونفى أهل بيت الحجاج الى اليمن. (٢)

أصبح عمر حركة دائبة لتغيير كل الاوضاع القديمة ، وبصرا طامحا تغطى رؤياه أبعاد العالم الاسلامى ، يعزل ويولى ، ويضع المسئولين الذين يتحملون الامانة فى كل أقليم من أقاليم الدولة. وهوينظر اليهم بعينين لاتغمضان ، يشدهم أبدا الى الحق والعدل ، ويضع نصب أعينهم دوما شريعة الله ، وسعادة الامة. وحطم عمر الجدران والبروتوكولات التى وقفت دهرا حائلا بين الخلفاء والجماهير ، وفتح عمر الطريق المباشر الى قلبه ووجدانه أمام كل المظلومين.

ويبدو جليا استعراض اسماء الولاة والقضاة وسائر الموظفين الذين اختارهم عمر ، حرصه على الاعتماد على اكثر العناصر كفاءة وعلما وايمانا وقبولا لدى جماهير المسلمين، ولم يلزم نفسه أبدا بانتقاء العناصر الادارية من حزب بنى أمية الحاكم ، تحطيما

---

(١) سيد الاهل : الخليفة الزاهد ص١٣١

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ٥ ص١٠ ، ابن الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز جـ٥ ص ١٠

للبيروقراطيـة الاموية ، وانفتاحا على الصفـوة من أبناء الامـة عربا وموالى (١)٠

واذا استعرضنا أسماء ولاة وعمال عمر ،لانجد غير اسم واحد أو اسمين مـــن بنى أمية٠ ويذكر المؤرخ المسعودى (٢) أن عمر استغنى عن الولاة السابقين مـــن الامويين ،واستعمل أصلح العناصر ،واحتذى عماله حذوه٠

---

(١) عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب الاسلامى ص١٥٤ـ١٥٦
(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص١٦٧

٢ـ العدالـــة الاجتماعيـــــة

رأى عمر بن عبد العزيز ان يحقق العدالة الاجتماعية لجميع رعاياه ، على اختـــلاف أجناسهم وأقاليمهم ، ووضع قواعد هذه العدالة ، ووفر لها الاجهزة الحكومية التى تضمـن تحقيقها ، ثم حرص على المتابعة لضمان التنفيذ ، ثم لم يتوان عن توقيع أشد العقـاب على من حاد عن الحق والعدل ، فانتشر الامان والسلام ، وهدأت النفوس والقلوب ، وانتشرت الغبطـة والســرور .

ولا يكون الحاكم عادلا فاضلا الا اذا أحس فى قرارة نفسه وأعماق قلبه بأنه ، منذ ولـى الحكم ، قد صار مسئولا عن كل فرد فى دولته وجماعته ، وأنه راع وهو مسئول عن رعيتـــه ، وانه أول شخص بين جماعته ينهض بتبعاتها ، فيسهر على أمرها ، ويدأب فـى خيرها .

والحاكم العادل عمر بن عبد العزيز قد أحس بهذه التبعة أصدق الاحســـاس وأعمقه ، وشعر بانه مسئول امام الله وأمام الناس عن كل فرد فى رعيته منذ اليوم الاول الذى تولى فيه مقاليد الخلافـة .

أعلن عمر ان ولاته لن يشعروا بنجاحهم فى مهامهم الا اذا حققوا " استقامـــــة الامن فى البلاد ، وظهور مودة الرعية لهم ، وحسن ثنائهم عليهم " .(٢) ورأى عمـر ان

(١) الشرباصى : خامس الراشدين ص ٩٨
(٢) ابن الجوزى : عمر بن عبد العزيز ص ٨٥ .

العدل يجب ان ينبع من القرآن والسنة ، فكتب عمر بعد توليته الخلافة كتابا عاما الى ولاته ، جاء فيه : " ... ان تتبعوا كتاب الله وسنة نبيه ، وان تجتنبوا ما مالت اليه الاهواء والزيغ البعيد ، ومن عمل بغيرهما فلا كرامة ولا رخصة له فى الدنيا والاخرى ... ولعمرى أن تموت نفسى أول نفس أحب الى من أن احملهم على غير اتباع كتاب ربهم وسنة نبيهم ... فانه ليس بعد الحق الا الباطل ، ولا بعد البصر الا العمى ".(١)

ويرى عمر أن خشية الله هى خير سبيل لاقرار الحق والعدل ، فعلى الوالى أداء حق الله ، ثم حق الناس ، فنراه يكتب الى واليه فى خراسان : " أما بعد ، فكن عبدا ناصحا لله فى عباده ، ولا تأخذك فى الله لومة لائم ، فان الله أولى بك من الناس ، وحقه عليك أعظم ، فلا تولين شيئا من أمر المسلمين الا المعروف بالنصيحة لهم والتوفير عليهم ، وأداء الامانة فيما استرعى . واياك ان يكون ميلك الى غير الحق ، فان الله لاتخفى عليه خافية ، ولا تذهبن عن الله مذهبا ، فانه لا ملجأ من الله الا عليه ".(٢)

ويربط عمر بين العلم والعمل ، فيكتب فى رسالة اخرى الى والى خراسان : "ان العلم والعمل قريبان فكن عالما بالله عاملا له ، فان أقواما علموا ولم يعملوا فكان علمهم عليهم وبالا ".(٣)

---

(١) ابن الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص٧٨
(٢) الطبرى جـ٦ ص ٥٦١
(٣) الطبرى جـ٦ ص٥٦٧

وأراد عمر ان يصل الى المفهوم الكامل للعدل ، والى التحديد الشامل لابعاد العدالة الاجتماعية ،فسأل صاحبه ، الورع التقى والناصح الامين ،محمد بن كعب القرظى ، فقال عمر : يابن كعب ، صف لى العدل . فقال ابن كعب : سألت عن أمر حسن ،كن لصغير المسلمين أبا ،ولكبيرهم ابنا ،وللمثل منهم أخا ،وعاقب الناس بقدر ذنوبهم على قدر أجسامهم ،ولاتضربن لغضبك سوطا واحدا تتعدى فتكون عند الله من العادين . (١)

ولم تفترق عند عمر وأصحابه عدالة عن عدالة ،فالعدالة الحكمية التى هى من عمل القاضى ،والعدالة الاجتماعية التى هى من عمل الوالى ،أمران عندهم لا يفترقان وكلاهما ان تحقق يسند الاخر ويشد بنيانه ،ولذلك عنى بهما معا .

وليس واقع العدالة الا الاحسان الى من يستحق ،وعقوبة من يستحق . وتقدير العقوبة ،فلا يعاقب مذنب كمذنب ،ثم القصد فلا اسراف ولاتقصير ، والعربى والمولى سواء . وكما وصف القرظى وفعل عمر تكون العدالة ،أما صياغة العدل فى نظريات فلم تكن صنعة فقيه كالقرظى ،ولا صنعة حاكم كعمر بن عبد العزيز . (٢)

---

(١) ابن الجوزى ص ١١

(٢) سيد الاهل : الخليفة الزاهد ص ١٣٦

ورأى عمر أنه ينبغي للقاضي خمس خصال : يكون عالما بما مضت عليه السنة ، حليما ، ذا أناة ، عفيفا ، مشاورا ، فاذا اجتمع ذلك في القاضي كان قاضيا ، وان نقص منهن شيء كان وصما فيه. (١) وقد حرص عمر على اختيار افضل القضاة ، ولم يشهد عصر قبله أو بعده ، مثل هؤلاء القضاة العظام.

علق المستشرق (فلهوزن) (٢) على سياسة عمر في ارساء قواعد العدالة ، وتوفير قضاء عادل ، فقال : لم يكن عمر يكتفي باختيار رجال يظهرون انهم على شاكلته ثم يتركهم بعد ذلك يفعلون مايشاؤون ، ماداموا يحملون اليه مايلزم ان يحملوه من أموال ، بل كان يشعر انه مسئول هو نفسه عما يجرى في جميع البلاد ، ولم يكن همه الزيادة في قوة الدولة ، بل اقامة الحق والعدل فيها . وعلى يديه صار للفقهاء واهل العلم كلمة مسموعة بعد ان كانوا حتى ذلك الحين أشبه بحزب ذي كيان شرعي مستقل عن الحكومة ومناوئ لها بعض الشيء . ويظهر من هذا الوجه أيضا ان منصب القاضي قد أصبح على عهد عمر اكثر استقلالا واكبر شأنا مما كان.

ونرى مفهوم عمر حول أركان الدولة في رسالة له الى عقبة بن زرعة في خراسان يقول فيها : " ان للسلطان أركانا لا يثبت الا بها : فالوالي ركن ، والقاضي ركن ، وصاحب بيت المال ركن ، والركن الرابع أنا ". (٣)

---

(١) ابن الجوزي ص٢٣٨

(٢) فلهوزن : الدولة العربية ص٢٦٢

(٣) انا : أي الخليفة عمر بن عبد العزيز (الطبري جـ٦ ص٥٦)

ونهى عمر عن اللجوء الى الشدة من أجل اقرار الامن ، فقد كتب والى خراسان الى عمر: " انى قدمت خراسان فوجدت قوما قد أبطرتهم الفتنة ، فهم ينزون فيها نزوا ،أحب الامور اليهم أن تعود الفتنة ، ليمنعوا حق الله عليهم ،فليس يكفيهم الا السيف والسوط ،وقد كرهت الاقدام على ذلك الا باذنك ". وغضب عمر وأجاب : " يا ابن أم الجراح ،أنت أحرص على الفتنة منهم ، لا تضربن مؤمنا ولا معاهدا سوطا الا فى حق ، واحذر القصاص فانك صائر الى من يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور ،وتقرأ كتابا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ". (١)

ورأى عمر أن العقاب يكون بالبينة ،وباتباع السنة. فقد قال يحيى الغسانى والى الموصل : لما ولانى عمر بن عبد العزيز الموصل قد متها فوجدتها من أكثر البلاد سرقة ونقبا ،فكتبت اليه أعلمه حال البلد وأسأله : أ أخذ الناس بالظنة وأضربهم على التهمة ،أم آخذهم بالبينة وما جرت عليه السنة ؟ فكتب الى بان أخذ الناس بالبينة ، فان لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله . ثم يقول الوالى : ففعلت ذلك ، فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سرقة ونقبا . (٢)

وانتهج عمر منهج اللين والاقناع فى تنفيذ الاحكام، وانتقد عبد الملك بن عمر هذه السياسة ،فقال عمر : يابنى ،ان نفسى مطيتى ان لم أرفق بها لم تبلغنى ،انى لو أتعبت نفسى واعوانى لم يك ذلك الا قليلا حتى أسقط ويسقطوا . وان الله حل

---

(١) الطبرى جـ٦ ص٥٦١

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص١٥٧

ثناؤه لو أراد ان ينزل القرآن جملة واحدة لانزله ،ولكنه أنزل الاية والايتين حتى استمكن الايمان فى قلوبهم . فلو جمعت ذلك فى يوم واحد خشيت انتشاره على ،ولكنى انصف الرجل والرجلين فيبلغ ذلك من وراءه فيكون انجع له . فان يرد الله اتمام هذا الامر أتمه ،وان تكن الاخرى فحسب عبد ان يعلم الله أنه يجب ان ينصف جميع رعيته .(١)

ومنح عمر القاضى استقلالا تاما ،وحرية كاملة ،فأصبح القاضى لايخشى أصحاب السلطة التنفيذية . بل ان قاضى مصر حكم لمصرى باسترداد ارض كان قد أخذها عبد العزيز بن مروان خلال ولايته لمصر ،فأصبحت ملكا لعمر ولاخوته ،وأبدى عمر سروره لحكم القاضى ،وقال له : بارك الله عليك ايها القاضى .(٢)

ورأى عمر سرعة صدور الاحكام حرصا على مصالح المتقاضين ، وأمر الولاة برد المظالم دون أن يراجعوه . ولام عمر أحد عماله لانه يراجعه دائما فى المظالم .(٣)

وشجع عمر المظلومين ،ومن يكشفون عن ظلم واقع ،ان يقدموا عليه ،وهو يسدد لهم نفقات السفر ،فأعلن عمر : " وأيما وارد ورد فى أمر يصلح الله به خاصة أو عامة فله مابين مائة دينار الى ثلثمائة ،وعلى قدر مانرى من الحسبة وتجشم المشقة ،

(١) ابن الجوزى ص١٠٦
(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص١٢٠
(٣) كتب عمر الى عامله عبد الحميد بن عبد الرحمن : انه يخيل لى أنى لو كتبت لك ان تعطى رجلا شاه لكتبت الى : أذكر أم أنثى ؟ ولو كتبت اليك بأحدهما لكتبت الى : صغيرة أم كبيرة ؟ ولو كتبت : ضائنة أم معز ؟ فاذا كتبت اليك منفذ ولاترد على (ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص٤٣٧) .

فرحم الله امرءا لم يتعاظمه سفر يحيي الله به حقا لمن وراءه " ولكن زاد عدد القادمين الى دمشق ، يقدمون شكاياتهم ،وازدحمت بهم العاصمة ،فطلب منهم العودة الى بلادهم واعدا برد الظلم عنهم. فقد زادت الاموال الممنوحة لهؤلاء الوافدين سدادا لنفقات السفر.(١)

ولم يغفل عمر الرأى العام ،ولم يسقط حساب الامة فى حكمها على ولاته وقضاته فأشرك الناس جميعا فى الرأى ، وجعل موسم الحج مكانا لفرض أعمالهم وسؤال الناس عنهم لتثبيت من يرى تثبيته وعزل من يستحق ان يعزل ،وحتى يقف أهل الموسم على نيته فى العدالة ويخبروا من وراءهم من الناس . وقد اجتهد عمر فى ذلك وتوسع فكاشف عامة الناس بما يريد .(٢)

كثرت الشكايات ، فقد تراكمت المظالم عبر العصور الماضية ،وزادت أعباء القضاة، كما اشتدت رقابة عمر بن عبد العزيز على القضاة ،وشعر القضاة بالمسئولية العظمى ، أمام الله تعالى ،وأمام الخليفة عمر . وبدأ القضاة يستعفون من مناصبهم ،ورفض آخرون تولى القضاء . فكتب ميمون بن مهران قاضى أقليم الجزيرة ،الى عمر يطلب منه اعفاءه من القضاء ،فكتب عمر اليه : أنى لم أكلفك مايعنيك ،اجتن الطيب وافض بما استبان لك من الحق ،فاذا التبس عليك أمر فارفعه الى ،فلو ان الناس اذا ثقل عليهم أمر تركوه ماقام دين ولا دنيا .(٣)

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص١٥٢
(٢) سيد الاهل : الخليفة الزاهد ص ١٤١
(٣) ابو يوسف : الخراج ص١١٥

ومن الطريف ان عمر طلب من عامله بالبصرة عدى بن أرطأة ان يجمع بين اياس بن معاوية ، والقاسم بن ربيعة ، فى مجلس واحد ، ليختبرهما ويختار أحدهما للقضاء . وأصر كل واحد منهما أن الاخر أكثر علما وفقها ، وأقسما على ذلك ، حتى لايتوليان منصب القضاء. (١) وهكذا يزهد القضاة فى تولى القضاء فى عصور الظلم والعدل على السواء .

---

(١) ابن الجوزى ص ٨

٤ ـ السلام الاجتماعي

كان المجتمع الاسلامى قبيل تولية عمر بن عبد العزيز الخلافة محتاجا الى تحقيق السلام الاجتماعى ، فقد أدت تراكمات الماضى الاموى فى عهود أسلافه الخلفاء الى فقدان هذا السلام ، بل أدت غالبا الى صراعات اجتماعية فتتت الوحدة الاسلامية ، واستنفذت جهود المسلمين . وكان لابد من أعادة السلام الى المجتمع ، والى كل نفس وقلب وعقل ، حتى تتحقق الاخوة الاسلامية ، وحتى يتفرغ المجتمع للانتاج المثمر ، فيمارس كل مسلم حياته الخاصة والعامة فى أمن وسلام .

وأصبح من واجبات عمر بن عبد العزيز مواجهة مشكلات اجتماعية قديمة قائمة ، فقد كانت هناك مشكلة العصبية بألوانها المختلفة ، الشعبية ، والاقليمية ، والقبلية ، كما كانت هناك جماعات اسلامية كبيرة تعيش فى العراق وخراسان والحجاز تعانى من مظالم الخلفاء الامويين السابقين ، وتشعر انها غريبة فى هذا المجتمع الاموى ، مما أدى الى سلبيات اجتماعية واضحة . ثم كانت هناك مشاكل الموالى والخوارج التى هددت الوحدة الاجتماعية دهرا .

كانت العصبية من أبرز مميزات الحياة الاجتماعية فى العصر الاموى . بل أصبحت العصبية محورا للحياة السياسية والفكرية والاقتصادية . فكانت هناك العصبية القبلية . وقد جاهد الاسلام كثيرا فى القضاء على العصبية القبلية التى كانت أبرز معالم الحياة فى العصر الجاهلى . وكان التوسع العربى يمثل قوة التيار الاسلامى

وتغلبه على التيار القبلى بتنظيمه وتوجيهه فى صالح الاسلام. (١) وكان اشتراك هذه القبائل فى الفتح عاملا فى امتزاجها ، فقد كان عليها ان تتحد لمواجهة الفرس والروم. كما ان نظم الجيش العربى كانت تحتم الامتزاج والاتحاد ، فقد انقسم الجيش العربى الى فرسان ومشاة وضاربين بالسيوف وضاربين بالرماح . وكانت كل فئة تمثل جميع القبائل العربية.

ولكن بعد انتهاء الفتوحات العربية ، عادت العصبية القبلية الى الظهور مرة أخرى. لقد تناست القبائل العربية عصبيتها وعدواتها امام العدو المشترك ، الفارسى والرومانى ، ولكن ما كان هذا العدو يتلاشى حتى عاد العرب الى ماكانوا عليه من تنابذ وتعصب وأثبتت هذه القبائل ان الاسلام على فرط ما حارب العصبية القبلية ، فانه لم يقض عليها ولم يمحها من نفوس العرب ، ولكنها تضاءلت فى نفوسهم. (٢)

شعرت كثير من الجماعات الاسلامية وخاصة الخوارج ان قيام الدولة الاموية هو استمرار لاستئثار قريش بالخلافة. (٣) ولما كانت قريش أكثر القبائل العربية حضارة ، فقد تولى القرشيون المناصب القيادية ، لانه لم يكن من بين أبناء القبائل البدوية من يصلح لهذه المراكز الرئيسية. كما ان هذه القبائل أنفقت غنائمها من الفتوحات، وعادت الى ماكانت عليه من فقر وضنك ، بينما استفادت قريش من خبراتها الاقتصادية القديمة وخاصة فى التجارة ، فاستثمر القرشيون نصيبهم من الغنائم وحازوا ثروات ضخمة ، مما جعلهم موضع حسد سائر القبائل.

(١) الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ص٥٩
(٢) الخربوطلى : تاريخ العراق ص٢٤٢
(٣) مقدمة ابن خلدون ص١٥١

ولم تقم المدن الاسلامية الجديدة ،كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان ،على أسس حضارية عمرانية ،تحقق مفاهيم المدن ،ولكنها قامت على أسس قبلية. فأصبح لكل قبيلة حى خاص بها. (١) وكان العرب يمقتون المركزية ،فتجمعوا حسب تقسيمهم القبلى ،وكان هذا يدعو الى التمرد والعصيان ،فقد كانت تلك الاحياء القبلية تقوم مقام المدن الصغرى ،وكان يفصل بعضها عن البعض الاخر ابواب يحرسها رجال أشداء ،فاذا قامت فتنة داخلية أقفلت الابواب وانقطعت المواصلات بين أحياء المدينة.

وهكذا غلب طابع الحياة الجاهلية فى المدن الاسلامية الجديدة ،فلم يتم للعرب اندماج تام يجعلهم ينسون حياة العصبية القبلية القديمة ،بل استمر سكانها يشعرون انهم قبائل وان عاشوا فى المدن وخدمهم الاعاجم. (٢)

وأصبحت القبيلة هى الوحدة الاجتماعية الطبيعية ،وظل العرب يتبعون تنظيمهم القبلى ،واحتفظت هذه الجماعات المتشعبة بكل ماضيها القديم من حيث النسب والتآلف والتباغض. وكان لهذا أثره السىء فى حياة الجماعة الاسلامية. (٣) فقد كانت العلاقة بين رجال القبيلة الواحدة أوثق من العلاقة بين سكان المدينة الواحدة. (٤)

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٨٥ ، الطبرى جـ٨ ص١٤٥
(٢) شوقى ضيف : التطور والتجديد فى الشعر الاموى ص٨٠ـ٨١
(٣) ديمومبين : النظم الاسلامية ص١٥٢
(٤) بارتولد : الحضارة الاسلامية ص٣١

وكان للقبائل العربية فى المدن الاسلامية رؤساء يشبهون رؤساء القبائل فى العصر الجاهلى من حيث سيادتهم على قبائلهم ،ووقوف الشعراء بأبوابهم ، وأصبحوا عاملا على قيام حياة أدبية نشيطة. (١)

ويتهم المستشرق (ديمومبين) (٢) الخلفاء الامويين بأنهم تسببوا فى احياء الروح القبلية لانهم كانوا يتصلون بجمهور الناس عن طريق زعماء القبائل ، فكان الخليفة يؤكد ويعين تعيين رئيس القبيلة ،ويزوده بسلطة عسكرية وادارية ومالية . وجرف العرب الموالى الى تيار العصبية القبلية ، فقد دخل الموالى فى ولاء القبائل العربية حتى يضمنوا حمايتها لهم ،وتعصب كل قوم من الموالى للقبيلة ،التى حالفوها من العرب. (٣)

ويذكر الجاحظ (٤) انه كان بين القبائل العربية قبائل وضيعة (٥) واخرى شريفة (٦) وثالثة تقف موقفا وسطا بين الشرف والوضاعة (٧) . وكانت قبائل العراق تمثل الطبقة الوسطى من طبقات المجتمع العربى ، فى حين كانت قبائل الشام والحجاز تمثل الطبقة الارستقراطية ،فقريش بالشام ،وابناء الصحابة المهاجرين بالحجاز.

---

(١) احمد امين : فجر الاسلام ص٣٢٣
(٢) النظم الاسلامية ص١٥٤
(٣) البلازرى : فتوح البلدان ص٢٨٩
(٤) الجاحظ : الحيوان ج١ ص ٣٥٩
(٥) مثل : غطفان ،قيس عيلان ،مرة ،ثعلبة ،قيس ،باهله
(٦) مثل : عبس ،ذبيان ،المبتلى ،الملقى (٧) مثل : تميم،ثور،تيم ،مزينة

اعتمد معاوية فى خلافته على العرب اليمانية ،كما تزوج من قبيلة كلب اليمنية وأنجب ابنه يزيد ،ولذا أرتفع شأن كلب فى خلافة يزيد ،مما أثار الغيرة فى قلوب قيس وهى من مضر ،فسارعت لتأييد عبد الله بن الزبير فى ثورته ضد الامويين.(١)

وأشتد الخلاف أيضا بين قيس وتغلب ،فقد كانت تغلب تدين بالولاء لمروان بن الحكم ،ووقفت قيس دائما موقف المعارضة للدولة الاموية. وكان بين قيس وتغلب تزاحم فى المنازل وتضارب على المعيشة والمكان ، مما جعلهما مختلفتين فى مصالحهما الاقتصادية وهذا الجانب الاقتصادى هو الذى جعل تغلب تنتهز الفرصة فى موقعة مرج راهط وتنضم الى القبائل اليمنية ضد قيس حتى تخرجها من بلادها اذا دارت عليها الدوائر.

وقبيل تولية عمر بن عبد العزيز الخلافة ، قامت ثورة عبد الرحمن بن الاشعث، ضد الحجاج الثقفى فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ،ولعبت العصبية القبلية والاقليمية دورا كبيرا . فيقول المستشرق (فلهوزن)(٢) : اشترك فى ثورة ابن الاشعث أكابر العرب وأكثرهم نباهة ،فكان منهم رؤساء قبائل، مثل ابن الاشعث الكندى ، وجرير بن سعيد بن قيس من همدان ،وعبد المؤمن بن شبث بن ربعى من تميم ،وبسطام بن مصقلة بن هبيرة الشيبانى من بكر ،وكان منهم قرشيون مثل محمد بن سعد بن أبى وقاص ، وعبيد الله بن عبد الرحمن بن عبد شمس ،وعبد الرحمن بن العباس الهاشمى .

---

(١) البلاذرى : انساب الاشراف جـ٥ ص٣٠٨

(٢) فلهوزن : الدولة العربية ص٢٣٩

وقد أنفت الطبقة الارستقراطية العربية من قبول المعاملة الجارحة والغطرسة التى أبداها الحجاج ممثل سلطان الدولة الذى لم يكن يعتبر من أشراف العرب. وكانت القبائل هى فرق الجيش ،وكانوا أشد رغبة فى اتباع رؤسائهم . بعد ان أصبح طول الحرب والاقامة فى المسالح(٢) القاصية شيئا بغيضا اليهم بالجملة ،وصار لا ينقطع حنينهم الى أوطانهم . كما كانت الثورة محاولة جديدة قوية مستميته من جانب أهل العراق لطرح نير اهل الشام من على كاهلهم.

ويصور (فلهوزن)(١) حركة ابن الاشعث على انها صراع أقليمى بين العراق والشام ،فيقول :كان جند الشام يمثلون عند أهل العراق السيادة الاجنبية ،وكان على جند العراق ان يقنعوا بأعطيات قليلة ويحتملوا فى الوقت نفسه مؤونة جند الشام . وكانوا يوجهون فى حملات بعيد ةويرسلون الى المسالح القاصية ،على حين كان يبقى جند الشام فى أهليهم . فهو لم يكن صراعا بين الموالى والعرب ،بل كان صراعا بين عرب العراق وعرب الشام . فكان صراعا بين ولايتين فى الدولة العربية كانتا تتنافسان دائما . وكان اهل العراق ،أيا كان أصلهم ، متحدين فى ذلك الصراع ،وكذلك كان جنود الاحتلال الشاميون يشعرون ،وهم خارج وطنهم بما بينهم من أواصر الاتحاد .

---

(١) فلهوزن : الدولة العربية ص ٢٤٠ـ٢٤١

(٢) "المَسْلَحة : مثل الثغر والمَرْقَب ، وجمعه المسالح، وهى مواضع المخافة ، وفى الحديث : "كان أدنى مسالح فارس إلى العرب العُذَيْب" تاج العروس

تجلت العصبية الاقليمية فى العصر الاموى فى عدة مظاهر ،فقد تطلعت بلاد العراق دائما الى الاستقلال ،أو الى ان تكون مركزا للخلافة ،كما كانت فى عهدى على بن أبى طالب والحسن. وأرادت الحجاز استرداد العاصمة ،ولهذا أيدت خلافة عبدالله بن الزبير فى مكة. وكان قيام مدينة واسط فى العراق يمثل العصبية الاقليمية ،فقد اراد الحجاج عدم مخالطة جند الشام لاهل العراق ،حتى يبقى جنده محتفظين بعصبيتهم الاقليمية ضد اعدائه العراقيين.(١)

وفى ذلك يقول (فلهوزن) (٢): فى سنة ٨٣ هـ بنى الحجاج مدينة واسط ،وجعلها حصنا فى منتصف الطريق بين الكوفة والمدائن والاهواز والبصرة ،وجعلها مقرا للحكومة ونقل جمهور جند الشام اليها ايضا . ويقال انه فعل ذلك لكى يتلافى ارتكابهم للمفاسد فى الاحياء التى يقيم فيها الناس فى الكوفة والبصرة. ولكن يظهر ان السبب الاكبر هو انه أراد ان يعزل جند الشام عن اهل العراق ،ويجمعهم حوله ليكونوا أداة طيعة تحت يده ،ونقل مقر اقامته هو من وسط الجماعة الى مركز قيادة حربى . فأبان بذلك عما يشعر به من أنه فى بلاد معادية ،واخرج الحكومة عن الاساس الدينى الابوى الذى نشأت عليه، وأقامها على القوة فى صورتها الصريحة ،ولم يكن هناك سبيل غير ذلك .

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين جـ٢ ص ٦١
(٢) الدولة العربية ص ٢٤١

اذا كان لابد من المحافظة على سيادة بنى أمية على العراق .

وكانت هناك عصبية المدن ،بين البصرة ،والكوفة ،وواسط ،ودمشق ،والفسطاط ، والقيروان . فكان أهل كل مدينة يتعصبون لمدينتهم رغم مابينهم من كراهية أو احقاد وفخر سكان كل مدينة بما تحفل به مدينتهم من خبرات ، ومن يقيم فيها من التابعين والعلماء والفقهاء ،وعقدوا المجالس ،ووضعوا الكتب المفاخرات (١) .

ورأى عمر بن عبد العزيز التصدى لهذه العصبية حرصا على الوحدة الاجتماعية، وتحقيقا للسلام بين ابناء المجتمع . ولم يتعصب عمر ابدا لقريش، أو للعرب الحجازيين ، او للعنصر العربى ،بل نظر الى كل رعاياه نظرة سواء ، وجعل التقوى والمواطنة الصالحة أساسا للمفاضلة ،وللثواب والعقاب .

وفى عهد عمر ،ثارت العصبية فى الجزيرة العربية ،اذ اثارها رؤساء القبائل، ورأى عمر التصدى لها فى حزم وقوة ، وكتب رسالة مطولة الى عامله الضحاك بن عبد الرحمن ،بدأها بابراز اثر الاسلام فى تحقيق الوحدة العربية ،والقضاء على العصبية القبلية ،كما تحدث عمر عن دور الرسول عليه الصلاة والسلام فى القضاء على الروح الجاهلية بين القبائل ،ثم يقول عمر الى محركى الفتنه : " وانى احذركم

---

(١) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص١٩٨ -١٧٠ .

هذا القرآن ،فان تباعته وشروطه قد أصابكم منها - ايتها الامة - وقائع من هراقة الدماء ،وخراب ديار وتفرق جماعات . فانظروا مازجركم الله عنه فى كتابه فازدجروا عنه ....

" ان ما هاجنى على كتابى هذا امر ذكر لى عن رجال من أهل البادية ،ورجل أمروا حديثا ،ظاهر جفاؤهم ،قليل علمهم بأمر الله... وذكر لى ان رجالا من أولئك يتحاربون الى ان حصروا اليمن ،يزعمون انهم ولاية على من سواهم . قاتلهم الله اى منزلة نزلوا ، ومن اى مكان خرجوا ،أو بأى أمر لصقوا . ولكن قد عرفت ان الشقى بنيته يشقى ،وان النار لم تخلق باطلا . او لم يسمعوا قول الله فى كتابه (انما المؤمنون اخوة ،فاصلحوا بين اخويكم ،واتقوا الله لعلكم ترحمون) ....

" وقد ذكر لى من ذلك ان رجالا يتداعون الى الحلف ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحلف ،فقال (لا حلف فى الاسلام) وماكان من حلف فى الجاهلية فلم يزده الاسلام الا شده ،فكان يرجو احد من الفريقين حفظ حلفه الفاجر الذى فيه معصية الله ومعصية رسوله ،وقد ترك الاسلام حين انخلع منه.

"وانا أحذر كل من سمع كتابى هذا ،ومن بلغه ، ان يتخذ غير الاسلام حصنا ، او دون الله ودون رسوله ودون المؤمنين وليجه ، تحذيرا بعد تحذير ،واذكرهم تذكيرا بعد تذكير ،وأشهد عليهم الذى هو آخذ بناصية كل دابة ،والذى هو أقرب الى كل عبد من حبل الوريد . وانى لم آلكم بالذى كتبت به اليكم نصحا ،مع أنى لو أعلم

أحدا من الناس يحرك شيئا ليؤخذ له به ، أو ليدفع عنه ، احرص - والله المستعان - على ذلك كائنا من كان ، رجلا او عشيرة أو قبيلة أو اكثر من ذلك . فادع الى نصيحتى وما تقدمت اليكم به ، فانه هو الرشد ليس لها خلقاء ، ثم ليكون أهل البر وأهل الايمان عونا بألسنتهم ، وان كثيرا من الناس لا يعلمون ... " . (١)

وأوقف عمر بن عبد العزيز سياسة التفرقة العنصرية التى اتبعها اسلافه من الخلفاء الامويين ، ونهى عن تلك السياسة التقليدية التى أدت الى التفرقة ما بين العرب والموالى فى الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ولذا نجح عمر فى حل مشكلة الموالى فى عهده ، ونعم الموالى فى ظلال عدالته بالسلام الاجتماعى .

كتب عمر الى واليه بالعراق عدى بن أرطأة يأمره بحسن معاملة الموالى ، وبترك سياسة ونظم الحجاج الثقفى (٢) . وألا يأخذ من الموالى هدايا النيروز والمهرجان وان يقضى الديون عن الغارمين . (٣) كما نهاه عن تسخيرهم . (٤) وكان كثير من الموالى المسلمين مازالوا يدفعون ، كما حرموا من العطاء رغم اشتراكهم فى الحروب مع العرب ، فكتب عمر الى عامله بالكوفة ان الله بعث محمدا داعيا الى الاسلام ولم يبعثه جابيا ، وأمره برفع الجزية عمن أسلم . (٥) فقد آثر عمر - كما يقول

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٠٣ - ١٠٦
(٢) ابن الجوزى : عمر بن عبد العزيز ص ٥٤
(٣) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٧١
(٤) المصدر السابق ص ٩٩
(٥) ابو يوسف : الخراج ص ١٥٧

دوزي (١) — نصرة الاسلام على اى شيء آخر ،وكان لايهمه الا ان ينتشر الاسلام ويدين به كل انسان• (٢) ويذكر المستشرق (براون) (٣) ان عمر انفرد عن سائر الخلفاء الامويين بالتقوى والايمان ،فلم يكن مدفوعا فى حكمه للدولة بدوافع مالية بل برغبته فى نشر الاسلام•

وأمر عمر بارجاع كل من أسلم الى قريته حتى يظل فى أرضه ويدفع الخراج كما كان فى أول الامر• (٤) وساوى عمر بين العرب والموالى فى العطاء (٥) • فلا عجب ان ارتاحت الموالى الى سياسة عمر العادلة ،فاعتبروا هذا الخليفة خامس الخلفاء الراشدين (٦) • وتوافدت وفود العراق على عمر تشكره وتثنى عليه بعد ان كانت لاتتجه قبل عهده الا بالشكوى والتظلم• (٧)

علق المستشرق (فلهوزن) (٨) على انصاف عمر الموالى فقال : كان الموالى بالباب يتربصون الدوائر ،وكانوا يتطلعون الى المساواة التامة بالعرب ،وكان الاسلام فى

(١) دوزى : نظرات فى تاريخ الاسلام ص٢٩٢
(٢) نفس المرجع •
(٣) Brown: Lit. Hist. of Persia, p. 234
(٤) الطبرى جـ٨ ص١٣٩
(٥) ابن الجوزى ص٥٣
(٦) الدميرى : حياة الحيوان ص٨٣
(٧) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ١ ص١٤
(٨) فلهوزن : الدولة العربية ص٢٨٩ ـ ٢٩٩•

جانبهم ،فاجتذبتهم الثورة التى كانت تستند الى الاسلام. وقد حاول عمر ابن عبدالعزيز ان يجيب مطالبهم دون ثمن غال ،ولعل الاعتبارات التى كانت تحدوه فى ذلك قد كانت اعتبارات دينية اكثر منها سياسية . ولم يكن من المستطاع كسر الروح الاسلامية بل كان لابد من ان يحسب حسابها ، وكانت خصومة الاسلام للدولة الاموية تهددها بالانهيار ،وعلى هذا فان خليفة أمويا يجتهد فى ان يتمشى مع أصول الاسلام(وفى تجريد حركات المعارضة من سلاحها الاسلامى بان يزيل أسباب الشكوى التى كان لها مايبررها ويستجيب الى مايمكن الاستجابة اليه من مطالب ،ان خليفة يعمل لذلك لايكون قد أتى شيئا يضر بمصلحة أسرته الحاكمة .

وكان لابد لعمر بن عبدالعزيز وهو يحقق السلام الاجتماعى ان يخفف من ثورة الاحزاب المعارضة للدولة الاموية ،فقد كان الصراع السياسى يؤدى الى صراع اجتماعى ،كما امتزجت تعاليم الفرق السياسية والدينية والاجتماعية . وفى مقدمة هذه الفرق المعارضة ،جماعات الخوارج ،التى اقلقت مضاجع الخلفاء الامويين منذ قيام دولتهم . واشتهر الخوارج بالعنف والقسوة ،ونشروا الارهاب فى ربوع العراق وخراسان . كما اشتهروا بالاستبسال فى القتال حتى الموت ،وباشتراك النساء معهم فى القتال. وقد شهدت بلاد العراق فى عهد الحجاج ثورات متوالية قام بها الخوارج الازارقة ثم الخوارج الصفرية (١) ولم ينجح الحجاج

---

(١) انظر التفاصيل فى تاريخ الطبرى جـ٧ ص٢١٨ ومابعدها ،المسعودى: مروج الذهب جـ٣ ص٧٠ ومابعدها وابن الاثير : الكامل جـ٤ ص١٦٣ ، ابن كثير: البداية والنهاية جـ٨ ص١٢ ومابعدها .

الثقفى فى كسر شوكة الخوارج الا بعد استعانته بجند الشام (١)؛ وتتبع سليمان بن عبدالملك الخوارج وألقى بهم فى السجن (٢).

ورأى عمر التفاهم مع الاحزاب المعارضة . وفى ذلك يقول المستشرق (فلهوزن) (٣) : حاول عمر بن عبدالعزيز ان يجد فى الاسلام اساسا مشتركا بين الجميع ،يمكن ان تلتقى عنده الحكومة والقوى المتحفزة الطامحة المعادية لها . وهو ، تمشيا مع هذه الغاية ،سار على سياسة التفاهم والتصالح ولم يكن عمله فى ذلك مقصورا على الموالى وحدهم ،فقد حاول ايضا ان يزيد اسباب التذمر فى الامصار ،وخصوصا حاول ان يزيد ماكان فى نفوس أهل العراق من شعور بأنهم تحت حكم رياسة شامية أجنبية عنهم ،وكان بره يتسع للجميع على السواء ، بل كان يظن انه يستطيع ارضاء الخوارج بمناظرة اياهم فى أرائهم . وهو قد نجح على الاقل فى ان جعلهم يغمدون سيوفهم ما امتدت حياته . ولم يكن يعاقب المجرمين السياسيين على حين انه كان شديدا على غيرهم من المجرمين . وقد أثبت بره بالعلويين ،ورد اليهم ما كان قد أخذ منهم من ممتلكات وفعل ذلك مع ورثة طلحة ،وترك لمن على بن ابى طالب ،وكتب بذلك الى الافاق .

(١) المسعودى : مروج الذهب ج٣ ص ٨٠
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص١٥٩
(٣) فلهوزن : الدولة العربية ص٢٩٩

خرجت الخوارج بالعراق على عمر بن عبدالعزيز بزعامة شوذب . وأرسل عمر جيشا بقيادة مسلمة بن عبدالملك نجح فى الحاق الهزيمة بالخوارج . ورغم انتصار عمر ، كتب عمر رسالة الى شوذب جاء فيها : " بلغنى انك خرجت غضبا لله ونبيه ولست بأولى بذلك منى ، فهل اناظرك ، فان كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخلت فيه الناس ، وان كان فى يدك نظرنا فى أمرنا ".(١)

وبعث شوذب برجلين الى عمر يناظرانه . فسألهما عمر عن سبب خروجهم فقال أحدهما : رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها المظالم ، وسلكت غير سبيلهم ، فان زعمت انك على هدى وهم على ضلال فالعنهم وتبرأ منهم ، فهذا الذى يجمع بيننا وبينك او يفرق .

فقال عمر : هل علمتم ان ابا بكر حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتدت العرب قاتلهم فسفك الدماء وأخذ الاموال وسبى الذرارى ؟ قالا : نعم فقال عمر : فهل علمتم ان عمر حين قام بعد ابى بكر رد تلك السبايا الى أصحابها ؟ فأجابا : نعم . فقال عمر : فهل برئ عمر من أبى بكر ؟ قالا : لا .

ثم قال عمر : أفرأيتم أهل النهروان .(٢) اليسوا من أسلافهم . ومن تقولون

(١) الطبرى جـ٨ ص١٣٢
(٢) اهل النهروان هم الخوارج الاوائل فى عهد على بن ابى طالب .

وتشهدون لهم بالنجاة ؟ قالا : بلى . فقال عمر : فهل علمتم ان اهل الكوفة حين خرجوا اليهم كفوا ايديهم فلم يسفكوا دما ولم يخيفوا آمنا ولم يأخذوا مالا ؟ ... (١)

واستمر الحوار بين عمر ومندوبى الخوارج ، حتى اقتنعا بحجج عمر ، فقال أحدهما : ماسمعت كاليوم أحدا أبين حجة ولا أقرب مأخذا ، أما انا فأشهد أنك على الحق ، انى برئ مما برئ منك . (٢) وركن الخوارج الى الهدوء والسلام وأصبحوا يترحمون على سليمان بن عبد الملك اذ استخلف عليهم هذا الخليفة المؤمن العادل . (٣)

وشعر عمر بن عبد العزيز بالسرور والفرح ، اذ نجحت سياسة اللين والمهادنة والتعايش الاجتماعى ، فقال لاحد أصحابه : اذا قدرت على دواء تشفى به صاحبك دون الكى ، فلا تكوينه أبدا . (٤)

ورأى عمر بن عبد العزيز ايضا ان يهادن العلويين وشيعتهم ، ويرضى مشاعرهم ، ويهدئ من سخطهم على الدولة الاموية . وقد عاش عمر بن عبد العزيز شطرا طويلا من حياته فى المدينة المنورة . ولمس منزلة العلويين فى قلوب أهلها

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ٣ ص ١٢٦

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٢ ص ٤٠٢

(٣) ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ٢ ص ١٢٧

(٤) ابن الجوزى : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٢

وقد توالت ثورات العلويين فى العصر الاموى ، وسقط كثير من الشهداء ، وأثـــارت دماؤهم المشاعر ، وخاصة دماء الحسين بن على ، حتى اصبحت صيحة (يالثارات الحسين) تهز اركان الدولة الاموية . (١)

وقد عاصر عمر بن عبد العزيز فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان أحداثـــا أثارت مشاعر المسلمين ، وألهبت سخطهم على الدولة الاموية . فقد قامت حركة التوابين الذين ندموا على تخاذلهم فى الدفاع عن الحسين ، وأقسموا على الاخـــــذ بثأره . (٢) وتزعمهم سليمان بن صرد الخزاعى وهو من صحابة الرسول عليه الصـــلاة والسلام ، وبعض اصحاب على بن أبى طالب (٣) . كما عاصر عمر أيضا حركة المختار ابن ابى عبيد الثقفى ، الذى اعلن أنه وزير آل محمد ، وداعية محمد بن على بـــن ابى طالب المعروف بابن الحنفية ، وأنه يثأر لمصرع الحسين بن على (٤) وجمـــع المختار حوله موالى العراق ووعدهم بمساواتهم بالعرب ، فقامت حركة اجتماعية خطيرة فقد وعد المختار الموالى ان "يعطيهم اموال ساداتهم" (٥) ولم يكن يسمع فى معسكر المختار كلمة عربية واحدة . (٦)

---

(١) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج١ ص١٠٤
(٢) المسعودى : مروج الذهب ج٣ ص ٣٧ـ٣٨
(٣) البلاذرى : انساب الاشراف ج٥ ص٢٠٦
(٤) المسعودى : مروج الذهب ج٣ ص ٢١ ، ابن الاثير : الكامل ج٤ ص٧٢
(٥) البغدادى : الفرق بين الفرق ص٣٢
(٦) الدينورى : الاخبار الطوال ص٣٠٢

ورأى عمر تهدئة خواطر العلويين والشيعة ، فأوقف سب على بن أبى طالب على المنابر ،وقد كان هذا السب تقليدا طوال العصر الاموى . وأمر عمر ان يحل مكان السب على المنبر تلاوة الاية الكريمة : (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) (١) .

وأمر عمر أيضا برد الحقوق المالية والاجتماعية للعلويين ،فأمر بتوزيع الخمس على بنى هاشم (٢) ، ورد ارض فدك الى أولاد فاطمة رضى الله عنها (٣) .

حاول عمر حل مشكلة أرض فدك التي بدأت بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ،واستمرت القضية طوال عهود الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين والفاطميين ،وأصبحت مثارا للنقاش والاجتهاد . وبرزت خطورة هذه القضية فى مطلع خلافة أبى بكر الصديق ،حين طالبت السيدة فاطمة الزهراء بأرض فدك كميراث لها عن أبيها الرسول عليه الصلاة والسلام . وانضم اليها فى طلبها زوجها على بن ابى طالب وكثير من بنى هاشم . وارتبطت قضية أرض فدك بموقف على وبنى هاشم من البيعة لابى بكر بالخلافة . ورأى ابو بكر ان الانبياء لا يورثون وضم الارض الى بيت المال .

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ٣ ص١٨٣ ، الفخرى ص ١١٧
(٢) طبقات ابن سعد جـ٥ ص٢٨٦
(٣) اليعقوبى جـ٢ ص٣٠٥

وبرزت قضية أرض فدك مرة اخرى فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، حين أجلى يهود فدك عن الارض بعد تعويضهم عنها ماديا . وطالب على بن أبى طالب بالارض كميراث له عن زوجته السيدة فاطمة . وطالب العباس بن عبد المطلب بها أيضا باعتبارها ميراثا له عن ابن اخيه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأصبحت ارض فدك طوال عهد الخلفاء الراشدين تتبع بيت المال ، حتى بدأ العصر الاموى فوهب معاوية بن ابى سفيان هذه الارض لمروان بن الحكم ، وتوارثها أبناؤه حتى آلت الى عمر بن عبد العزيز . (١)

وهكذا اصبح عمر بن عبد العزيز طرفا فى قضية ارض فدك ، وهى من أبرز قضايا التاريخ الاسلامى . ووقف عمر على المنبر يقص على المسلمين قصة هذه الارض ، ثم يعلن قراره ، فقال عمر : " ان فدك كانت مما أفاء الله على رسوله ، ولم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فسألته اياها فاطمة رحمها الله تعالى ، فقال : (ما كان لك ان تسأليني وما كان لى أن أعطيك) ، فكان يضع ما يأتيه منها فى ابناء السبيل . ثم ولى أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم فوضعوا ذلك

---

(١) الخربوطلى : أرض فدك ص٣ ـ ٤

بحيث وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ولى معاوية فأقطعها مروان بن الحكم فوهبها مروان لابى ولعبد الملك، فصارت لى وللوليد وسليمان حصته منها فوهبها لى فاستجمعتها وماكان لى مال أحب الى منها، فاشهدوا انى قد رددتها الى ماكانت عليه ". (١)

وأبدى العلويين سرورهم ورضاهم عن سياسة عمر نحوهم، وكتبوا اليه يشكروا له ما فعله معهم من صلة أرحامهم. (٢) وقال امام الشيعة الامامية محمد الباقر. (٣) :" ان لكل قوم نجيبة (٧)، وان نجيبة بنى امية عمر بن عبد العزيز، وانه يبعث يوم القيامة وحده " (٤) وقالت فاطمة بنت الحسين بن على: لو كان بقى لنا عمر ما احتجنا بعهده الى أحد. (٥)

علق المستشرق (فلهوزن) (٦) فقال: رد عمر أرض فدك الى آل النبى، وهم العلويون، وبذلك ألغى عمر ما كان قد جرى عليه أبو بكر وعمر، ومعنى هذا انه لم يكن يتبعهما اتباعا تاما.

---

(١) البلاذرى: فتوح البلدان ص٤٥ ـ ٤٦، ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص٤٢٥

(٢) طبقات ابن سعد ج٥ ص٢٨٦

(٣) وهو ابن الامام على زين العابدين

(٤) ابن الاثير: الكامل ج٥ ص٦٢

(٥) المصدر السابق ج٥ ص٦٥

(٦) فلهوزن: الدولة العربية ص٢٨٧

(٧) لعل صحته: نجيب، هو الكريم الحسيب، أو نجبة، يقال هو نجبة قومه، إذا كان هو النجيب منهم، أو نجبة بمعنى المحض الأفضل، وفي حديث ابن مسعود: "الأنعام من نجائب القرآن" أي من أفاضل سوره. عبد [illegible] العروسي

٥ـ الضمان الاجتماعى والرعاية الاجتماعيـة

تعبير يحتاج إلى تحديد
فكلكم راع ومسئول عن رعيته

أعلن عمر أنه الراعى المسئول عن رعيته ،فيحقق لهم العدالة الاجتماعية ، ويوطد لهم أركان السلام الاجتماعى ، ثم ويوفر لهم الضمان والتكافل والرعايةالاجتماعية ورأى عمران المهام الاولى للولاة والعمال هى حل مشاكل الجماهير ، اليوميـــة والاجتماعية ،وطلب منهم الايجابية فى العمل ،وسرعة الانجازه وأعلن لولاته أن " قوام الدين العدل والاحسان " (١) . وطلب من رعاياه مواجهة الظلم ، فقـــال :

" ان الرجل الهارب من الامام الظالم ليس بظالم " (٢) .

هل هذه مواجهة للظالم ؟

وعمر يطلب من العمال الخروج الى الشارع ،ولقاء الجماهير ،وبحث مشاكلهم على الطبيعة ،وحلها بحلول شافية ،فهو يكتب الى عامله فى المدينة : " ايـــاك والجلوس فى بيتك " ثم يقول له " اخرج للناس ،فآسى بينهم فى المجلس والمنظر ، ولا يكون أحد من الناس آثر عندك من أحد ولاتقولن هؤلاء من أهل بيت أميـــر المؤمنين ،فان أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندى اليوم سواء ،بل أنا احـــرى أن أظن بأهل بيت أمير المؤمنين انهم يقهرون من نازعهم " (٣) .

---

(١) الطبرى جـ٦ ص٥٦٩
(٢) المصدر السابـــق
(٣) طبقات ابن سعد جـ٥ ص٢٥٦

وعمر يرى ان مصالح الشعب هى أمانة ،فى عنق الخليفة ،ثم فى اعناق ولاته وعماله وحقوق الشعب هى حقوق الله تعالى ، فيكتب عمر الى عامله بالكوفة : " اعلم أنى قد أشركتك فى أمانه عظيمة ،فان ضيعت حقا من حقوق الله كنت اهون خلقة عليه ، ثم لا يغنى عنك عمر من الله شيئا ". (١)

وأعلن عمر انه المسئول عن الاغنياء والفقراء على السواء ،وان طاعة الشعب للعامل مرهونة بطاعته لله تعالى ،فقد طلب عمر من أمير الحج ان يقرأ رسالته فى جماهير المسلمين ،المحتشدين فى عرفات ،والقادمين من كل أرجاء العالم الاسلامى ،فى هذه الرسالة يقول عمر : " ... أنا معول كل مظلوم ،ألا وأى عامل من عمالى رغب عن الحق ،ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم ،وقد صيرت أمره اليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم ، ألا وانه لا دولة بين أغنيائكم ولا اثرة على فقرائكم فى شىء من فيئكم ... ". (٢)

اتجه عمر الى تطبيق وتوسيع فكرة الضمان الاجتماعى بحيث تشكل كافة طبقات الامة رجالا ونساء واطفالا وفقراء ،وعاجزين ومرضى ومسافرين ،مسلمين وغير مسلمين ،عربا وموالى ،أعتقادا منه بان هذا الضمان ـ الذى شهده عهد الرسول وعصر خلفائه الراشدين ـ أمر ضرورى اذا ما أريد للعدل الاجتماعى ان يأخذ مجراه.

---

(١) طبقات ابن سعد جـ٥ ص ٢٩

(٢) ابن الجوزى ص ٧٢ ـ ٧٣

وفى سبيل جعل هذا الضمان أكثر ايجابية عملية والمسئولين اكثر قدرة على الحركة والعطاء ، أقر عمر نظاما لامركزيا مفتوحا فى جمع الاموال وتوزيعها ، فجعل كل ولاية من ولايات الدولة الاسلامية تسعى الى نوع من الاكتفاء الذاتى فى جمع الضرائب وتوزيعها على الاحتياجات المحلية ، وكى يعزز الخليفة هذا الاجراء جعل تبادل المعونات المالية بين الاقليم والمركز أمرا مفتوحا ، لسد العجز المالى فى أى من الطرفين ، فى حالة حدوثه. (١)

قال عامل من عمال عمر ، يدعى ابو مجلز ، لعمر : انك وضعتنا بمنقطع التراب (٢) فاحمل الينا الاموال. فقال عمر : يا أبا مجلز قلبت الامر. قال: يا امير المؤمنين أهو لنا أم لك ؟ قال عمر : بل هو لكم اذا قصر خراجكم عن أعطياتكم. فقال أبو مجلز : فلا أنت تحمله الينا ولا نحمله اليك ، وقد وضعت بعضه على بعض فقال عمر : أحمله اليكم ان شاء الله. (٣)

ورأى عمر الموازنة بين دخل كل ولاية وبين مصروفاتها ، وان تكفى كل ولاية نفسها ، والا أرسل اليها الاموال من العاصمة دمشق اذا لم يجد العامل مايكفى العطاء الممنوح للجماهير. كما رأى عمر ان يوزع الفائض من الايرادات ، بعد المصروفات ، على المحتاجين من اهل الولاية دون ان يرسل الى الخزانة العامة فى العاصمة.

---

(١) عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب الاسلامى ص١٢٥
(٢) اى فى منطقة جرداء قليلة المحصول والانتاج
(٣) الطبرى جـ٦ ص٥٧

كتب عمر الى عقبة بن زرعة الطائى عامل خراج خراسان : "... ان كان بالخراج - كفافا لاعطياتهم فسبيل ذلك ، والا فاكتب الى حتى احمل اليك الاموال فتوفر لهم أعطياتهم" . واحصى عقبة الخراج فوجده يزيد على العطاء ، فكتب بذلك الى عمر ، فأجابه عمر : "ان اقسم الفضل فى أهل الحاجة" (١).

واهتم عمر بالفقراء ، ورأى توفير الرعاية الاجتماعية لهم ، فتضمن الدولة لهم القيام بضرورات الحياة . فقد كتب عمر الى عدى بن أرطأة عامل البصرة : "... انى كنت كتبت الى عمرو بن عبد الله أن يقسم ما وجد بعمان من عشور التمر والحب (٢) فى فقراء أهلها ومن سقط اليها من أهل البادية ، ومن أضافته اليها الحاجة والمسكنة وانقطاع السبيل . فكتب الى أنه - اى عمرو بن عبد الله - سأل عاملك - على عمان - عن ذلك الطعام والتمر ، فذكر انه باعه وحمل اليك ثمنه ، فاردد الى عمرو ما كان حمل اليك عاملك على عمان من ثمن التمر والحب ليضعه فى المواضع التى أمرته بها ، ويصرفه فيها" (٣) وكان رد المظالم اذا استنفد ايرادات ولاية من الولايات ، بعث عمر باموال من الخزانة العامة فى العاصمة دمشق لتغطية العجز (٤).

(١) الطبرى ج٦ ص ٥٦٨
(٢) الحب : الغلال .
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٩٤
(٤) طبقات ابن سعد ج٥ ص٢٥٢

؟ ما عندكم ينفد

تفسير الواضح

أتخذ الضمان الاجتماعى فى دولة عمر بن عبد العزيز صورا فريدة ، وسعى الخليفة الى توزيع العدل على الجميع ماداموا مواطنين بعدل الله وشرعه.(١)

أمر عمر بمنح العطاء للجند على قدم المساواة ، لافرق بين عربى أو مولى (٢) ، فالاسلام يجمعهم ويجعلهم مواطنين مسئولين من الخليفة ، وعزل عمر والى خراسان لانه منع العطاء عن الموالى . (٣) والعطاء هو الاساس الاول للضمان الاجتماعى ، ولذا امر عمر بتوزيع صدقات كل حى فى أبناء هذا الحى ، حتى اصبح الرجل يصيبه فريضتين أو ثلاث. (٤) كما كان الديوان يحفظ العطاء لكل غائب حتى يعود ، وقال عمر للناس : " فانما هو مالكم نرده عليكم " . (٥) واهتم عمر بابناء المقاتلين وأسرهم ، وأمر بمنح الاطفال فى سن الفطام ارزاقا . (٦) وخصص اعطيات للمرضى المزمنين الذين لا يرجى شفاؤهم . (٧) واقام مطعما شعبيا سماه (دار الطعام) لاطعام المساكين والفقراء وأبناء السبيل ، وحذر أهله من ارتيادها . (٨)

---

(١) عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب الاسلامى ص١٢٧
(٢) طبقات ابن سعد جه ص ٢٥٤
(٣) الطبرى ج٦ ص ٥٥٩
(٤) ابن الجوزى ص٨٦ ـ ٨٧
(٥) طبقات ابن سعد جه ص٢٥٥
(٦) الطبرى ج٦ ص٥٦٩
(٧) طبقات ابن سعد جه ص ٢٨١
(٨) المصدر السابق جه ص٢٧٩

ورأى عمر ان مفهوم الضمان الاجتماعي هو توفير ضروريات الحياة لكل فرد من رعاياه. وكان عمر قد بعث برسالة الى أحد ولاته يأمره بقضاء دين المدينين ،فكتب العامل الى عمر : انا نجد الرجل له المسكن والخادم ،وله الفرس ،وله الاثاث في بيته. فكتب عمر الى الوالي : لابد للرجل من المسلمين من مسكن يأوي اليه رأسه ،وخادم يكفيه مهنته ، و فرس يجاهد عليه عدوه ،وأثاث في بيته ،ومع ذلك فهو غارم ،فاقضوا عنه مايمكنه من الدين.(١) واصبح في ميزانية الدولة بند لقضاء ديون الغارمين ،أحياء أو أموات.(٢) كما عوض عمر كل فلاح أضرت الكوارث بزراعته(٣) كما انفق على على كل من أراد أداء فريضة الحج وعجز عن القيام بنفقات الحج.(٤)

والمصادر التاريخية حافلة بالروايات التي توضح أركان الضمان الاجتماعي والرعاية الاجتماعية في عهد عمر. وقد كان عمر يعطف على الرجال ذوي العيال مقدرا أعبائهم ،وعلى الارامل الذين تأثروا بفقد العائل ،فيفرض عمر للجميع مايسد حاجاتهم ويكفيهم سؤال الناس.(٥) كما كان عمر يعفو على السارق اذا ثبت له

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٦٤
(٢) طبقات ابن سعد جـ٥ ص ٢٥٧
(٣) ابن الجوزي ص ٧٩
(٤) الطبري جـ٦ ص ٥٦٩
(٥) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٧ ومابعدها.

انه سرق بدافع الحاجة او الجوع .(١) وامر عمر بالا يوثق السجناء فيمنعهم الوثاق من الصلاة وهم قيام ، وأمر ألا يبيت أحد منهم فى قيده الا اذا كان مطلوبا بدم ، وقد اجرى عليهم من الصدقات مايصلحهم فى طعامهم وأدمهم .(٢)

وبلغ برغبة عمر فى ألا يكون فى دولته جائع أو محتاج ، أنه رفض عمل كسوة جديدة للكعبة حينما طلب منه حجابها ذلك ، وكتب اليهم : انى رأيت أن اجعل ذلك فى أكباد جائعة ، فانه أولى بذلك من البيت .(٣)

وأهتم عمر بالمكفوفين ، فأصدر أمرا بأن يوزع على كل مكفوف فى الرعية غلام يقوده من غلمان الاسرى الرقيق الذين غنمتهم الدولة فى حروبها . واهتم عمر بتكريم ذكرى الراحلين من المكفوفين الذين كانت لهم أعمال مأثورة .(٤)

وكان عمر يوصى دائما الاغنياء بمواساة الفقراء ومساعدتهم ، فكان مما قال : " وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا ، فردوا على فقرائهم ، حتى نستوى نحن بهم ، وأكون أنا أولهم ".(٥) وحرم عمر اولاده من مباهج الحياة ، حتى أصبحوا أدنى

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٥
(٢) ابن الجوزى ص ٩٧
(٣) البيت : بيت الله الحرام أى الكعبة (ابن الجوزى ص ٧٦)
(٤) الشرباصى : خامس الراشدين ص ١٤١
(٥) ابن كثير : سيرة عمر بن عبد العزيز ١٧٢

من أولاد الفقراء ،مما أثار عطف مسلمة بن عبد الملك ،على أولاد أخته ،فقال لعمر : " يا أمير المؤمنين ،انك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال ،وتركتهم عالة ،ولابد من شئ يصلحهم ،فلو أوصيت بهم الى ،أو الى نظرائك من أهل بيتك ، لكفيتك مؤونتهم ان شاء الله ". ودعا عمر بأولاده ،وكانوا اثنى عشر غلاما فنظر اليهم وبكى ،وقال لهم : " بنفسى فتية تركتهم ولا مال لهم ، يابنى : انى قد تركتكم من الله بخير ،انكم لاتمرون على مسلم ولا معاهد الا ولكم عليه حق واجب ان شاء الله. يابنى : ميلت رأيى بين أن تفتقروا فى الدنيا ،وبين ان يدخل ابوكم النار ،فكان ان تفتقروا الى آخر الابد خيرا من دخول أبوكم يوما واحدا فى النار... قوموا يابنى عصمكم الله ،ورزقكم ". (١)

ولكن تشدد عمر على نفسه وبيته لم يتجاوزه الى غيره ،فبينما نراه آخذا نفسه وأسرته بكل شدة وقسوة ،فارضا على بيته التقشف والزهد ،نراه يرفق بالرعية ويوسع لها ،ويحمل اليها حقوقها فى أمانة واحسان. واذا كنا نراه فى بعض الاحيان يراجع ،أو يحاسب ،أو يعاقب على اسراف ،أو يلوم على أفراطه او يدعو الى اعتدال ،فلم يكن ذلك بخلا منه ،ولا شحا ،ولم يكن اعناتا أو ارهاقا ، ولكنها شرعة القصد التى دعا اليها الاسلام فى الغنى والفقر ، وأسلوب

---

(١) المصدر السابق.

العدل الذى حبب الاسلام فيه عند الرضا والغضب ، وطريقة الاقتصاد التى يكثر بها القليل ويدوم الكثير. (١)

ورأى عمر ان يوفر لكل مسلم ، فى الشرق والغرب ، الرعاية الاجتماعية ، حتى ولو لم يطلبها ، فقد قال مزاحم مولى عمر له : " يا امير المؤمنين ، كأنك مهتم ؟ " فقال عمر : " لمثل الامر الذى نزل بى اهتممت انه ليس من أمة محمد فى مشرق ولا مغرب احد الا له قبلى حق يحق على أداؤه اليه ، غير كاتب الى فيه ، ولا طالبه منى ". (٢)

وضرب اعمر امثلة كثيرة رائعة للمساواة الاجتماعية ، فقد طلب عمر من جارية ان تروح عليه ، تخفيفا من شدة الحرارة ، فروحت عليه حتى نام . ثم نامت الجارية ، واستيقظ عمر ليجد الجارية وقد استغرقت فى نومها ، فأخذ المروحة وأقبل يروحها ، فانتبهت وصاحت ، فقال لها عمر : " انما أنت بشر مثلى ، أصابك من الحر ما اصابنى ، وأحببت ان أروحك مثلما روحتنى ". (٣)

---

(١) الشرباصى : خامس الراشدين جـ٢ ص ١٤٤
(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٢٤
(٣) ابن الجوزى ص ٧٠

وتشدد عمر فى جمع أموال الزكاة ،باعتبارها الضريبة الاساسية المفروضة على المسلمين ،وأهتم بتوزيعها على مستحقيها ،باحثا عنهم فى كل مكان ،موزعا جباته فى كل الاقاليم ،وفى الحالات التى لم يكن هؤلاء الجباة يجدون فيها الفقراء ،يشترون بهذه الاموال رقاب المستفيدين ، يعتقونها (١) .

وأدت سياسة الاقتصاد فى النفقات ، ورد المظالم ، وضبط الجهاز الادارى للدولة ، الى اختفاء الفقراء والمساكين والغارمين والى تحقيق الرفاهية الاجتماعية . فكان منادى عمر ينادى كل يوم : أين الغارمين؟ أين الناكحون؟ أين المساكين ؟ أين اليتامى ؟ حتى أغنى كلا من هؤلاء . (٢) وقال المؤرخ ابن كثير (٣) : "ولى عمر سنتين ونصفا ، فملأ الارض عدلا ،وفاض المال حتى كان الرجل يهمه لمن يعطى الصدقة".

وأقبل الناس على أداء الزكاة ، حتى بلغ المجموع يفوق كل ما جمعه العمال فى العهود السابقة . (٤) وكتب عامل الصدقات ابن مجدم الى عمر يخبره انه كان يعطى الرجل فريضتين او ثلاث " فما يفارق الحى وفيهم فقير" (٥)

(١) عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب الاسلامى ص١٢٩
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية جـ٩ ص٢٠٠
(٣) المصدر السابق جـ٩ ص٢٣٩
(٤) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص٨٦
(٥) المصدر السابق ص٦٧

قال عمر بن أسيد : والله ما مات عمر حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم ، فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون ، فما يبرح حتى يرجع بماله كله ، قد أغنى عمر الناس. (١)

عاش عمر فترة طويلة من حياته فى المدينة ، فكان يبدى دائما حنينه اليها ، ويسأل كل قادم منها عن أحوال أهلها ، الاشراف والتجار والمساكين والرجال والنساء . وجاء رجل مرة فسأله عمر : ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون فى مكان كذا وكذا ؟ فقال الرجل : قد قاموا يا أمير المؤمنين وأغناهم الله. (٢)

ورحل رباح بن عبيدة الى العراق ، فطلب عمر منه ان يقف على سيرة الولاة فى الناس ، ومدى رضاهم عن ولاتهم . وعاد رباح ليؤكد للخليفة حسن سيرة الولاة فى العراق فقال عمر : الحمد لله على ذلك ، لو أخبرتنى عنهم بغير هذا عزلتهم ولم أستعن بهم بعدها أبدا . (٣)

وكان عمر يتجول متخفيا ، فسأل رجلا قدم من المدينة عن احوالها ، ولم يعلم الرجل ان المستفسر هو الخليفة ، فأجاب : تركت أهل المدينة والظالم

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص١٥٦
(٢) ابن الجوزى ص٧٦
(٣) ابو يوسف : الخراج ص١١٩

بها مقهور ، والمظلوم منصور ، والغنى موفور ، والعائل مجبور ، فسر بذلك عمر وقال : والله لان تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحب الى مما طلعت عليه الشمس. (١)

وهكذا اتت سياسة الضمان الاجتماعي والرعاية الاجتماعية بثمارها الناضجة ، فاختفى الفقر ، وانكمشت الحاجة ، وعلت الابتسامات الشفاه ، وهدأت النفوس ، وارتاحت القلوب . وتذكرت الرعية أيام الخلفاء الراشدين بما حفلت به من عدالة وامجاد ومكرمات.

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص١٣٥

٦ـ أهل الذمة فى المجتمع الاسلامى

كانت تعيش فى المجتمع الاسلامى ، فى العصر الاموى ، جماعات من غير المسلمين ، من أهل الكتاب ، أصبحوا فى ذمة الدولة الاسلامية ، وأطلق عليهم اسم (أهل الذمة) . وكان الخليفة الراشد الثانى عمر بن الخطاب قد وضع قواعدا محددة لمعاملة الذميين ، ولكن كثيرا من الخلفاء والولاة الامويين حادوا عن هذه القواعد ، مما أوجد مشكلات اجتماعية ، كان على عمر بن عبد العزيز مواجهتها ، وهو يواجه سائر مشكلات المجتمع . واتخذ عمر قراراته ونظمه ، فيما يرتبط بالذميين من وحى الاسلام ، باعتباره الدين الرسمى للدولة ، ورغم تقدير المستشرقين لاصلاحات عمر ، ولعدالته ونزاهته ، الا انهم لم يقدروا موقفه من أهل الذمة التقدير الحقيقى ، لانهم لم يفطنوا الى حكمته ومراميه . وقد كانت كل اصلاحات عمر وقراراته تنبع من منبع اسلامى واحد ، وتهدف الى اقرار الامن ، وتحقيق العدالة ، وأرساء الرفاهية الاجتماعية ، وحل المشكلات الاجتماعية القائمة ، تجنبا لاى صراع اجتماعى يفتت وحدة المجتمع .

والذمة فى اللغة العهد والامان والضمان ، وأهل الذمة هم المستوطنون فى بلاد الاسلام من غير المسلمين لانهم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعرضهم وأموالهم ، فان تقاليد الاسلام كانت تقضى بأنه اذا أراد المسلمون غزو اقليم وجب عليهم أن يطلبوا من أهله اعتناق الاسلام ، فمن استجاب منهم طبقت عليه احكام المسلمين ، ومن امتنع فرضت عليه الجزية ، كقوله تعالى : (قاتلوا

الذين لا يؤمنون بالله واليوم الاخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) . ولم يكن يتمتع بهذا الامتياز الا اتباع الملل المعترف بها وهى : المسيحية ، واليهودية ، والمجوسية ، والسامرية ، والصابئة .(١)

رحب المسيحيون واليهود بالفتوحات العربية ، أملا فى الخلاص من مظالم الفرس المجوس فى العراق ، ومن اضطهاد الرومان بسبب الخلاف المذهبى (٢) كما كان المسلمون يطلقون الحرية الدينية لاهل الكتاب مقابل أداء الجزية " .(٣)

أقبل معظم أهل الذمة على تعلم اللغة العربية ، مما أدى الى التقارب بينهم وبين العرب المسلمين وسائر أهالى الامصار المفتوحة . واللغة ليست كلمات أو حروف ، بل هى تعبير وشعور ، ووحدة اللغة تؤدى الى وحدة الثقافة ، والى الوحدة العقلية والنفسية .

وأدى تعميم استخدام اللغة العربية فى الامصار المفتوحة الى اندماج سائر الاجناس على اختلافها اندماجا قويا فى الحياة القومية التى كان يحياها العنصر العربى الحاكم . اذ ربطت اللغة العربية جميع البلاد برباط معنوى .(٤)

---

(١) الخربوطلى : تاريخ العراق ص٢٦٣

(٢) كان معظم اهالى الشام ومصر يعتنقون المذهب اليعقوبى ، بينما كان المذهب الملكانى هو مذهب الدولة الرومانية الرسمى .

(٣) ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص٦٨

(٤) جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ص٥

وكانت رغبة تولى أهل الذمة المناصب الحكومية من عوامل اجادتهم اللغة العربية (١)

ويرى المستشرق (بارتولد) (٢) ان غلبة اللغة العربية كان بالاختيار لا بسلطان الحكومة ،ويذكر ان تسامح العرب أدى الى انتشار اللغة العربية اذ ان العرب لم يعتمدوا على قوة السلاح كالجرمان والفرس والمغول .

فرضت اللغة العربية كتاباتها على الفرس وغيرهم ،وقضت نهائيا على الالف باء القديمة لهذه اللغات القديمة . فقد اقتبست اللغة الفارسية ، ثلث ألفاظها من اللغة العربية وأضافتها الى مجموعة كلماتها الهندو - أوروبية . (٣)

وأدت اقامة العرب فى المدن الاسلامية الجديدة فى الامصار المفتوحة الى امتزاجهم بأهالى البلاد وأهل الذمة ،فقد تعاونوا جميعا فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية ،ولم تكن عناصر الامصار المفتوحة غريبة على العرب الفاتحين ،كما ان فروقهم الدينية لم تقف حائلا فى سبيل تكوين مجتمع سرعان ما تكلم اللغة العربية واعتنق الاسلام . (٤)

---

(١) حتى : تاريخ العرب ج١ ص ٩
(٢) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٣٠
(٣) ديمومبين : النظم الاسلامية ص ١٢ - ١٣
(٤) المرجع السابق ص٩

والعاطفة الاجتماعية هى العنصر الدائم فى الشعور الدينى ، حتى ليمكن ان نعرف الكائن المتدين بأنه كائن محب للاجتماع ، ويرى (جان مارى جويو) (١) ان اختلاف الاديان انما يرجع خاصة الى اختلاف النماذج الاجتماعية التى يتصور الانسان الكون على مثلها ، وتتجلى الصفة الاجتماعية التى للدين فى العبادات التى بواسطتها يتصل الناس بآلهتهم مجتمعين .

اتبع المسلمون سياسة التعايش الدينى مما أدى الى السلام الاجتماعى ، وقد نص القرآن الكريم على وجوب الحرص على هذا التعايش ، وحرص الخلفاء على هذه الروح الطيبة . وقد حدثنا تاريخ عمر بن الخطاب بانه قد أوصى رجاله بان يعيشوا وابناء الديانات الاخرى وابناء الديانات الاخرى فى وئام وسلام ، وان ينظروا الى الانسانية نظرة مشاركة . كما أعطى عمر أهل بيت المقدس الامان العام للارواح والاموال ، وأباح الاسلام للمسلم الزواج من الذمية ، مع بقائها على عقيدتها . واحتفل أهل الذمة بأعيادهم فى جو من الحرية والتسامح ، وكان المسلمون يشاركون فى أعيادهم . (٢)

وصف المستشرق (ترتون) (٣) حياة أهل الذمة الاجتماعية فقال : وانا لنسمع عن الحياة التى كان الاقباط يحيونها فى بيوتهم من حيث الترف والاسراف ، وتقلبهم فى رفاهية من العيش واتساع الاموال وكثرة النفقات . ولقد ساهم الاقباط فى حياة المسلمين الاجتماعية واخذوا منها بنصيب .

---

(١) الدين ، منشأة وعلاقته بالمجتمع والحياة ص ٢ (ترجمة سامى الدروبى) .
(٢) الشابشتى : الديانات ص ٦٠ ، المقدسى : أحسن التقاسيم : ص ١٨٢
(٣) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ص ١٥٨

ويشيد المستشرق (آدم ميتز) (١) بتسامح المسلمين مع أهل الذمة ، مما لم يكن معروفا فى أوروبا ، مما أدى الى رقى الحضارة والعلم .

وفى كتاب (اهل الذمة فى الاسلام) للمستشرق (ترثون) نجد كثيرا من العبارات ، كلها تدل على ان أهل الذمة عاشوا حياة اجتماعية طيبة ، فى ظل التسامح الاسلامى . فقال : كان بعض الولاة شديد الحب للنصارى يظهرون لهم المودة البالغة . كما قال أيضا : وكانت معاملة الذميين تنطوى على ما يشير الى مساواتهم التامة بالمسلمين فى كافة الحقوق .

اشتهر الخوارج بالتسامح مع الذميين فأباحوا للذميين الجهر بدينهم . (٢) ولهذا ساعد اهل الذمة الخوارج فى حروبهم ضد الدولة الاموية .

كان على أهل الذمة طوال عهد الخلفاء الراشدين والامويين واجبات ، ولهم فى مقابلها حقوق ، أما الواجبات ، فكان على أهل الذمة ان يؤدوا الجزية ، مع تقديم الزيت والخل والطعام اللازم للمسلمين . (٣) وكان يشترط على أهل الذمة فى عقد الجزية شرطان ، أحدهما مستحق والاخر مستحب ، ويشمل هذا الشرط المستحق ستة امور يجب على أهل الذمة تحقيقها ، فيجب عليهم احترام القرآن والرسول وعدم القدح

---

(١) متيز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ١ ص ٥٧
(٢) ابو يوسف : الخراج ص٣٢
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص١٨٥

فى الاسلام ، و ألا يصيبوا مسلمة بزنا ولابنكاح ،وألا يحولوا مسلما عن دينه، وألا يعينوا أهل الحرب . اما الشرط المستحب فيشمل أيضا امورا ستة ،فعليهم لبس الغيار وشد الزنار ،وان تكون مبانيهم أقل ارتفاعا من مبانى المسلمين ،وألا يسمعوا المسلمين أصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم ،وعدم المجاهرة بشرب الخمر أو اظهار الصلبان والخنازير ،واخفاء دفن الموتى وعدم النواح عليهم ،وعدم ركوب الخيل مع السماح بركوب البغال والحمير. (١) وكان على أهل الذمة ألا يحدثوا بيعة أوكنيسة، ولكن يجوز بناء ماتهدم من بيعهم وكنائسهم القديمة (٢) كما كان على فلاحى أهل الذمة العناية بالطرق والجسور والاسواق والارشاد وضيافة ابناء السبيل . (٣)

أما الحقوق اهل الذمة فهى الكف عنهم والحماية لهم (٤) ، ولاهل العهد الامان على أرواحهم وأموالهم. (٥) وفى الحقيقة كانت معاملة المسلمين لاهل الذمة تنم عن تسامح وعطف وكرم. فقد كان أهل الذمة لايدفعون سوى عشر التجارة والجزية بينما هم معفون من الصدقات. (٦) وكانت الجزية تساوى ما يدفعه المسلم من صدقة (٧) كما كانت مقابل بقائهم على عقائدهم (٨) . وأعفى الصبيان والنساء والمساكين وذوو العاهات والرهبان من أداء الجزية . (٩)

---

(١) الماوردى : الاحكام السلطانية ص١٣٨ـ١٣٩
(٢) المصدر السابق ص١٤٠
(٣) الطبرى جـ٤ ص١٨٤
(٤) الماوردى : الاحكام السلطانية ص١٣٧
(٥) المصدر السابق ص١٣٩
(٦) ابن آدم : الخراج جـ١ ص١٠
(٧) الطبرى جـ٤ ص١٩٨
(٨) الماوردى : الاحكام السلطانية ص١٣٥
(٩) ابو يوسف : الخراج ص٦٩ـ٧٠

أحدث الحجاج بن يوسف الثقفى تغييرا كبيرا فى نظم الجزية أضرت كثيرا بالاسلام أولا ، وبأهل الذمة ثانيا . ولما كان عمر بن عبد العزيز قد تصدى لرفع الظلم ، ورد المظالم ، فقد كان عليه مواجهة نظم الحجاج الثقفى ، وتوضيح وضع أهل الذمة فى المجتمع الاسلامى .

والجزية ليست من مستحدثات الاسلام ، بل هى قديمة منذ فجر التاريخ .(١) ووضع الرومان الجزية على الامم التى اخضعوها ، وكانت نحو سبعة أضعاف الجزية التى فرضها المسلمون فيما بعد . كما جمع الفرس الجزية من رعاياهم .(٢)

يشبه المستشرق (آدم متيز)(٣) الجزية فى العصر الاسلامى بضريبة للدفاع الوطنى ، فكان لا يدفعها الا الرجل القادر على حمل السلاح ، ولا يدفعها ذوو العاهات ولا المترهبون وأهل الصوامع .

كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقدر الجزية على مقتضى التراضى الذى كان يقع بين المسلمين وأعدائهم . ومازالت الجزية بلا تعيين الى آخر عهد أبى بكر . فلما

---

(١) وضع (يونان أثينا) الجزية على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد ، مقابل حمايتهم من هجمات الفينيقيين .

(٢) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى جـ١ ص ٢٨٨

(٣) ميتز : الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ جـ١ ص ٧٨

تولى عمر بن الخطاب وضع نظاما ثابتا للجزية يتبعه الولاة فى سائر الامصار ،وليمنع اجتهاد الولاة . (١) فجعل عمر الجزية على الرجال ، على الموسر (٢) ثمانية واربعون درهما ،وعلى المتوسط الحال (٣) ، اربعة وعشرون درهما ،وعلى الفقير (٤) اثنا عشر درهما . (٥) وتدفع الجزية على أقساط شهرية.

وفى بعض البلاد المفتوحة كانت شروط الصلح تحدد مقدار الجزية مثلما حدث فى مصر حيث اتفق عمرو بن العاص مع الاقباط على أن يدفع الذمى دينارين سنويا . فأحيانا كانوا يقدرون الجزية باعتبار مايبقى فى أيدى الناس من دخلهم بعد نفقاتهم ،كما حدث فى بلاد العراق والجزيرة ،فقد حدد الفاتحون دينارا على كل رأس فلما تولى الخليفة عبد الملك بن مروان استقل ذلك فبعث الى عامله هناك فأحصى الناس ،وحسب مايكسب العامل سنته كلها ،وطرح من ذلك نفقته فى طعامه وأدمه وكسوته ،وطرح أيام الاعياد فى السنة كلها ،فوجد الذى يحصل بعد ذلك اربعة دنانير لكل واحد . (٦)

---

(١) الماوردى : الاحكام السلطانية ص١٣٨

(٢) الموسر هو صاحب الحرفة المربحة مثل الصيرفى والبزاز وصاحب الضيعة والتاجر والطبيب .

(٣) متوسط الحال هو الاقل كسبا عن الفئات السابقة.

(٤) الفقير : هو العامل بيده مثل الخياط والصباغ والاسكاف وما شابههم (ابو يوسف: الخراج ص٧٠).

(٥) ابو يوسف : الخراج ص٦٩.

(٦) الخربوطلى : الاسلام وأهل الذمة ص١٢٧

ادت سياسة الحجاج المالية الى استياء عام ،فقد كان أول من خالف القواعد الخاصة بالخراج والجزية بالنسبة لمن دخلوا حديثا فى الاسلام من غير العرب. ذلك ان اهل البلاد الاصليين كانوا يقيمون بالقرى للزرع والحرث ،فمن اعتنق منهم الاسلام رفعت الجزية عنه وكان بعد اسلامه يهجر القرية التى كان يعمل فيها كزارع ويهرع الى المدن ليلتحق بالجيش الاسلامى ويكتب فى سجل العطاء. وبديهى ان هذه الارض التى كانت تترك بعد ان رحل أصحابها عنها بعد اسلامهم تصبح خاضعة للظروف ،فقد يستأجرها الغير وقد تترك من غير زراعة ،واذا استأجرها الغير ففى الغالب مايكون الايجار الجديد أقل من القديم ،فينتج من ذلك قلة ايرادات هذه الاقاليم نتيجة اعتناق اهلها الاسلام.(١)

هال الحجاج هذا النقص فى الايرادات ،ففرض الجزية على المسلمين الجدد وألزمهم بالعودة الى قراهم.(٢) واعاد وضع الخراج على الارض التى أسلم أصحابها كما كان قبل اسلامهم. وقال لهم حينما امر باعادتهم الى قراهم: " انتم علوج وعجم وقراكم أولى بكم. ففرقهم وفض جمعهم كيف احب وسيرهم كيف شاء ونقش على يد كل رجل منهم أسم البلدة التى وجهه اليها ".(٣)

---

(١) الخربوطلى : تاريخ العراق ص ١٧١
(٢) الطبرى جـ٨ ص ٣٥
(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٣ ص ٤١٦

كتب عمر بن عبد العزيز الى عامله بالعراق عدى بن أرطأة يأمره بترك سياسة ونظم الحجاج (١) ، كما كتب الى عامل الكوفة ان الله بعث محمدا داعيا الى الاسلام ولم يبعثه جابيا ، وأمره برفع الجزية عمن أسلم . (٢) فقد آثر نصرة الاسلام على أى شىء آخر (٣) . وامر عمر بارجاع كل من أسلم الى قريته حتى يظل فى أرضه ويدفع الخراج كما كان اول الامر . (٤)

ولذا شهد عسهد عمر بن عبد العزيز حركة تحول الى الاسلام واسعة النطاق ، تحدث عنها المستشرق (توماس أرنولد) (٥) فقال : فقام عمر بتنظيم حركة ملؤها الحماسة فى نشر الدعوة ، وقدم للشعوب المحتلة كل لون من ألوان الاغراء لقبول الاسلام حتى يمنحهم هبات من الاموال . وقد قيل انه اعطى فى احد المناسبات بطريقا نصرانيا ألف دينار تألفه بها على الاسلام ، كما امر عمال الولايات الاسلامية بدعوة الذميين الى الاسلام حتى ان الجراح بن عبد الله والى خراسان أدخل فى الاسلام نحو من أربعة آلاف شخص . بل قيل ان عمر كتب الى ملك الروم (ليو) يدعوه الى الاسلام .

---

(١) ابن الجوزى : عمر بن عبد العزيز ص ٥٤
(٢) ابو يوسف : الخراج ص ١٥٧
(٣) دوزى : نظرات فى تاريخ الاسلام ص ٢٩٢
(٤) الطبرى جـ ٨ ص ١٣٩
(٥) ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ١٠٢

ثم يقول (توماس أرنولد) : ومع ذلك فلا ينبغى ان نفترض ان مثل هذه الاعتبارات المادية كانت هى المؤثرات الوحيدة الفعالة فى تحول المسيحيين الى الاسلام .

كتب عمر بن عبد العزيز الى أبى بكر بن محمد يأمره برفع الظلم عن المسلمين والذميين على السواء ، وأن يعيد اليهم ممتلكاتهم المغتصبة. (١)

ويذكر المستشرق (ترتون) (٢) ان الخليفة عبد الملك بن مروان عهد الى مسيحى بتعليم أخيه الصغير عبد العزيز بن مروان ، وهو والد الخليفة عمر بن عبد العزيز . وقد سمح عبد العزيز بن مروان حين أنشأ مدينة حلوان ببناء كنيسة فيها .

وعن موقف عمر من كنيسة دمشق ، روى البلاذرى (٣) : " لما ولى معاوية بن أبى سفيان أراد ان يزيد كنيسة يوحنا فى المسجد بدمشق ، فأبى النصارى ذلك فأمسك ، ثم طلبها عبد الملك بن مروان فى أيامه للزيارة فى المسجد وبذل مالا فأبوا ان يسلموها اليه ، ثم ان الوليد بن عبد الملك جمعهم فى أيامه وبذل لهم مالا عظيما على ان يعطوه اياها ، فقال لئن لم تفعلوا لاهدمنها ، فقال بعضهم : يا أمير المؤمنين ان من هدم كنيسة جن وأصابته عاهة . فأحفظه قوله ودعا بمعول وجعل يهدم بعض حيطانها بيده وعليه قباء خز أصفر ، ثم جمع الفعلة والنقاضين

(١) خواد ابخش : الحضارة الاسلامية (ترجمة الدكتور الخربوطلى) ص٢١
(٢) ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ص٤٥
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص١٣١ ، ١٣٢

فهدموها وأدخلها فى المسجد . فلما استخلف عمر بن عبد العزيز شكى النصارى اليه ما فعل الوليد بهم فى كنيستهم ، فكتب الى عامله يأمره برد مازاده فى المسجد عليهم فكره أهل دمشق ذلك فقالوا : نهدم مسجدنا بعد ان أذنا فيه وصلينا ويرد بيعة ؟ ومنهم يومئذ سليمان بن حبيب المحاربى وغيره من الفقهاء ، وأقبلوا على النصارى فسألوهم ان يعطوا جميع كنائس الغوطة التى أخذت عنوة وصارت فى أيدى المسلمين على ان يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها ، فرضوا بذلك واعجبهم ، فكتب به الى عمر فسره وأمضاه " .

ويعلق المؤرخ الهندى المسلم " خودابخش "(١) على موقف عمر بن عبد العزيز من كنيسة دمشق ، فيقول : ونستطيع ان نقول فى اطمئنان ان العرب لم ينتهجوا سياسة " انتزاع الملكية " ولم يستعملوا القوة فى الاقاليم التى يحكمونها طالما السياسة أجدى .

من المسائل التى تناولها المستشرقون بالنقد ، ما فرضه كل من الخليفتين عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز من قيود تتناول ملابس أهل الذمة وبعض المسائل الشكلية . وهم يعتمدون على ما ذكره كاتب واحد هو (أبو يوسف)(٢) . فأشار المستشرقون الى ان عمر بن الخطاب قد حدد انواع الملابس وطريقة ركوب اهل الذمة ،

---

(١) الحضارة الاسلامية (ترجمة الدكتور الخربوطلى) ص ١١٦

(٢) ابو يوسف : الخراج ص ٧٢ ـ ٧٣

فأشترط عليهم لبس الزنار ، ونهاهم عن التشبه بالمسلمين فى ثيابهم وسروجهم ونعالهم ، وامرهم أن يجعلوا فى أوساطهم الزنارات ، وأن تكون قلانسهم مضربة ، وأمر عمر أيضا بمنع نساء أهل الذمة من ركوب الرحائل . (١)

ونالت أقلام بعض المستشرقين من الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فوصفه (جولد تسيهر) بالخليفة المتعصب ، وذهب (وليم ميور) الى ان غيرة عمر على الاسلام هى التى دفعته الى اضطهاد النصارى واليهود ، فكتب عمر الى عدى بن أرطأة عامله على العراق : " مروا من كان على غير الاسلام ان يضعوا العمائم ، ويلبسوا الاكسية ، ولا يتشبهوا بشىء من الاسلام ، ولا تتركوا احدا من الكفار يستخدم أحدا من المسلمين " (٢) وكتب عمر رسالة أخرى جاء فيها : " لا يركب نصرانى سرجا ، ولا يلبس قباء ولا طيلسانا ولا سراويل ذات خدمة ، ولا يمشين بغير زنار من جلد ، ولا يمشى الا مفروق الناصية ، ولا يوجد فى بيت نصرانى سلاح الا أخذ " . (٣)

وأمر عمر بعزل أهل الذمة من وظائف الدولة ، كما امر عمر أهل الذمة بأن يفسحوا المجال للمسلمين فى الطرقات وأماكن الاجتماع وحتم عليهم ان يحملوا شعارا معينا على أكتافهم يكون لونه أزرق للمسيحيين وأصفر لليهود ، وأسود او احمر للمجوس ، ويجب ان تكون بيوتهم أقل ارتفاعا من بيوت المسلمين ، كما كان عمر يصر على التحاق الذميين بالجيوش الاسلامية .

---

(١) الخربوطلى : الاسلام وأهل الذمة ص ٨٤
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٤ ص ٤٣٦٧
(٣) ابن الجوزى : عمر بن عبد العزيز ص ٦٣

هذه هى المسائل التى سلط المستشرقون الاضواء عليها للاساءة الى الخليفتين العادلين ، عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ، وقد استند المستشرقون فى هذه الامور الى كتاب واحد هو كتاب (الخراج) لابى يوسف ، ولكننا لا نجد مثل هذه الاوامر والنواهى فى كتب المؤرخين الاقدمين الموثوق بهم مثل الطبرى أو البلاذرى أو اليعقوبى او ابن الاثير وغيرهم ، ونجد عهود عمر فى كتب هؤلاء المؤرخين القدامى خلوا من هذه الشروط وهذا التحديد للملابس ، مما يهدم كل ما ذهب اليه المستشرقون . (١)

وقد ناقش المستشرق (ترتون) (٢) هذه المسألة فقال : من الشروط التى اشترطها عهد عمر على الذميين لبس الزنار والنهى عن التشبه بالمسلمين فى ثيابهم وسروجهم التى يستعملونها ، وينسب أبو يوسف (المتوفى سنة ١٨٢ هـ) هذه الاوامر الى عمر بن الخطاب ، على حين ان ابن الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ يقرن الخليفة أمر النصارى بلبس (المنطقة) وجز مقادم شعورهم . أما العهود الواردة فى الطبرى والبلاذرى فقد خلت من الاشارة الى الملابس ، واذا ذهبنا الى ما يذهب اليه المستشرق الايطالى (كايتانى) من أن هذه العهود قد وضعت فيما بعد ، كما هو العهد ازاء العهد لبيت المقدس فان خلو هذه العهود من الاشارة الى الملابس يدفع الانسان للشك القوى فى حقيقة اصدار عمر لهذه الاوامر .

---

(١) الخربوطلى : الاسلام وأهل الذمة ص ٨٥

(٢) ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ص ١٢٣

ولو افترضنا جدلا حقيقة هذه الاوامر الصادرة عن الخليفتين ،فقد كان هـــذا لاغبار عليه ،فهو نوع من التحديد للملابس فى نطاق الحياة الاجتماعية ،للتمييز بين أصحاب الاديان المختلفة ،وخاصة أننا فى وقت مبكر من التاريخ ، ليس فيه بطاقات تثبت الشخصية ،وما تحمله عادة مثل هذه البطاقات من تحديد الجنسية والدين والعمر وغير ذلك. فقد كانت الملابس المتميزة هى الوسيلة الوحيدة لاثبات دين كل من يرتديها وكان للعرب المسلمين ملابسهم ،كما كان للنصارى أو لليهود أو المجوس ملابسهم أيضا واذا كان المستشرقون قد اعتبروا ان تحديد شكل ولون الثياب هو من مظاهر الاضطهاد فنحن نقول لهم ان الاضطهاد فى هذه الصورة يكون قد لحق بالمسلمين وأهل الذمة على السواء . واذا كان الخلفاء ينصحون العرب والمسلمين بألا يتشبهوا بغيرهم فمن المنطق ان يأمروا غير العرب وغير المسلمين بألا يتشبهوا بالعرب المسلمين.(١)

وفى هذه القضية يقول المستشرق (ترتون)(٢) ايضا ، فقال : كان الفرض من القواعد المتعلقة بالملابس سهولة التمييز بين النصارى والعرب ،وهذا امر لا يرقى اليه الشك ،بل نراه مقررا تقريرا أكيدا عند كل من أبى يوسف(٣) وابن عبد الحكم(٤) ، وهما من أقدم الكتاب الذين وصلت كتبهم الينا ،على انه يجب ان نلاحظ انه لم تكن ثمة ضرورة وقت الفتح لالزام النصارى بلبس نوع معين من الثياب يخالف ما يلبسه المسلمون ،

---

(١) الخربوطلى : الاسلام وأهل الذمة ص ٨٦
(٢) ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ص ١٣٣
(٣) أبو يوسف : الخراج ص ٧٢
(٤) ابن عبد الحكم :فتوح مصر ص ١٥١

اذ كان لكل من الفريقين وقتذاك ثيابه الخاصة ، وكان النصارى يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم دون جبر أو الزام ، على أن الحاجة استلزمت هذه الفروق فيما بعد حين اخذ العرب بحظ من التمدن ، اذ حمل الاغراء الشعوب الخاضعة لهم على الاقتداء بهم فى ملابسهم والتشبه فى ثيابهم .

ونجد فى المصادر التاريخية كثيرا من رسائل عمر بن عبد العزيز تحث ولاته على الرفق بأهل الذمة وحسن معاملتهم . فقد كتب الى زيد بن عبد الرحمن عامله على الكوفة ان يكف عن ارهاق اهل الذمة ، فاستجاب لامر الخليفة ، كما كتب عمر الى عبد الرحمن بن يعلم : لاتهدوا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه .(١) وخفف عمر من أعباء الجزية المفروضة على النصارى فى قبرص وأيلة (٢) ، وفى نجران فى جنوب الجزيرة العربية .(٣) وكان من أبرز اسباب عزل اسامة بن زيد عن خراج مصر ارهاقه لاقباطها ، وقد كتب عمر الى زريق بن حيان يأمره بالرفق بالاقباط .(٤) وحينما حاور الخوارج عمر بن عبد العزيز طالبوه بتخريب الكنائس ، فرفض عمر رفضا باتا ، وقال : هى من صلاح رعيتى .(٥)

---

(١) الطبرى جـ٨ ص ٣٥ ، ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص١٦٤

(٢) أيله : العقبة الان — وتسميها اسرائيل (ايلات) .

(٣) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ١ ص ١٨١

(٤) أبو يوسف : الخراج ص١٢٧

(٥) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص١٧٤

روى ابن الجوزى (١) رواية تذهب الى أن عمر عندما مرض أرسل الى أحد النصارى وساومه حول شراء موضع قبره ،فأجابه النصرانى : " والله يا أمير المؤمنين انى لاتبرك بقربك وبجوارك ،فقد احللتك من الثمن " . وأبى عمر الا أن يدفع . وذكر ابن الجوزى رواية ثانية تذهب الى أن عمر بعث بدينارين الى أصحاب أحد الاديرة ،قائلا لهم : ان بعتمونى موضع قبرى والا تحولت عنكم . فأجابوه : لولا أنا نكره أن تتحول عنا ماقبلناه . وذكر الامام الاوزاعى انه مر بقنسرين أثر تشييع عمر فسأله أحد الرهبان : أشهدت وفاة هذا الرجل ؟ فأجابه : نعم ،فأرخى الراهب عينيه تبكيان . فقال له الامام : مايبكيك ولست من أهل دينه ؟ فأجاب الراهب ،والدموع تسيل على خديه وتبلل لحيته الكثيفة : انى لست عليه أبكى ،ولكن أبكى على نور كان فى الارض فطفىء . (٢) ويذكر ابن الجوزى (٣) أن بعض الرهبان كانوا يسمون قبر عمر (قبر الصديق) .

---

(١) ابن الجوزى ص٢٨٢
(٢) المصدر السابق ص٢٨٩
(٣) المصدر السابق ص٢٩٠

الباب الثالث

الاصلاحات الاقتصادية

١- الحرص على المال العام

٢- سياسة التقشف الاقتصادى

٣- عدالة الضرائب والنظم المالية، وحرية التجارة .

٤- نظم الخراج وملكية الاراضى .

١ ـ الحرص على المال العام

وضع عمر بن عبد العزيز سياسة جديدة لم يشهدها العهد الاموى منذ قيامه ، وهى سياسة الحرص على المال العام ، فأعاد بذلك الى الحقيقة والواقع سيرة الخلفاء الراشدين ، وخاصة جده عمر بن الخطاب .

وكان عمر بن عبد العزيز فى شبابه أميرا أمويا ، ينهج نهجهم فى حياة الترف والرفاهية حتى اذا تولى الخلافة حذا حذو جده عمر بن الخطاب ، فى عدله وحزمه ، وفى حرصه على المال العام ، باعتباره مال المسلمين .

وثارت دهشة الامويين حين رأوا خليفة يخالف العرف والمتبع ، ويحجب عنهم بيت مال الدولة الذى كانوا يغترفون منه مايشاءون . وكان عمر قد بدأ بنفسه ثم بأهل بيته ، ثم برجال بلاطه ، طارحا شعار " انه لينبغى ان لاأبدأ بأول من نفسى ". (١) ثم تمتد هذه السياسة الى جميع اجهزة الدولة ، المالية والادارية . وان كان عمر قد نجح فى التجرد الذاتى ، وتغلب على نفسه ، الا ان الطريق امام كسر شوكة الامراء الامويين لم يكن ـ كما رأينا ـ سهلا ميسورا . أما اجهزة الدولة ، فقد قام عمر بحركة تطهير واسعة لتخليص الحكومة الاموية من عوامل الفساد المتراكمة عبر الدهور ، وبدأ يبحث عن خامات ايمانية وطاقات مخلصة .

---

(١) ابن الجوزى ص ١١١

وهكذا لم تكن اتجاهات عمر مقتصرة على ذاته ، كما يفعل كثير من الزهـــاد ، بل كانت سياسة عامة كان يريد ان يطبقها تطبيقا دقيقا على الدولة ورجالها ، فكان يطلب منهم ويعزم عليهم ان يكون متورعين فى أموال المسلمين ، لا ينفقون منها الا القدر اللازم ، وان يكونوا أشحة على أنفسهم ، اسخياء على المسلمين ، وكان حريصا على ان يوفر علـــى المسلمين أموالهم ، ويعتقد ان الدرهم دم فلا يجوز ان يجرى فى غير عروقهم ، ولا يرى ان يضيع فى الكماليات والشكليات.(١)

وأطلق عمر شعارا جديدا هو " الدراهم دم فلا يجوز ان يجرى فى غير عروقهم "(٢) وهو شعار الخليفة العادل ، ويمثل تقييما لكدح الامة ، وحرصا من عمر على ألا يعود الا اليها . ولذا رأى ان يبدأ بالاقربين من بنى أمية ، أولئك الذين استنزفوا الكثير مـــن اموال الدولة لحسابهم الخاص ، وتشهد الايام الاولى من خلافة عمر تجديدا واســـع انطاق لكثير من أموال وأملاك بنى أمية ، ظلت تنمو فى الماضى وتتضخم لكونهم الحــزب الحاكم فحسب ، وها هى الان ترد الى بيت مال المسلمين لكى يأخذ العدل مجـراه ، وتعود اموال المسلمين الى المسلمين ، لا يستأثر بها احد دون أحد ، وهى أمــوال واملاك من شتى الصنوع والانواع ، جمعت بمختلف الطرق وسائر الاساليب ، فجرد عمر بنى امية منها ، ومزق عمر مستنداتها ، وردها الى مكانها الصحيح : مظالم وجوائز وهدايــا ومخصصات استثنائية وضياع وقطائع ، جمعت كلها على شكل ممتلكات ثابتة ونقود سائلة ، بلغت فى تقدير عمر شطرا كبيرا من أموال الامة جاوزت النصف.(٣)

(١) ابو الحسن على الحسنى الندوى : رجال الفكر والدعوة فى الاسلام ص٤٣
(٢) ابن الجوزى ص١١٤
(٣) عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب الاسلامى ص١١٦

وعارض الامويون سياسة عمر معارضة شديدة ، فواجههم فى حزم وحسم ، وقال :
" والله لوددت أن لا تبقى فى الارض مظلمة الا وردتها ، على شرط ألا أرد مظلمة الا سقط لها عضو من أعضائى أجد ألمه ، ثم يعود كما كان حيا ، فاذا لم يبق مظلمة رددتها سألت نفسى عندها ". (١)

ويكتب أمير أموى الى عمر رسالة شديدة اللهجة معبرا عن سخط سائر الامراء الامويين ، فيرد عمر عليه برسالة أكثر عنفا ، يقول فيها : " ... ويلك وويل أبيك ، ما أكثر طلابكما وخصمائكما يوم القيامة ... رويدك فانه لو طالت بى حياة ، ورد الله الحق الى أهله ، تفرغت لك ولاهل بيتك ، فأقمتكم على المحجة البيضاء .. فطالما تركتم الحق وراءكم ، ومما وراء هذا ما ارجوان يكون خير رأى أبعه : بيع رقبتك فان لكل مسلم فيك سهما فى كتاب الله ". (٢)

ورأى الامويون ان يدخلوا فى حوار مع عمر ، يستثيرون عطفه عليهم ، ويذكروه بأواصر القرابة وصلة الرحم ، فأصم أذنيه عن توسلاتهم ، وقال فى حزم : يتسع مالى لكم واما هذا المال — أى المال العام — فحقكم فيه كحق رجل باقصى برك الغماد ، فلا يمنعه من أخذه الا بعد مكانه ، والله انى لارى ان الامور لو استحالت حتى يصبح أهل الارض يرون مثل رأيكم لنزلت بهم بائقة من عذاب الله. (٣)

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٤٧
(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٥١
(٣) ابن الجوزى ص ١١٥

ورأى الامويون ان معارضتهم الجماعية لسياسة عمر لا جدوى منها ، ازاء اصرار عمر وحزمه ، وبدأت جهود فردية ، وكل أموى منهم يحاول استرداد مايستطيع من أموال أعادها عمر الى بيت المال ، أو حجبها عن الامويين اذ لايستحقوها قانونيا .

ضرب عمر بن عبد العزيز المثل الاعلى فى الحرص على مال الدولة ، والسهر على حقوقها ، وخير مقياس تقيس به أمانة الحاكم وعدالته ونزاهته واستقامته ، هو ان نقارن بين حاله قبل الحكم وحاله فى أثنائه . وكان عمر قبل الخلافة يتقلب فى مطارف العز ، حتى اذا تولى الخلافة افتقر بعد غنى ، ويوم مات لم يترك الا دنانيرا قليلة . (١) وترك من الغلة غلة ستمائة دينار ، وترك من أولاده الذكور اثنى عشر ولدا ، ومن بناته ست بنات . (٢)

وحمل عمر الخلفاء الامويين السابقة مسئولية ما أقدم عليه ولاتهم من الاضرار بأموال الدولة . فقد كتب أمير أموى ، هو عمر بن الوليد بن عبد الملك ، رسالة جافة تعدى فيها حدود اللياقة ، فاستشاط عمر غضبا ، وقال " ان لله على من بنى مروان يوما يكون ذبحا ، وايم الله لئن كان ذلك الذبح على يدى ". (٣)

(١) ٢١ او ٢٤ دينارا
(٢) الشرباصى : خامس الراشدين ص ٩١
(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٤ ص ٤٣٧

نظر عمر بن الوليد الى سياسة عمر فى الحرص على المال العام نظرة شخصية سطحية ، فقد رأى ان منهج عمر يهدد ما كان الامويون ينعمون به من ترف ورفاهية ، فقد كتب عمر بن الوليد : " انك أزريت على ماكان قبلك من الخلفاء ، وعبت عليهم وسرت بغير سيرتهم وشنئا لمن بعدهم من أولادهم ، قطعت ما أمر الله به أن يوصل ، اذ عمدت الى اموال قريش ومواريثهم فأدخلتها فى بيت المال جورا وعدوانا ، ولن تترك على هذا ".

وكان عمر بن الوليد ابنا لجارية تدعى بنانة من قبيلة السكون ، التى كانت ترتزق من الطواف بالاسواق ، فكتب عمر بن عبد العزيز ردا حازما على رسالة عمر بن الوليد وضح فيها مساوئ أبيه وولاته ، فقال : " اما بعد ، فانه بلغنى كتابك ، وسأجيبك بخير منه . أما اول شأنك يا بن الوليد — كما تزعم — فأمك بنانة أمة السكون ، وأمك صناجة ، كانت تطوف فى سوق حمص وتدور فى حموانيتها ، ثم الله أعلم بها ، اشتراها ذبيان من أموال المسلمين فأهداها لابيك فحملت بك فبئس المحمول والمولود . ثم نشأت فكنت جبارا عنيدا .

" وتزعم أنى من الظالمين لما حرمتك وأهل بيتك فىء الله عز وجل الذى فيه حق القرابة والارامل والمساكين ، وان اظلم منى وأترك لعهد الله من استعملك صبيا سفيها على جند من جنود المسلمين تحكم فيها برأيك ، ولم تكن له فى ذلك نية الا حب الوالد لولده ، فويل لك ، وويل لابيك ، ما أكثر خصماءكما يوم القيامة ، وكيف ينجو أبوك من خصمائه ؟ .

" وان اظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل الحجاج بن يوسف يسفك الدم الحرام ويأخذ المال الحرام ، وان اظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل قرة ابن شريك ـ أعرابيا جلفا ـ على مصر ،وأذن له فى المعازف واللهو والشراب . وان اظلم منى وأترك لعهد الله من جعل لعالية البربرية سهما فى خمس العرب. . . "(١)

وكان من بين الامويين نفر قليل ،لديهم من الوازع الدينى مايجعلهم يؤيدون سياسة عمر ،مثل مسلمة بن عبد الملك ،وسعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان. وقد رأى الاخير ضرورة السير فى طريق اقرار الحق والعدل ،ولكن بغير طريق رجعى. فقال لعمر : " يا امير المؤمنين امض لرأيك فيما وليت بالحق والعدل ،وخل عمن سبقك وعما ولى خيره وشره. . فانك مكتف بذلك ".

فقال له عمر :"أنشدك الله الذى اليه نعود ،أرأيت لو أن رجلا هلك وترك بنين صغارا وكبارا فعز الاكابر الاصاغر بقوتهم ،فأكلوا اموالهم ،فأدرك الاصاغر ،فجاءوك بهم ،وبما صنعوا فى اموالهم. . . وما كنت صانعا ؟ ".

فأجاب سعيد : " كنت أرد عليهم حقوقهم حتى يستوفوها ". فقال عمر : "فانى وجدت كثيرا ممن قبلى من الولاة عزوا الناس بقوتهم وسلطانهم ،وعزهم بها اتباعهم فلما وليت أتونى بذلك فلم يسعنى الا الرد على الضعيف من القوى ،وعلى المستضعف

---

(١) ابن الجوزى : صفوة الصفوة ،جـ٢ ص ٥٩ ومابعدها .

من الشريف ". واقتنع سعيد بحجة عمر ، فقال " وفقك اله يا أمير المؤمنين ". (١)

وروى عبدالله بن دينار : " لم يرتزق عمر من بيت مال المسلمين شيئا ، ولم يرزأه حتى مات ". وروى ميمون بن مهران : " ما زلت أنا وعمر بن عبدالعزيز ننظر فى أمور الناس ، حتى قلت : يا امير المؤمنين ، ما بال هذه الطوامير التى يكتب فيها بالقلم الجليل ، ويمد فيها وهى من بيت مال المسلمين ؟ ... فكتب ـ عمر ـ الى العمال ألا يكتبن فى طومار ، ولا يمد فيه ، فكانت الكتب شبرا أو نحو ذلك ". (٢)

وتسبب الفقيه التقى وهب بن منبه فى ضياع بعض الدنانير من بيت المال ، ورغم ثقة عمر بن عبدالعزيز المطلقة فى أمانته ، الا أنه كتب اليه : " انى لا أتهم دينك ولا أمانتك ، ولكنى أتهم تضييعك وتفريطك ، وانا حجيج المسلمين فى أموالهم ". وأمر عمر برد الدنانير المفقودة الى بيت المال ، فردها وهب من أمواله الخاصة. (٣)

جاء عمر وهو يرى قرة عيون الخلفاء فى ثلاث : ان يستفيض الامن فيغمر البلدان ، لا تنصرف قطرة ماء الا لمكانها ، ولا تشرد شاه فتضيع فى يد سارق أو فى انياب ذئب وان تظهر المودة من الرعية لراعيها ، ولا يكون ذلك الا اذا ادى الراعى حقها قبل

---

(١) ابن عبدالحكم : سيرة عمر بن عبدالعزيز ص٦٣
(٢) ابن الجوزى ص٧١
(٣) ابن الجوزى ص٨٥

ان تؤدى حقه ، وتحس بالسعادة تصل الى أبوابها دون قلق أو شكوى . وفى هذه الثلاثة : الامن ، ومودة الرعية ، والثناء على الراعى ، قرة عيون الخلفاء .(١)

وكان عمر يحذر الحذر كله ان يأخذ شيئا من بيت المال ، او يختلط بماله شىء منه ، أو ينتفع بأمر من أمور المسلمين لا حق له فيه . بعث عمارة بن نسى مع أبى شيبان سلتين من الرطب — اول ما ظهر الرطب — الى عمر . ولكن أبا شيبان حملها على دواب البريد . فلما علم عمر بذلك ، رفض ان يأكل منها ، وكلفه ان يبيعها . فباعها ابو شيبان لرجل من بنى مروان بثمانية عشر درهما ، أودعها بيت المال .(٢)

وتتوالى الروايات فى المصادر التاريخية ، وهى كثيرة ، وكلها تصور حرص عمر على المال العام . فكان عمر يقسم تفاحا من تفاح الفىء ، فجاء ابن صغير له فأخذ تفاحة ، فانتزعها عمر من فمه ، فآلمه انتزاعها ، وذهب الى أمه باكيا ، فأرسلت الى السوق تشترى له تفاحا . فلما رجع عمر شم رائحة التفاح ، فسأل : " يا فاطمة ، هل أتيت شيئا من هذا الفىء ؟ " . فأجابت بالنفى . فقال عمر : " والله لقد انتزعتها من أبنى ، وكأنما انتزعتها من قلبى .. لكنى كرهت أن أضيع نفسى مع الله عز وجل بتفاحة من فىء المسلمين .. ".(٣)

---

(١) سيد الأهل : الخليفة الزاهد ص١٥١
(٢) الشرباصى : خامس الراشدين ص٩٦
(٣) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص٥٠

وحدث مرة ان مولى من موالى عمر حمل رجلا على خيل البريد بغير اذنه ،فدعاه عمر ولامه ،وقال له : لاتبرح حتى تقومه وتضعه فى بيت المال (١).

كان عمر بن عبد العزيز كالنجم الذى لمع فجأة ثم أنطفأ ، فلم يستمر هذا العهد الذهبى غير نحو ثلاثين شهرا . وقد كانت نهاية حياة عمر ،نتيجة تلك السياسة الحازمة التى اتبعها نحو الامراء الامويين وانصارهم . فتذكر بعض الروايات ان عمر مات مسموما فى دير سمعان ،حيث قضى عشرين يوما يشكو آثار السم (٢). وتذكر بعض الروايات أيضا ان الذى دس له السم هو خادم يزيد بن عبد الملك ،وقد اعترف الخادم بذلك. والمؤرخان ابن كثير (٣) والسيوطى (٤) يؤكدان ان قصة موت عمر بالسم . وينسب السيوطى هذا الاغتيال الى سخط الامويين على عمر لسياسته نحوهم فى مصادرة أموالهم وأملاكهم التى أخذوها من قبل بغير حق. ومن الطريف ان عمر ظل حتى اللحظة الاخيرة من حياته حريصا على أموال الدولة فيروى السيوطى ان عمر دعا الغلام الذى دس له السم ، وسأله عما حمله على ذلك ،فأجاب الغلام : ألف دينار أعطيتها ،وأن اعتق . فأخذ عمر منه الدنانير الالف وردها الى بيت المال وعفا عن الغلام. (٥)

---

(١) ابو يوسف : الخراج ص ١٨٥
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج٤ ص ٤٤٠
(٣) البداية والنهاية ج٩ ص ٨٨ او مابعدها
(٤) تاريخ الخلفاء ص ١٦٣
(٥) المصدر السابق.

وخير من يحكم على شخصية عمر وصفاته ،زوجته فاطمة بنت عبد الملك ،فروى أبو يوسف ، (١) : " لما استخلف عمر بن عبد العزيز مكث شهرين مقبلا على حزنه لما ابتلى به من أمور الناس ، ثم أخذ فى النظر فى امورهم ورد المظالم الى أهلها حتى كان همه بالناس أشد من همه بأمر نفسه ،فعمل بذلك حتى انقضى أجله رحمه الله تعالى ، فلما هلك جاء الفقهاء الى زوجته يعزونها ويذكرون عظم المصيبة التى اصيب بها أهل الاسلام لموته.

" فقالوا لها أخبرينا عنه ،فان أعلم الناس بالرجل أهله ،فقالت : والله ماكان بأكثركم صلاة ولا صياما ،ولكن والله ما رأيت عبد الله كان أشدا خوفا لله من عمر. كان رحمه الله قد فرغ بدنه ونفسه للناس ،فكان يقعد لحوائجهم يومه ،فاذا أمسى ـ وعليه بقية من حوائجهم ـ وصلة بليلته . فأمسى يوما وقد فرغ من حوائجهم ،فدعا بمصباح قد كان يستصبح به من ماله ،ثم صلى ركعتين ثم أقعى واضعا يده تحت ذقنه تسيل دموعه على خده ،فلم يزل كذلك حتى يرق الفجر فأصبح صائما .

"فقلت له : يا أمير المؤمنين ،لشىء ما كان منك ما رأيت الليلة ؟ قال :أجل، انى قد وجدتنى وليت أمر هذه الامة أسودها واحمرها فذكرت القريب القانع الضائع،

---

(١) ابو يوسف : الخراج ص١٧ ـ ١٨

والفقير المحتاج ، والاسير المقهور ، واشباههم فى اطراف الارض ، فعلمت ان الله تعالى سائلنى عنهم ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم حجيجى فيهم ، فخفت ان لايثبت لى عند الله عذر ، ولا يقوم لى مع محمد صلى الله عليه وسلم حجة ، فخفت على نفسى ، ووالله ان كان عمرليكون فى المكان الذى ينتهى اليه سرور الرجل مع أهله فيذكر الشىء من أمر الله فيضطرب كما يضطرب العصفور قد وقع فى الماء . ثم يرتفع بكاؤه حتى أطرح اللحاف عنى وعنه ، رحمة له . ثم قالت : والله لوددت لو كان بيننا وبين هذه الامارة بعد مابين المشرقين ".

٢ — سياسة التقشف الاقتصادى

علم عمر بن عبد العزيز الناس جميعا كيف يكون (الايمان) دافعا حضاريا فهو الذى يشد القيم المبعثرة ، والارادات المختلفة الاتجاهات ، ويحدد الاهداف ، ويضع لها الاطارات ، مما يدفع الانسان والجماعات ، فى نطاق الحضارة الواحدة ، الى التقدم نحو آفاق جديدة ، ونحو مكاسب اقتصادية ، عن طريق استغلال امكانيات الزمان والمكان الى أقصى مدى ممكن.

وقد أحدث عمر انقلابا فى حياة العالم الاسلامى ، فى فترة قصيرة ، فى جميع ميادين العمل : السياسة ، والاجتماع ، والاقتصاد ، والادارة ، والحرب ، والتربية. وواجه الانقلاب ركام عقود طويلة من السنين ، كانت قد انحرفت — قبل عمر — بكثير من المفاهيم والقيم والمبادىء الاسلامية. وأحدثت تباعدا بين عقيدة الاسلام وشريعته وبين واقع الناس — فوجد عمر بين الشريعة والواقع ، وجعل اجهزة الدولة تعيش فى الاطارات التى رسمها القرآن والسنة . وأصبح برنامج عمر هو البرنامج الاسلامى.(١)

وكان لابد بعد فترات الاسراف التى شهدها العصر الاموى ، قبل خلافة عمر بن عبد العزيز ، من رد فعل ، فتبدأ فترة تقشف اقتصادى ، تحفظ اموال الدولة من

---

(١) عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب الاسلامى ص ٢٠١

الضياع ،لتنفق فى مشروعات اصلاحية ،وقد اعلن عمر هذه السياسة منذ اللحظة الاولى لتوليته الخلافة ،حين رفض امتطاء الخيول المطهمة ،وأمر بحل السرادقات الفخمة المفروشة بالسجاجيد الفاخرة ، وأمر بضم أثمانها الى خزانة الدولة. (١)

وظهر عمر للناس لاول مرة بثوب بسيط ثمنه ثمانية دراهم. وباع كل ماعنده من متاع ودواب ولباس وعطور ،ودفع بالاموال الى بيت المال. (٢)

وبدأ عمر سياسة التشقف فى بيته ،فضيق على زوجته واولاده. فقد ضم حلى الزوجة الى بيت المال. (٣) وأرسلت ابنة لعمر بلؤلؤة وطلبت من أبيها لؤلؤة مثلها لتجعل منهما قرطا تضعه فى اذنها ،فأرسل لها بجمرتين وقال لها : ان استطعت ان تجعلى هاتين الجمرتين فى أذنيك بعثت اليك بأخت لها. (٤) وضاق بعض خدم عمر بتقشفه ،فقد سأل عمر غلامه (درهم) : مايقول الناس يادرهم ؟ فأجاب : ومايقولون؟ الناس كلهم بخير ،وأنا وأنت بشر. فقال عمر : وكيف ذلك ؟ فقال درهم : انى عهدتك قبل الخلافة عطرا لباسا فاره المركب طيب الطعام ، فلما وليت رجوت ان أستريح وأتخلى فزاد عملى شدة ،وصرت أنت فى بلاء. فقال عمر : فأنت حر ، فاذهب عنى ودعنى وما أنا فيه حتى يجعل الله لى منه فرجا. (٥)

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص١٦٨
(٢) ابن الجوزى ص٩٨
(٣) ابن عبد الحكم ص٦١
(٤) المصدر السابق ص١٦٢
(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٤ ص٤٣٥

وقد يعجب القارئ للمصادر التاريخية بحثا عن سيرة عمر بن عبد العزيز ، حين يرى أخبارا كثارا تدل على جوده وكرمه وسخائه ، وأخبارا اخرى عديدة تدل على اقتصاده وتقتيره وتشدده .. وربما عز على القارئ ان يهضم هذه الروايات كلها التى تبدو كالمتناقضة ، وربما تعجل فوصف الخليفة العادل بأنه من أصحاب الشخصية المزدوجة . ولكن المتتبع لسيرة عمر ، يستطيع ان يجمع بين هذه الروايات التاريخية فى نظام ، دون ان يجد خلالها تنافرا أو تناقضا ، أو ازدواجا فى شخصية عمر .

كان تشدد عمر على نفسه وبيته ، ولم يتجاوزه غالبا الى غيره . فبينما نراه آخذا نفسه وأسرته بالتقشف والزهد ، نراه يرفق بالرعية ، ويوسع لها ، ويحمل اليها حقوقها فى امانة واحسان . واذا كان يراجع ، أو يحاسب ، أو يعاقب على اسراف ، فلم يكن ذلك منه شحا ، ولكنها شريعة القصد التى دعا اليها الاسلام فى الغنى والفقر ، واسلوب العدل .

ومن الضرورى التفرقة مابين الاقتصاد والبخل ، فالاقتصاد تدبير وتوفير ، والبخل شح وتقتير ، والاقتصاد عدل وانصاف ، والبخل ظلم واعتساف . ويظهر الاقتصاد بصورة أوضح اذا لم يكن فى المال الشخصى ، بل فى مال الغير . واذا كان المرء فى ماله كريما جوادا ، وفى مال الناس مقتصدا مدبرا . وكذلك كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه .(١)

---

(١) الشرباصى : خامس الراشدين ص ١٤٤

ولم ير عمر من وظيفة بيت المال ان يحفظ الدنانير حتى تتجمد فيه ، بل رأى انه لاضرورة لان تختزن فيه شيء اذا كانت حاجات الرعية تستنفذ المال كله. ولذا رفض عمر مايسميه الناس اليوم بالمال الاحتياطى ، ورأى ان يوظف المال كله فى منافع الناس ، وقد أقلق العمال وأصحاب بيوت المال الخليفة عمر ، وأقلقهم ، هم كانوا يرون أنه لابد من مال يخزن وهو يرى أنه لايخزن شيء.

كتب أحد عمال عمر اليه يقول : انك اضررت بيت المال . فكتب اليه عمر : اعط مافيه ، فاذا لم يبق شيء فاملأه وحلا (١)..

ولم يكن عمر يدعو الناس الى الاسراف ، فالاسراف أمر غير قضاء حاجات ذوى الحقوق اما العمال فكانوا هم المسرفون ، فكانوا يفرقون مايجمع فى التافه والرخيص ، فرأى عمر ان يقتصدوا فى الانفاق حتى لايضيق ذرعا بحاجات الناس (٢).

ولم يكن عمر مقترا على عماله وولاته ، بل رفع أجورهم الى ثلاثمائة دينار سنويا ليحقق لهم الكفاية ويغنيهم عن الخيانة (٣) ، بينما فرض لنفسه درهمين يوميا لنفقته الخاصة.

لم يكتف عمر بفرض سياسة التقشف على عماله وموظفيه ، بل اتخاذ اجراءات عديدة كضمانات عملية ، لالزام الموظفين حدود وظائفهم كخدام مسئولين أمام الخليفة والامة ،

---

(١) ابن الجوزى ص٨٥
(٢) سيد الاهل : الخليفة الزاهد ص١٥٥
(٣) ابن عبد الحكم ص٤٦

وعدم استغلال مراكزهم لكل من شأنه ان يحقق مصلحة مالية خاصة ويلحق بالامة ظلما واستغلالا .

وأوقف عمر بشكل جاد أعمال الابتزاز التى كان يتعرض لها بيت مال المسلمين ابتداء من الخليفة وحتى صغار الجباة ،وما بين هذين من حشد هائل من العمال والموظفين. أما الان فقد غدا بيت المال ،سواء فى المركز او فى الولايات ،محاطا بأيد امينة لتحرسه وتسهر عليه ،وتقطع أيدى المختلسين. وهذا الحرص ،وهذه الحماية نجحت فى تحقيق الموازنة بين ايرادات الدولة ومصروفاتها .(١)

ولم تؤد سياسة التقشف الى فقر أو ضنك ،بل أدت الى توفير الاموال لسد حاجات الشعب، حتى لم يعد هناك من يستحق الزكاة أو يقبلها ،وتولدت مشكلة جديدة للاغنياء وأصحاب الاموال : أين يخرجون زكاتهم ؟.(٢)

قال يحيى بن سعيد عامل الصدقات فى افريقية : "بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات افريقية فاقتضيتها وطلبت فقراء لهم فلم نجد بها فقيرا ،ولم نجد من يأخذها منى ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ،فاشتريت بها رقابا فأعتقتهم ، وولاؤهم للمسلمين".(٣)

---

(١) عماد الدين خلال : ملامح الانقلاب الاسلامى ص١٣٩
(٢) الندوى : رجال الفكر والدعوة ص٤٤
(٣) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص٦٩.

ونهى عمر من الاسراف فى كل الامور ،صغيرها قبل كبيرها . فأصل النار من مستصغر الشرر ، فقد كتب عمر الى عدى بن أرطأة ينهاه عن الاسراف فى ماء الوضوء . وأمر بالاقتصاد – كما ذكرنا – فى أوراق الكتابة.

وأشتد عمر فى معاملة الولاة والعمال اذا انحرفوا فى مسائل المال . فقد حبس والى العراق يزيد بن المهلب حبس دين حتى يقضى ماعليه ، وذلك ان يزيد لم يستطع دفع الخمس من غنائم اقليم بحر الخزر ، وكانت ادارة الامصار فى الدولة الاسلامية تتلخص فى تنظيم الناحية المالية فيها ، وكان اصلاح هذه الناحية أول ما اتجهت اليه همة عمر بن عبد العزيز.(١)

وعمر بن عبد العزيز الذى يشدد على نفسه التشديد الذى عرفناه ، هو الذى يحرص كل الحرص على ان يصل الى المسلمين جميع حقوقهم ، لا يتأخر منها حق عن موعده ، ولا ينقص منها حق. وهذا الحرص يدل على ان عمر لم يتبع سياسة التقتير أو التضييق. ولكنها سياسة حسن التصرف ، مع حكمة التدبير ، وعدم التقصير.(٢)

ولكن سياسة التقشف والاقتصاد فى النفقات امتدت الى ناحية لم نكن نتوقعها ، بل نتعجب لها ، كمؤرخين محايدين. فقد كان عمر كارها للبناء ، فكان يقول دائما : " انى أعطيت الله عهدا ان وليت هذا الامر ألا اضع لبنة على لبنة ، ولا آجرة على آجرة "(٣) . وكان لعمر فى بيته سلم تهدم ، وخاف بعض من فى المنزل على عمر

(١) فلهوزن : الدولة العربية ص ٢٦٣
(٢) الشرباصى : خامس الراشدين ص ١٤٧
(٣) ابن الجوزى ص ١٤٣

ان يسقط اذا استخدم السلم ، فأصلحه بطين ، فلما رأى عمر ذلك غضب وأمره بان ينزع الطين.

وحين سأل عامل المدينة عمر الاذن ببناء ،مسجد بني عدى بن النجار ،أخوال الرسول عليه الصلاة والسلام ،لانه تهدم ،كتب اليه عمر : " .. وجاء فى كتابك تذكر ان بنى عدى بن النجار ، أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ،أنهدم مسجد هم. وقد كنت أحب ان أخرج من الدنيا لم أضع حجرا على حجر ولا لبنة على لبنة ،فاذا أتاك كتابى هذا فابنه لهم بناء قاصدا ،والسلام عليك ". (١) اى لولا أنه مسجد ،وانه لاخوال الرسول الكريم ،لما أذن عمر بالبناء. (٢)

وظل عمر بن عبد العزيز متمسكا بسياسة التقشف والزهد حتى الرمق الاخير ، فقد قدم مسلمة بن عبد الملك ،على عمر وهو على فراش مرضه الاخير ،فوجده فراشا من ليف وتحته وسادة من أديم ، تغير لونها . وأفاق عمر ،فرأى مسلمة ، فأوصاه بان يلى غسله ويمشى معه الى قبره. ورأى مسلمة الفرصة سانحة ليوصى عمر بأولاده فيضمن لهم حياة كريمة بعد وفاة عمر ،وطلب مسلمة ان يصبح اولاد عمر فى وصايته او فى وصاية احد أقاربه. وسكت عمر. فقال مسلمة : ألا توصى يا أمير المؤمنين ؟.

---

(١) المصدر السابق .
(٢) الشرباصى : خامس الراشدين ص٢١٤

قال عمر : فيم أوصى ؟ فوالله مالى من مال . فقال مسلمة : هذه مائة ألف دينار ، فمر فيها بما أحببت ، قال عمر : أو تقبل يامسلمة ؟ قال : نعم فقال عمر : ترد على من أخذت منه ظلما . ثم غاب عمر عن وعيه ، فبكى مسلمة . وقال : يرحمك الله ، لقد ألنت منا قلوبا قاسية ، وأبقيت لنا من الصالحين ذكرا .(١)

وأفاق عمر لحظة وقال لمسلمة : أبا لفقر تخوفنى يامسلمة ؟ أما قولك انى أفرغت أفواه ولدى من هذا المال ، فوالله انى مامنعتهم حقا هو لهم ، وأما قولك لو أصبت بهم فان وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . وان بنى أحد رجلين : اما رجل يتقى الله فسيجعل الله له رزقا ، وأما رجل مكب على المعاصى فانى لم أكن لاقويه على معصية الله .

ونظر عمر الى أولاده وقال : بنفسى فتية تركتهم ولامال لهم ، أى بنى ، لقد تركتكم وتركت لكم خيرا كثيرا ، لاتمرون بأحد من المسلمين وأهل ذمتكم الا رأوا لكم حقا . يابنى ، ان اباكم مثل بين امرين : اما ان تستغنوا ويدخل أبوكم النار ، أو تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة ، فكان أن تفتقروا ويدخل الجنة أحب . قوموا يعصمكم الله . قوموا يرزقكم الله .(٢)

---

(١) المبرد : الكامل جـ١ ص ١٤٠

(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص٢٢٨

٣- عدالة الضرائب والنظم المالية وحرية التجارة

كلف الخليفة العباسي هارون الرشيد قاضي القضاه أبا يوسف، الفقيه الكبير (١)، بوضع كتاب يصبح دستورا ماليا واقتصاديا للدولة. والدارس لهذا الكتاب، يجد ان أبا يوسف يبدى اعجابه الشديد بالنظم المالية والضرائبية التي اتبعها عمر بن عبدالعزيز خلال خلافته القصيرة، ولذا أبرز أبو يوسف نظم عمر بن عبدالعزيز وأشاد بها، وأشار على الخليفة هارون الرشيد باتباعها.

وقد عمل عمر بن عبدالعزيز على اقرار سياسة ضرائبية عادلة، تحقق للدولة مواردها، ولا توقع أى ارهاق على الرعايا. فهي سياسة العدل والرفق في وقت واحد. ولما كانت الارض والزراعة المصدر الاول للضرائب، فقد عمل عمر على وضع اسس واضحة ثابته عادلة، فاهتم بالاصلاح والتعمير، واحياء الاراضي، واقامة المشروعات. ورأى ان تسبق هذه الامور يجب كلها ان تسبق (الجباية).

وتتضح سياسة عمر في تحديد الخراج، وفي التخفيف عن الرعايا في الضرائب في رسالة بعث بها الى عبدالحميد بن عبدالرحمن بالعراق، جاء فيها: "انظر الارض ولا تحمل خرابا على عامر، ولا عامرا على خراب، وأنظر الخراب فان أطلق

---

(١) وهو ابرز تلاميذ الامام ابي حنيفة النعمان.

شيئا ،فخذ منه ما أطلق وأصلحه حتى يعمر ،ولا تأخذ من عامر لا يحتمل شيئا ،وما أجدب من العامر من الخراج فخذه في رفق وتسكين لأهل الارض . وأمرك ان لا تأخذ في الخراج الا وزن سبعة ليس فيها تبر ،ولا اجور الضرابين ، ولا اذابة الفضة ، ولا هدية النيروز والمهرجان.(١) ولا ثمن الصحف ، ولا أجور الفيوج (٢) . ولا أجور البيوت ، ولا دراهم النكاح ،ولا خراج على من أسلم من أهل الارض " .(٣)

وكتب عمر الى أحد عماله يطلب منه أن يعتمد على ما لديه من فائض في تقديم سلف نقدية لمزارعي أهل الذمة ،كي يتقووا على أعمالهم الزراعية.(٤) وكتب عمر الى واليه بالكوفة رسالة تنبض بالعطف على الفلاحين وتعبر عن رغبته في تخفيف الضرائب عن كاهلهم.(٥) . ولا شك انه كان في تخفيف اعباء الفلاحين تشجيع لهم على الاقبال على الزراعة وزيادة الانتاج . ونهى عمر ولاته عن تسخير الفلاحين في أعمال الارض.(٦) وشجع عطف عمر أهل البصرة على الكتابة اليه يشكون اليه ملوحة أنهارهم .(٧) وطلبوا منه حفر نهر جديد وهددوا برحيلهم عن البصرة ،فكتب عمر الى عامله عدي بن أرطأة

---

(١) النيروز اول الربيع ،والمهرجان اول الشتاء.
(٢) الفيوج : جمع فج وهو رسول البريد .
(٣) ابو يوسف : الخراج ص٩٣
(٤) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص٦٨
(٥) المصدر السابق ص٩٩ـ١٠٠
(٦) اليعقوبي ج٣ ص٤٨
(٧) كانت منطقة البصرة منطقة (بطائح) اي مستنقعات تؤدي الى ملوحة الارض وضعفها .

يأمره بتحقيق رغبتهم فحفر نهر عدى (١) ،وأمر عمر بنى امية بأن يقيموا فى ضياعهم ويعملوا على اصلاحها (٢) .

أعطى عمر ضمانات للمزارعين ،وأمر بعدم ارهاقهم بضرائب خارجية ثابته على أعناقهم ،سواء أكان المحصول جيدا أم رديئا . ومن اليسير ان نتنبأ بنتائج سياسة كهذه تؤكد على تنشيط الزراعة واستغلال الطاقات الانتاجية ،وتطمين المزارعين. فلا ريب ان ضريبة الخراج ،التى نمت بنمو النشاط الزراعى ،كانت تشكل المورد الرئيسى الاخر للدولة ، الى جانب الزكاة ،خاصة بعد ان أوقف عمر الغزو ومايعقبه من غنائم، وبعد ان ألغى ضريبة الجزية عن اعناق المسلمين من غير العرب ،وعن أولئك الذين يعلنون اسلامهم حديثا (٣) .

ولذا ألقى عمر ثقلا كبيرا على ضريبة الخراج ،ولم يتهاون بأى شكل من الاشكال ازاء أولئك الذين تخلوا عن دفع هذه الضريبة من بنى امية أو المقربين اليهم خاصة ومن العرب عامة. وأعلن عمر أن ارض الخراج هى فى الاصل ملك مشترك بين المسلمين، ولكنها تركت بأيدى المغلوبين لقاء مبلغ يدفعونه للامة الاسلامية وهو الخراج .ولذلك فلا يجوز لاى شخص ابطال هذا الايجار ،فاذا أصبحت الارض الخراجية فى ملك مسلم

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص٣٧٧

(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٦٤ــ١٦٥

(٣) عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب الاسلامى ص١٣٦

فعليه ان يؤدى عنها حق الامة وهو الخراج . واذا أسلم ذمى اعفى من الجزية ، وله أمواله المنقوله ، أما أرضه فاما ان يدفع عنها الخراج ، أو يتركها لغيره فيدفع زارعها الجديد الخراج عنها ، أما هو فيستطيع الذهاب أنى شاء . (١)

ولنترك الخراج والارض الخراجية للفصل القادم . ولنتحدث عن اهتمام عمر بوسائل جباية الخراج ، فقد ذكر أبو يوسف (٢) ان عدى بن أرطأة ، عامل العراق ، كتب الى عمر بن عبد العزيز : " أما بعد ، فان أناسا قبلنا لا يؤدون ما عليهم من الخراج حتى يمسهم شىء من العذاب " . فكتب اليه عمر : " اما بعد ، فالعجب كل العجب من استئذانك اياى فى عذاب البشر كأنى جنة لك من عذاب الله ، وكأن رضاى ينجيك من سخط الله . واذا أتاك كتابى هذا فمن أعطاك ماقبله عفوا والا فأحلفه فوالله لان يلقوا الله بجناياتهم أحب الى من ألقاه بعذابهم . والسلام " .

وكان عمر يعوض الفلاحين عن خسارتهم ، فذكر أبو يوسف (٣) ايضا ان رجلا أتى عمر فقال : يا أمير المؤمنين زرعت زرعا فمر به جيش من أهل الشام فأفسدوه . فعوضه عمر عشرة آلاف .

---

(١) عبد العزيز الدورى : دراسات فى تاريخ العراق الاقتصادى ص٣٢
(٢) أبو يوسف : الخراج ص١٢٩
(٣) المصدر السابق .

وأعلن عمر دائما ان (الهداية) قبل (الجباية) ،وتمنى ان يعتنق أهل الذمة جميعهم الاسلام ،مهما اثر هذا فى موارد الدولة ، مما تجمعه من جزية. فكتب عمر الى عبد الحميد بن عبد الرحمن بالعراق : "كتبت الى تسألنى عن أناس من الحيرة يسلمون من اليهود والنصارى والمجوس وعليهم جزية عظيمة وتستأذننى فى أخذ الجزية منهم ،وان الله جل ثناؤه بعث محمدا داعيا الى الاسلام ولم يبعثه جابيا ،فمن أسلم من أهل تلك الملل فعليه فى ماله الصدقة ولا جزية عليه ،وميراثه لذوى رحمه اذا كان منهم يتوارثون كما يتوارث أهل الاسلام ،وان لم يكن له وارث ، فميراثه فى بيت مال المسلمين الذى يقسم بين المسلمين. وما أحدث من حدث ففى مال الله الذى يقسم بين المسلمين يعقل عنه منه. والسلام ".(١)

أبدى المستشرق (فلهوزن)(٢) اعجابه بنظم عمر المالية ،وخاصة نظم الضرائب ، والعطاء. فقد قرن عمر بين الواجبات الضرائبية ، والحقوق المالية للافراد عند الدولة، وابدى (فلهوزن) اعجابه حين قرر عمر سياسة ثابتة للعطاء ،لاتتأثر بالاهواء السياسية ،وتحقق المساواة بين رعايا الدولة من عرب وموالى ،فى كل أقاليم الدولة.

قال فلهوزن : "أما فيما يتعلق بأعطيات المقاتلة من المسلمين فى مدن المعسكرات وفى الحاميات الثغور ، فقد كانت الحكومة تسير فى اول الامر على مشيئتها الخاصة، فكانت تسقط من ديوان المقاتلة من تشاء وتفرض فيه لمن تشاء ،وكانت تزيد فى الاعطيات

(١) ابو يوسف : الخراج ص١٤٢
(٢) فلهوزن : الدولة العربية ص٢٨٨

أو تنقصها كما تشاء ،وكان هذا دائما سببا للشكوى ،وذلك ان اموال الفيء التى تجرى منها الاعطيات انما هى بحسب قانون الغنائم لورثة جنود الفتح وحدهم ولم يسكت لهم صوت قط فى المطالبة بان يعطى اليهم كل مال الفيء.

" ووسع عمر دائرة اصحاب الاعطيات ،حتى صارت أكثر شمولا لغير العرب مما كانت عليه من قبل ،وهو لم يقتصر على اعفاء الموالى الذين كانوا يحاربون مع العرب فى خراسان من الخراج ،بل جعل لهم أرزاقا وأعطيات ، وكتب عمر لواليه بخراسان بمده بارسال اموال ان لم تكف فى ذلك اموال الخراج فى خراسان ،ولكن لم تدع الحاجة الى ذلك ".

وفر عمر أموالا طائلة للخزانة العامة ، كانت الحكومات السابقة تستنفدها فى القضاء على الفتن والمنازعات الداخلية والحروب . فقد أوقف عمر الصراع مع الروم ،ومع الخوارج . ومع العلويين . ونجح عمر فى توحيد الامة الاسلامية بمختلف احزابها ، وأبعدها عن استنفاذ طاقاتها فى الصراع الداخلى ، ولذا نجح عمر فى تحقيق ظاهرة التوازن والمقابلة المالية فى كل ناحية من نواحى السياسة الاقتصادية. (١)

---

(١) عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب الاسلامى ص١٣٩

واهتم عمر باختيار العمال الذين يقومون بالشئون المالية ،وعاقب المنحرفين اشد عقاب ،فاختفت الاختلاسات والانحرافات . وأعاد عمر تنظيم بيوت الاموال . منعا للتداخل والتضارب ،فجعل لكل من الخمس والصدقة والفيء ، بيوت اموال خاصة بها ، منفصلة عن بعضها (١) .

وعلق (فلهوزن) (٢) على هذه السياسة فقال : اذا كان عمر قد أسقط الجزية عمن دخل في الاسلام من الشعوب والممالك ،فانه انما اراد بذلك ان يتفادى شن الحروب لمجرد الغنائم ،ولم يفرط في شيء يدخل في بيت مال الدولة ،لان السمك لم يكن قد وقع بعد في الشبكة ،أما في الولايات التي كانت قد فتحت قبل عهده بزمان طويل ، وتقررت جزيتها وخراجها طبقا لـ قانون الفتح ، أعني ارض السواد وارض مصر ،فان عمر بن عبد العزيز تمسك بالقانون المأثور الذي كان قد جرى العمل به ،وقاوم انتقاص ارض الدولة ودخلها ، كما انه حاول ان يتفادى الضرر الذي من شأنه ان يلحق بأموال الدولة بعد اسقاط الجزية عن جميع المسلمين . ولاشك أيضا في انه اذا منع من قبول الولاة للهدايا والعطايا بما فيها من اساءة استعمال السلطة ، انما نال من العمال وحدهم ،وهي الذين كانوا يستولون على تلك الهدايا .واقصى ما يمكن ان يؤخذ عليه ،هو انه كان يكثر من القاء الاعباء على بيت المال بسبب انواع المساعدات والبر التي قدمها للجميع أو كان يود لو استطاع تقديمها لهم . أما فيما يتعلق بنفسه

---

(١) طبقات ابن سعد جـ٥ ص ٢٩٥
(٢) فلهوزن : الدولة العربية ص ٢٩٥ــ٢٩٦

فانه لم يستعمل شيئا من أموال الدولة ولا جمع منها الكنوز ، ولا هو أسرف فيها أيضا في حملات حربية على القسطنطينية ، وكان في ذلك مخالفا لسلفه كل المخالفة. وكذلك عني عمر بالحيلولة بين الولاة وبين ان يكون همهم الاول من مناصبهم جمع الاموال لانفسهم ، والاغلب ان ذلك عوض النفقات التي اقتضتها اصلاحاته ضعفين.

كان الحجاج بن يوسف الثقفي أول من أبقى الجزية على من أسلم ، فقد لاحظ ان عددا كبيرا من أهل الذمة قد اعتنق الاسلام وأسرعوا الى سكنى المدن ، ولهذا أمر بعدم اعفائهم من الجزية وأعادتهم الى قراهم بالقوة. (١) مخالفا بذلك سياسة كل الخلفاء الراشدين والامويين.

أمر عمر بن عبد العزيز برفع الجزية عمن أسلم. (٢) واختلف المؤرخون المحدثون في تقدير ما فعله عمر . فيرى فيليب حتى (٣) ان سياسة عمر قد أضرت ببيت المال ضررا كبيرا ، ويرى فان فلوتن (٤) ان اصلاحات عمر ناقصة فقد ايقظت امالا لم تستطع الحكومة تنفيذها . أما دوزي (٥) فيرى ان سياسة عمر قد أدت الى ارهاق بيت المال ، كما دفعت بكثير من أهل الذمة الى التظاهر باعتناق الاسلام دون ايمان بها فرارا من الجزية ، ثم يدافع دوزي عن عمر فيقول انه كان مسلما ورعا تقيا آثر نصرة الاسلام على أي شيء آخر.

---

(١) الطبري جـ٨ ص٣٥
(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص٩٥
(٣) حتى : تاريخ العرب جـ٢ ص٢٨٥
(٤) فان فلوتن : السيادة العربية ص٥٨
(٥) دوزي : نظرات في تاريخ الاسلام ص٢٢١

ويبدو ان زيف التاريخ على عمر فيما يتصل بأهل الذمة جاء من أنه نـــزع قبط مصر عن كورها ،وكانت فى ايديهم حسبة المواريث • ولما كانت حسبة المواريث عملا يتصل بالدين فقد نزعها عمر عنهم واستعمل عليها المسلمين ،لانه عمل أشبه بعمـــل القاضى منه بعمل المحاسب • ولما لم يكن هناك تشريع للمواريث بين النصارى ، فقد جعلهم يتوارثون كما يتوارث أهل الاسلام• (١)

حدد الله وجوه صرف الصدقات فى الاية الكريمة : (انما الصدقات للفقـــراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل اللـــه وابن السبيل) ، واذا انعدم وجود واحد من هذه الوجوه الثمانية قسمت الصدقـــات على باقى الفئات الاخرى ، عدا سهم سبيل الله فلا بد ان ينقل الى الجند حيـــث نزلوا من الثغور • (٢) ويجب ان تصرف صدقة كل ناحية فى أهلها ولا يجوز نقل صدقات بلد الى غيره• ولا يجوز اعطاء صدقة الى كافر ،ولا يجوز دفعها الى بنى هاشم وبـــنى عبد المطلب ، كما لا يجوز اعطاء صدقة الى عبد أو مدبر ولا أم ولد ولا الى واحد لـــه من يموله• (٣)

احترم الخلفاء الراشدون هذه القواعد ،اما الخلفاء الامويون فلم يهتموا باتباعها بل امتدت ايديهم وايدى ولاتهم بالعراق الى اموال الصدقات ، فكانوا يمنحون الصلات

---

(١) سيد الاهل : الخليفة الزاهد ص١٧٢
(٢) ابو يوسف : الخراج ص٤٦
(٣) الماوردى : الاحكام السلطانية ص١١٩

وجوائز الشعراء منها زاعمين ان الشعراء من فقراء المسلمين.(١) وكان عمر بن عبد العزيز هو الخليفة الاموى الوحيد الذى اهتم بصرف الصدقات فى وجوهها ، فقد كتب الى عدى ابن أرطأه عامله بالعراق يذكره بآية الصدقات ويأمره بقضاء ديون الغارمين.(٢) وأمر عمر عامل صدقات العراق بأن تكون صدقات نصارى بنى تغلب فيهم.(٣) وكان المسجونون يخرجون الى طرق العراق بقيود هم ليتصدق الناس عليهم ، فأمر عماله ان يكون طعامهم من الصدقات.(٤)

كان لعامة الناس عطاؤهم كما كان لهم أرزاقهم ، وكان العطاء كل سنة والارزاق كل شهر.(٥) وساوى عمر بن الخطاب بين العرب والموالى فى العطاء.(٦) وفرض معاوية العطاء للموالى فجعله خمسة عشر درهما ، وجعلها عبد الملك بن مروان عشرين درهما ، وزادها سليمان الى خمس وعشرين درهما.(٧) ونقص عطاء الموالى كثيرا خلال حكم الحجاج الثقفى . فقد ذكر أحد الموالى لعمر بن عبد العزيز ان بالعراق عشرين ألفا من الموالى يغزون بلا عطاء ولا رزق.(٨) وكان بنو امية يحرمون غالبا اهل العراق من العطاء عقابا لهم لقيامهم بحركات المعارضة . وفرض عمر بن عبد العزيز العطاء للموالى.(٩)

---

(١) الخربوطلى : تاريخ العراق ص٤٠٩

(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص١٧١

(٣) ابن الجوزى : عمر بن عبد العزيز ص٥٢

(٤) أبو يوسف : الخراج ص٨٨-٨٩

(٥) الفخرى ص٩٨

(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص٤٦٣

(٧) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج٤ ص٤٠٠

(٨) الطبرى ج٨ ص١٣٤

(٩) اليعقوبى ج٣ ص٤٨

وكان عمر بن الخطاب أول من فرض الارزاق للناس ، اذ فرض لكل مسلم ، رجلا أو أمرأة أو عبدا ، مدى حنطة وقسطى زيت وقسطى خل كل شهر[١]. وكانت أرزاق اهل العراق تدفع اليهم أو تقطع عنهم تبعا للاحوال السياسية . وكتب عمر بن عبد العزيز الى عامله بالعراق : " ونرى ان ترد المزارع لما جعلت له ، فانما جعلت الارزاق للمسلمين عامة ، فان امر العامة هو افضل للنفع وأعظم للبركة "[٢].

أهتم الخلفاء والولاة بالاقتصاد فى المصروفات حتى يبقى فضل من مال كل ولاية فيحمل الى حاضرة الخلافة . واتبع الامويون نظام اللامركزية ، فكانت كل ولاية تصرف ايراداتها على مرافقها الخاصة ، ويرسل الباقى الى بيت المال فى العاصمة . ويذكر الماوردى[٣] انه كان على الوالى " اذا فضل من مال الخراج فاضل عن أرزاق جيشه ، حمله الى الخليفة ليضمه فى بيت المال العام المعد للمصالح العامة ". وامر عمر ابن عبد العزيز عمال العراق بتقسيم فضل مال الفىء بين أهل الحاجة[٤]. كما أمر عمر برد امظالم بنى أمية ، فاستجابوا لامره حتى انه نفذ بيت مال العراق فى سبيل ذلك ، واضطر عمر الى ان يبعث بالاموال من الشام الى العراق[٥].

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٦٥
(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٠
(٣) الاحكام السلطانية ص ٣٠
(٤) الطبرى جـ ٨ ص ١٣٩
(٥) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٢٩

فتح عمر باب التجارة الحرة فى البر والبحر وأعلن : "أما البحر فانا نرى سبيله سبيل البر (الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله). فأذن فيه ان يتجر فيه من شاء . وأرى ان لانحول بين أحد من الناس وبينه ، فان البر والبحر لله جميعا سخرهما لعباده ، يبتغون فيهما من فضله ، فكيف نحول بين عباد الله وبين معائشهم ؟ ".(١)

وعن طريق حرية التجارة ، أقر عمر أسلوبا حيويا لتنمية الثروة والدخل القومى ، ورفع مستوى المعيشة ، وتهيئة شتى صنوف البضائع بأرخص الاسعار. وعلى الرغم من أن عمر الغى المكوس التى يمكن ان تنمو عن طريق حرية التجارة ، الا ان الدولة كانت تعتمد على طريق آخر لجنى ثمار هذه السياسة ، وهو طريق الزكاة ، التى لم يتهاون عمر فى جبايتها وتنظيمها وتوزيعها وفق ما أمر الله به ورسوله.(٢)

ألغى عمر العشور عن كافة الفئات من غير المزارعين ، وحدد دافعوا الضرائب من غير المسلمين بقطاعات ثلاث : المزارعين ، والصناع واصحاب الحرب والتجار ، أما المسلمون من التجار والصناع والحرفيين فليس عليهم ان يؤدوا لبيت المال سوى الزكاة ، أما المزارعون فعليهم ان يدفعوا ـ أيضا ـ الضريبة العشرية ، أو الخراجية ، بناء على زمن تملكهم الارض.(٣)

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٣
(٢) عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب الاسلامى ص ١٣٥
(٣) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٨

أوضح عمر سبب سياسته فقال : " أما المكس فانه النجس الذى نهى الله عنه فقال (ولاتبخسوا الناس أشياءهم ،ولاتعثوا فى الارض مفسدين) غير انهم كنوه باسم آخر.. ". (١)

ومنع عمر الولاة والعمال من الاشتغال بالتجارة حتى لاينافسوا التجار المتفرغين للتجارة ،وحتى لايستغل الولاة والعمال نفوذهم الادارى فى التحكم فى الاسعار. قال عمر : " لايحل لعامل تجارة فى سلطانه الذى هو عليه ، فان الامير متى يتجر ليستأثر ويصيب امورا فيها عنت وان حرص على ألا يفعل ". (٢)

وارتفعت الاسعار فى عهد عمر ارتفاعا كبيرا ،وسأل احدهم عمر عن سر هذا الغلاء فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ،ما بال الاسعار غالية فى زمانك ، وكانت فى زمان من كان قبلك رخيصة ؟ فأجاب عمر : ان الذين كانوا قبلى كانوا يكلفون أهل الذمة فوق طاقتهم ،فلم يكونوا يجدون بدا من ان يبيعوا ويكسد مافى أيديهم. وأنا لا أكلف احدا الا طاقته ، فباع الرجل كيف شاء. فقال الرجل : لو أنك سعرت. فقال عمر : ليس الينا من ذلك شىء انما السعر الى الله. (٣)

---

(١) المصدر السابق ص٩٩
(٢) المصدر السابق ص٦٩
(٣) أبو يوسف : الخراج ص١٤٢

وهكذا عرف عمر بن عبد العزيز نظرية العرض والطلب وهى من أبرز النظريات الاقتصادية ، فقد كان الولاة الامويون ، وخاصة الحجاج بن يوسف يلقون الكثير من الاعباء على أهل الذمة كما كانوا يأخذون الجزية ممن أسلم . كما ان عبد الملك بن مروان زاد الجزية على اهل الجزيرة ، وأدى هذا كله الى سوء حالة جانب كبير من سكان العراق فأقبلوا على بيع انتاجهم الزراعى ، والصناعى ، مما أدى الى النشاط التجارى من جهة وانخفاض الاسعار من جهة أخرى فقد زاد العرض على الطلب ولكن عمر رأف بأهل الذمة ومنع الجزية عمن أسلم وأدى ديون الغارمين وترك السخرة ، وغير ذلك من ضروب التخفيف من أعباء أهل الذمة والمسلمين على السواء ، مما أدى الى شعورهم بالرخاء الاقتصادى ، فقد توفرت فى أيديهم الاموال الكثيرة التى كانت تذهب الى بيت المال أو جيوب العمال ، فأقبلوا على التمتع بمحصولاتهم الزراعية ومصنوعاتهم دون بيعها ، كما أقبلوا على شراء ما يحتاجون من أنواع التجارة ، فزاد الطلب على العرض . (١)

---

(١) الخربوطلى : تاريخ العراق ص٣٦٧

٤ — نظم الخراج وملكية الاراضي

أراد العرب الفاتحون ان يقسم عمر بن الخطاب أراضي سواد العراق عليهم باعتبارها جزءا من الغنائم التي حازوها بانتصارهم على جيوش الفرس ، ولكن عمر أبى ذلك عليهم وأصر على ترك هذه الارض لاصحابها مقابل دفع الخراج . (١) رغبة منه في ان يجعل من جنده العرب حامية اسلامية في هذه البلاد المفتوحة توطد دعائم الحكم الاسلامي وتجمع الخراج والجزية حتى يكونا موردا ثابتا لبيت مال المدينة العاصمة . كما ان العرب لم يكونوا زمن الفتوح قد اعتادوا بعد الفلاحة الارض . كما ان اصحاب الارض سوف تكون عنايتهم بمزراعة ارضهم أعظم مما لو ورع الفاتحون هذه الارض لانشغالهم بالحروب من جهة وعدم درايتهم بأساليب الزراعة من جهة اخرى .(٢) والحقيقة ان سياسة عمر كانت سياسة رشيدة فقد كان توطيد دعائم الدولة الاسلامية وترقيتها ماديا انما يتوقفان على رفاهية طبقة الفلاحين من سكان البلاد الاصليين ، ولذا كان منع تقسيم الارض يحقق هذه الاغراض .(٣)

استولى العرب الفاتحون على معظم اراضي العراق عنوة .(٤) ولذا كان من المفروض ان تصبح جزءا من غنائم الفتح .(٥) لكن عمر بن الخطاب رفض اعتبار

---

(١) الطبري جـ٤ ص١٨٣
(٢) الخربوطلي : تاريخ العراق ص٣٢٨
(٣) السيد امير علي : مختصر تاريخ العرب ص٥١
(٤) الطبري جـ٤ ص١٨٥
(٥) الماوردي : الاحكام السلطانية ص١٤٠

سواد العراق غنيمة لجنده ، ورفض تقسيمه بينهم على هذا الاساس (١) وأصر جند المسلمون على تقسيم السواد ، ورأى عمر ان يستشير كبار المهاجرين والانصار ، (٢) ونجح عمر فى اقناعهم جميعا برأيه. (٣)

وبقيت أراضى السواد المفتوحة عنوة فى أيدى أصحابها يؤدون عنها الخراج ، رغم أنها جزء لا يتجزأ من فىء المسلمين. (٤) وهذه الارض لا تشترى ولا تباع (٥) ، واذا اسلم أحد أصحاب هذا النوع من الارض رفعت عنه الجزية ولكن ارضه تظل فيئا للمسلمين. (٦) ويترك له الحرية فى البقاء فى أرضه على ان يدفع ما كان يؤديه من خراج ، ويترك له حرية التخلى عن الارض ، فيضيفها الامام الى الارض التى ليس لها ملاك. (٧) وكان الخلفاء يكرهون بيع وشراء أرض السواد لان عليها خراج المسلمين. (٨)

أما اراضى الفىء التى صولح أهلها عليها والتى فرض عليها الخراج فكانت نوعين. أولهما ارض صولح أهلها على زوال ملكيتهم لهذه الارض ، ولذا يجوز بيعها ويكون خراجها مقابل ايجار لها ، ولا يسقط الخراج بأسلام أهلها. والنوع الثانى ارض صولح أهلها على بقاء ملكيتهم لها وهذه يجوز لهم بيعها ويسقط خراجها باسلام أهلها. (٩) وكانت

---

(١) ابو يوسف : الخراج ص ٢١ ، ابن آدم : الخراج جـ١ ص ١٣
(٢) ابو يوسف : الخراج ص ١٤
(٣) المصدر السابق
(٤) ابن آدم : الخراج جـ١ ص ٧
(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٥
(٦) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٥
(٧) ابن ادم : الخراج جـ٢ ص ٨
(٨) المصدر السابق جـ٢ ص ٤١
(٩) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٤

الارض الصلح اذا بيعت لمسلم سقط خراجها • ولذا منع عمر بن عبد العزيز بيعها للمسلمين بعد سنة ١٠٠ هـ • أما الارض التى أسلم أصحابها عليها ،وهم أهل حرب ،فان أرضهم تصبح ملكا لهم (١) •

ويرجع السبب فى اتخاذ عمر بن عبد العزيز لهذا القرار ،الى ان أهل العراق اهتموا بالزراعة وأصبحوا يفضلون أمتلاك الارض على امتلاك الاموال او التجارة أو الصانع (٢) ولذا أقبلوا على شراء الارض الخراجية حتى ارتفعت أثمانها من جهة ونضبت الموارد المالية من جهة اخرى لان هذه الارض الخراجية تتحول الى ارض عشرية •

لم يمض على الدولة الاموية خمسون سنة حتى أصبحت أخصب أراضى العراق فى أيدى بنى أمية أو خلفائهم أو مواليهم ،واستغلوها بواسطة أهم العراق فى ظروف صحية غير ملائمة (٣) • وأدى ايجاد الخلفاء لهذه الاقطاعات الكبيرة التى منحوها للمقربين اليهم الى استخدام أساليب الزراعة البدائية ،مما أدى الى عدم التوازن فى الانتاج وتوزيع السكان (٤) •

كان الخراج يظل مفروضا على الارض المفتوحة عنوة حتى بعد اسلام صاحبها لان هذه الارض فىء للمسلمين وملك لهم جميعا ،وما يدفعه صاحبها هو مقابل زراعته

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص٩٤
(٢) ابو يوسف : الخراج ص٣٥
(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج٣ ص٣٢
(٤) جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ص٤٨

لهـــــا (١) . فقد توجه رجل الى عمر بن الخطاب ،فقال له : انى قد أسلمـــت فأرفع عن أرضى الخراج . فقال عمر : ان ارضك اخذت عنوة . (٢) وكان عمر بن عبـــد العزيز يقول : من أسلم من أهل الارض فله ما أسلم عليه من أهل ومال ،فأما داره وأرضه فانها كائنة فى فئ الله عز وجل على المسلمين . (٣)

أما الارض التى صولح اهلها على زوال ملكهم عنها فلايجوز بيعها ،ويعتبـــــر خراجها ايجارا ، ولا يسقط الخراج باسلام اهلها ،انما ترفع عنهم الجزية. (٤) أمـــا الارض التى صولح اهلها على بقاء ملكهم عليها فيجوز بيعها ويسقط خراجها باســـلام أهلها وتصبح أرضا عشرية. (٥)

كان عمر بن الخطاب ينهى عن شراء أرض أهل الذمة ،أما على بن أبى طالـــب فكان يكره أن يشترى المسلمون أرض الخراج ويقول : عليها خراج المسلمين. (٦) وكان الحجاج الثقفى يقول : ما أبغض الى ان نكثر العرب فى أرض الخراج . (٧) ولـــــذا

---

(١) ابن آدم : الخراج جـ١ ص٨
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٧٧
(٣) ابن آدم : الخراج جـ٢ ص٣٣
(٤) المصدر السابق جـ١ ص٧
(٥) ابن آدم : الخراج جـ١ ص٧
(٦) المصدر السابق جـ٢ص٤١
(٧) الطبرى جـ٧ ص٢٦٥

أعاد الحجاج الخراج على كل أرض أسلم أصحابها أو اشتراها مسلمون مما أدى الى هرب أصحابها من القرى الى المدن ، فأعادهم الحجاج الى أرضهم قسرا . (١)

وأمر عمر بن عبد العزيز باعفاء كل من أسلم من الخراج . (٢) ثم لاحظ ان هذه السياسة تضر ببيت المال ، فوضع حلا وسطا لتلك المشكلة بان رفع عن الارض التى يملكها المسلمون حتى سنة ١٠٠ هـ ، ثم قرر ان شراء المسلمين وامتلاكهم الارض بعد هذا التاريخ غير جائز ، لان المسلمين حينما يشترون تلك الارض تصبح أرضا عشرية ويسقط عنها الخراج ، وبذلك تقل الموارد المالية .

وتبعا لهذه السياسة ، كان اذا أسلم رجل من اصحاب تلك الاراض الخراجية فان ملكيته تزول عن هذه الارض وتصبح ملكا مشاعا للمسلمين . ومادامت الارض ليست ملكا لشخص بعينه فكان يؤخذ منها الخراج والعشر معا : أما الخراج فلأنه فى مقابل الايجار لتلك الارض ، وأما العشر فلأنه مسلم تجب عليه الزكاة فى الزروع والثمار . (٣)

ولذا قال عمر بن عبد العزيز : " لايحل لاحد ان يحول أرض خراج الى أرض عشر ، ولا أرض عشر الى أرض خراج ، وذلك ان يكون للرجل ارض عشر والى جانبها ارض خراج فيشتريها مع أرضه ، ويؤدى عنها الخراج ، فهذا حد مالايحل فى الارض والخراج ". (٤)

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٣ ص ٤١٦
(٢) ابو يوسف : الخراج ص ٤٩
(٣) ابن آدم : الخراج جـ١ ص ١٠
(٤) أبو يوسف : الخراج ص ٤٩

وكان فى الدولة الاسلامية أراضى تسمى " الموات " التى يملكها كل من احياها وكتب عمر بن عبد العزيز الى ولاته : " من غلب الماء على شىء فهو له ". (١)

وهناك أراضى " الصوافى " وهى " كل ارض ليست فى يد أحد " ، وخاصة الاراضى التى قتل اصحابها وهربوا عنها او اراضى كسرى وأسرته. (٢) واتبع الولاة فى عهد الخلفاء الراشدين والامويين واحدة من ثلاث خصال : ان يعمر الوالى هذه الارض ويؤدى الى بيت مال المسلمين عنها شيئا فتكون الفضلة له ، أو ان ينفق الوالى عليها من بيت مال المسلمين ويستأجر من يقوم بفلاحتها ويكون فضلها للمسلمين أو يقطعها رجلا مسلما قادرا. (٣)

وفى عهد عبد الملك بن مروان اشتعلت النيران فى الديوان خلال ثورة عبد الرحمن بن الاشعث ضد الحجاج الثقفى فضاع أصل معظم هذه الصوافى ، واستولى كل على مافى يده. (٤) أما البقية الباقية من الصوافى فقد كتب عمر بن عبد العزيز حين تولى الخلافة الى واليه بالعراق بشأنها ، فكتب : " انظر ماقبلكم من أرض

---

(١) ابن آدم : الخراج ج٣ ص٦٣
(٢) المصدر السابق ج١ ص٨
(٣) ابن ادم : الخراج ج١ ص٨
(٤) ابو يوسف : الخراج ص٣٦

الصافية ،فأعطوه بالمزارعة بالنصف ، وما لم تزرع فأعطوها بالثلث ،فان لم تزرع فأعطوها حتى تبلغ العشر ،فان يزرعها أحد فامنحها ،فان لم يزرع فأنفق عليها من بيت مال المسلمين ولاتبتزن قبلك أرضا .(١)

أهتم المستشرقون بنظم عمر بن عبد العزيز فى الخراج ،وخاصة (كريمر) ، و (موللر) و (فان فلوتن) و (فلهوزن) ،وكان الاخير أكثر اهتماما وتقديرا وقد عقد فصلا طويلا ،وناقش نظم عمر مناقشة علمية موضوعية ،هادئة هادفة ، بل تصدى للرد على بعض المستشرقين المتعصبين ، وان كان وقع أيضا فى الخطأ المحذور.

قال فلهوزن : كانت ادارة الامصار فى الدولة الاسلامية تتلخص فى تنظيم (٢) الناحية المالية فيها ،وكان اصلاح هذه الناحية أول ما اتجهت اليه همة عمر بن عبد العزيز . ولكن ليس من السهل ان نتبين بوضوح نوع اصلاحاته فى ميدان نظام الخراج ،والاراء التى جاء بها فى هذا الشأن (ألفريد فون كريمر) وتابعه فيها (أوجست موللر) مشوبة بأخطاء حقيقية. ويرى كريمر وموللر ان الذى دعا

---

(١) ابن آدم : الخراج جـ٢ ص٤٤

(٢) فلهوزن : الدولة العربية ص٢٦٣ ومابعدها .

عمر بن عبد العزيز الى اصلاحاته فى نظام الخراج انما هو القصد الى العودة الى النظام القديم ، وان عمر بن الخطاب كان مثاله الذى أراد ان يزيل ضروب الفساد التى استحدثها خلفاء بنى امية وعمالهم حتى ذلك الحين .

وبعد ان شرح " فلهوزن " نظم عمر بن الخطاب فى الخراج وفى رفضه تقسيم أراضى السواد ، فانه يصف هذا النظام بأنه " نظام بدائى بعض الشئ وقاصر على الخطوط الرئيسية " ، وانه تطور تطورا لم يحسب عمر حسابه من قبل ، وان اجراءات الحجاج الثقفى اثارت صيحات اجتماعية ، فهى ضربة فى وجه الاسلام .

ثم قال (فلهوزن) (1) : وكان عمر بن عبد العزيز بحكم ورعه مضطرا ان يسلك طريقا آخر ، وهو لم يكن من حيث مقصده يختلف عن الحجاج اختلافا كبيرا ، ولكنه حاول ان يصل اليه عن طريق لا يتعارض مع الشعور الاسلامى بالحق والعدل ، فحافظ من هذا الوجه على المبدأ القديم الذى يقضى بان المسلم ليس عليه ان يدفع جزية ولا خراجا ، سواء أكان عربيا أو مولى ، ولكى يتفادى النقص فى دخل بيت المال ، فانه بعد مشاورة علماء المدينة بلا شك ، استنبط من النظم السابقة ان ارض الخراج يجب ان تكون ملكا للمسلمين جميعا اولا ، ثم هى بعد ذلك لاهل القرى الذين تركها لهم المسلمون مقابل خراجها ، بحيث لا يصح ان تقتطع اجزاء منها

---

(1) المرجع السابق ص ٢٧١

وتعتبر بسبب انتقالها الى أيدى المسلمين ملكا خاصا معفى من الخراج • وتبعـــا لذلك أعلن عمر بن عبد العزيز ان بيع أراضى الخراج على العرب والمسلمين غير جائـــز اعتبارا من سنة مائة للهجرة • ولكنه لم يجعل لهذا المنع أثرا رجعيا •

ويقول (فلهوزن) أيضا [1] : وقد دعت عمر الى تحريم بيع أراض الخـــــراج اعتبارات ترجع الى أحوال بيت المال • فهو قد أراد ان يتفادى نقص الخراج الناشىء من انتقال أرض الخراج الى ايدى المسلمين وسقوط الخراج عنها لهذا السبـــب ، ولكنه بذلك وضع فى نفس الوقت سدا أمام الرغبة فى اقتناء الضياع ، محاولا ان يحمـــى دافعى الخراج من الملاك أن تغطى على أرضهم شهوة التملك من جانب الســـادة العرب الذين كان امتلاك الارض أكثر فائدة لهم بحكم انهم لم يكونوا يؤدون عنهـــا خراجـــا •

ويرى (كريمـر) و (موللر) [2] ان ذهن عمر بن عبد العزيز كان خاضعـــا لسلطان الدين ، مما أبعده عن الحكمة السياسية ، وهو وان نجح فى تقوية الاســلام الا انه أفسد نظام الدولة من أساسه ، بعد ان اصبحت الدولة دنيوية • وقد انصـرف عمر عن سياسة أسلافه الخلفاء الواقعية ليحقق مبادىء مثالية استمدها من القـــرآن

---

(١) المرجع السابق ص٢٩٢

(٢) أنظر كتاب (الدولة العربية) لفلهوزن ص٢٦٣

والحديث ، وكان عمر متأثرا بحاشيته الدينية ، حتى أنه لم يتبع سياسة العقل ، فكان تفكيره ساذجا . ويجمع المستشرقان على ان سياسة عمر قد أضرت ببيت المال ، كما يريان ان سياسة عمر فى رد المظالم كان مقصورا على أحوال فردية ، وان أكثر العمال خيانة كانوا يترقبون الفرص لانتهاب الخزانة .

وخير ما نرد به على رأى المستشرقين المجحفين ، ما قال فلهوزن :(١) اما مايزعمه البعض (مثل موللر) من ان اموال الدولة فى عهد عمر بن عبد العزيز قد تلاشت ، كما يزول الشئ باشارة سحرية ، وان مايتحصل من الخراج قد انحط دفعة واحدة ، فانى لا اريد هنا أن اتعرض للكلام فيما اذا كان ذلك الزعم أكثر من أن يكون نتيجة خطأ ، ولكنه على كل حال زعم لايمكن ان يكون صحيحا بوجه من الوجوه . وذلك ان الاحوال المالية كانت سيئة فى الايام المضطربة لعهد عبد الملك والحجاج ، أما فى عهد عمر فقد عادت الى حالة الصحة .

ويكفى ان نذكر حقيقة تاريخية ، هى أن خراج السواد فى عهد الحجاج كان اربعين مليون درهم ، بينما كان فى عهد عمر بن عبد العزيز مائة مليون درهم(٢) مما يؤكد ثمار اصلاحات عمر .

---

(١) الدولة العربية ص٢٩٦

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٣٢

ونحن نتوقع دائما عنت واجحاف المستشرقين في دراساتهم للتاريخ الاسلامي ، فهم يتبعون في هذه الدراسات المنهج العلماني ، ويفسرون تاريخنا تفسيرا ماديا ، وهم أيضا يريدون أحيانا تحطيم مثلنا العليا ، وقدواتنا الطيبة ، ممن حرصوا على القيم الانسانية الاسلامية . ولن يستطيع المستشرقون فهم التاريخ الاسلامي ، كما نفهمه نحن المسلمين ، وقد اعترف فلهوزن ـ كما مر بنا ـ بصعوبة دراسة نظم الخراج في عهد عمر ، وأنه لم يكن من السهل عليه ان يتبين بوضوح نوعية اصلاحات عمر .

المصـــادر والمراجـــع

اولا : المصادر والمراجـع العربيــة

ابن آدم : (٢٠٣هـ) يحيى بـــن آدم

- كتاب الخراج (ليدن ١٨٩٥).

ابن الاثير : (+٦٣٠ هـ =١٢٣٨م) على بن أحمد بن أبى الكرم

- الكامل فى التاريخ ، ٦ اجزاء (القاهرة ١٣٠٢هـ)
- أسد الغابة فى معرفة الصحابة (طبعة المعارف ، القاهرة ١٢٨٦هـ)

ارنولـد : (تومـــاس)

- الدعوة الى الاسلام ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم وآخرين (القاهرة ، ١٩٤٧)

احمد أمين :

- فجر الاسلام (القاهرة ١٩٢٨)

احمد الشرباصى : الدكتور

- خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز (مطبعة دار الشعب بالقاهـــرة ١٩٥٩).

احمد شفيـــق :

- الرق فى الاسلام ، ترجمة عن التركية أحمد زكى (الطبعة الاولـــــى ، القاهـــرة)

الاصفهانـــى : (+٣٥٢ هـ = ٩٦٧ م) أبو الفرج

ـ كتاب الاغانى (طبعة ساسى ، القاهرة ١٣٢٣ هـ)

الألوســــى : محمود شكــرى

ـ بلوغ الارب فى أحوال العرب (القاهرة ١٩٢٤)

أنستاس مارى الكرملى :

ـ النقود العربية وعلم النميات (المطبعة العصرية ١٩٣٩)

بارتولـــــــد : (ف)

ـ تاريخ الحضارة الاسلامية ، ترجمة الدكتور حمزة طاهر (القاهرة ١٩٤٢)

البغــــدادى : (+٤٢٩ هـ =١٠٣٧ م) أبو منصور عبد القادر بن طاهر بن محمد

ـ الفرق بين الفــرق (القاهرة ١٩٤٨)

بلوكلمـــــــان : (كـارل)

ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه امين فارس ومنير البعلبكى (بيــروت، ١٩٤٨).

البــلاذرى : (+٢٧٩ هـ =٨٩٢ م) أحمد بن يحيى بن جابر

ـ فتوح البلدان (القاهرة ١٩٠١)

ـ أنساب الاشـراف (فلسطين ١٩٣٨).

البيهقــــى :
- المحاسن والمساوئ ، (القاهرة ١٩٠٦)

ترتـــــون : (ا٠ س)
- أهل الذمة فى الاسلام ،ترجمة الدكتور حسن جشى (القاهـــــرة ، الطبعة الثانية ١٩٥٧)٠

ابن تيميـــة :
- رسالة الحسبة فى الاسلام (المطبعة الحسينية بالقاهرة ١٣٢٣هـ)٠

الجاحـــظ : (+٢٥٥ هـ =٨٦٩ م) أبو عثمان عمرو بن بحر
- كتاب الحيوان (القاهرة ١٩٠٧)
- كتاب المحاسن والاضداد (القاهرة ١٣٢٤ هـ)
- البيان والتبيين (القاهرة ١٣٣٢ هـ)
- رسائل الجاحظ ، ١١ رسالة ، (القاهرة ١٤٢٤ هـ)٠

جولد تسيهر : (اجناس)
- العقيدة والشريعة فى الاسلام ،ترجمة على حسن عبدالقادر وآخريـــن (القاهرة ١٩٤٦)٠

الجهشيـارى : (+٣٣١ هـ) أبو عبيد الله بن عبدوس
- كتاب الوزراء والكتاب (القاهرة ١٩٣٨)٠

ابن الجوزى : (٥٩٧ هـ) أبو الفرج عبد الرحمن على بن الجوزى
– مناقب عمر بن عبد العزيز (ليزيج ١٨٩٩)
– صفوة الصفـوة (القاهرة)٠

جــــوزى : (بندلى)
– من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام (القدس ١٩٢٨)

جورجى زيدان :
– تاريخ التمدن الاسلامى (القاهرة ١٩٢٤)٠

ابن حجر العسقلانى : (+٨٥٢ هـ = ١٤٤٩ م) شهاب الدين بن على
– الاصابة فى تمييز الصحابة (القاهرة ١٩٢٢)

ابن حـــــزم : (+٤٥٦ هـ = ١٠٦٤م) أبو محمد على بن أحمد
– الفصل فى الملل والاهواء والنحل (القاهرة ١٣١٧ هـ)٠

حسن ابراهيم حسن : الدكتور
– تاريخ الاسلام السياسى ،الجزء الاول (القاهرة ١٩٢٥)

الخضـــــرى : محمد
– تاريخ الامم الاسلامية (القاهرة ،الطبعة الثانية)
– اتمام الوفاء فى سيــرة الخلفـاء (القاهـرة)

ابن خلدون : (+٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ ـ ١٤٠٦ م) عبد الرحمن بن محمد

ـ مقدمة ابن خلدون (القاهرة)

ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤ هـ)

ابن خلكان : (+٦٨١ هـ =١٢٨١ م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم ابن أبى بكر الشافعى).

ـ وفيات الاعيان (القاهرة ١٩٤٨)

الدمشقى : أبو الفضل

ـ الاشارة الى محاسن التجارة (القاهرة ١٣١٨ هـ)

الدميرى : كمال الدين

ـ حياة الحيوان ،جزءا ، (المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٢٧٤ هـ).

دوزى : (ر. ب. أ)

ـ نظرات فى الاسلام ،ترجمة كامل كيلانى (القاهرة ١٩٢٣).

الدينورى : (+٢٧٢ هـ = ٨٩٥م) أحمد بن داود أبو حنيفة

ـ الاخبار الطوال (ليدن ١٨٨٨)

ديمومبين : (موريس غودفروا)

ـ النظم الاسلامية ،ترجمة صالح الشماع وفيصل السامر (بغداد ١٩٥٢)

الروحــــــى : محمد بن أبى السرور بن عبد الرحمن

ـ بلغة الظرفاء فى ذكرى تواريخ الخلفاء (القاهرة ١٩٠٩)

ابن سعد : (٢٣٠ هـ) أبو عبد الله بن سعد كاتب الواقدى

ـ الطبقات الكبرى (ليدن ١٣٢٢ هـ)

سيد امير على :

ـ مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ، ترجمة رياض رأفت (القاهــــــرة ، ١٩٣٨)

السيوطــــــى : (+ ٩١١ هـ = ١٥٠٥ م) عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين

ـ تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الامة (القاهرة ١٣٥١هـ)

الشهرستانى : (+ ٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م) أبو الفتوح محمد بن عبد الكريم.

ـ الملل والنحـــل (القاهرة ١٩٤٨).

شوقى ضيـف : الدكتـــور

ـ التطور والتجديد فى الشعر الاموى (القاهرة ١٩٥٢).

صالح أحمد العلى : الدكتور

ـ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن الاول الهجــرى (بغداد ١٩٥٣).

أبن الصباغ : (٨٥٥ هـ)

— الفصول المهمة فى معرفة أحوال الائمة (النجف ١٩٥٠) .

ابن طباطبا : (٧٠١ هـ) محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى

— الفخرى فى الاداب السلطانية والدول الاسلامية (القاهرة ١٣٤٠ هـ)

الطبرى : (+٣١٠ هـ = ٩٢٢م) أبو جعفر محمد بن جرير

— تاريخ الامم والملوك (المطبعة الحسينية ، القاهرة) .

أبو عبيد :

— الاموال (القاهرة)

ابن عبد الحكم : (٢١٤ هـ) أبو محمد بن عبد الله بن عبد الحكم

— سيرة سيدنا عمر بن عبد العزيز (المطبعة الرحمانية ، القاهرة ١٩٢٧)

ابن عبد ربه : العقد الفريد (القاهرة ١٩٤٨)

عبد الرزاق حميده :

— سيف بنى مروان الحجاج الثقفى (القاهرة ١٩٤٧)

ابن العربى : (٥٤٣ هـ) القاضى أبو بكر بن العربى

— العواصم من القواصم (القاهرة ١٣٧١ هـ)

عبدالعزيز الدوري : الدكتور

- مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام (بغداد ١٩٤٩)

- تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى (بغداد ١٩٤٨)

عبدالعزيز سيد الاهل :

- الخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز (طبعة المجلس الاعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة)

ابن عساكر : (٥٧١ هـ) أبو القاسم على بن الحسين

- تهذيب التاريخ الكبير (دمشق ١٣٣٢ هـ)

عماد الدين خليل : الدكتور

- ملامح الانقلاب الاسلامى فى خلافة عمر بن عبدالعزيز (بيروت ١٩٧٠)

العمرى : (٧٤٩ هـ) ابن فضل الله العمرى

- مسالك الابصار فى الممالك والامصار (القاهرة ١٩٢٤).

فان فلوتن : (ج)

- السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى أمية ، ترجمة دكتور حسن ابراهيم وآخر (القاهرة ١٩٣٤)

ابو الفدا : (٧٣٢ هـ = ١٣٣١م) اسماعيل بن على عماد الدين

- المختصر فى اخبار البشر (المطبعة الحسينية بالقاهرة).

فيليب حتى : الدكتور

- تاريخ العرب (بيروت ١٩٥٠)

فلهـــوزن : (يوليوس)

- الدولة العربية ،ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة (القاهـــرة ١٩٥٨)

ابن قتيبـــة : (+٢٧٦ هـ=٨٨٩م) ابو محمد عبد الله بن مسلم.

- الامامة والسياسة (القاهرة ١٣٢٥هـ)

- المعارف (القاهرة ١٩٣٥).

- عيون الاخبار (القاهرة ١٩٢٥)

القلقشندى : (٨٢١هـ=١٤١٨م) أبو العباس أحمد

- صبح الاعشى فى صناعة الانشا (الطبعة الاميرية بالقاهرة ١٩٩٤)

ابن كثيـــر : (٧٧٤ هـ) عماد الدين أبو الفدا اسماعيل الدمشقى

- البداية والنهاية (مطبعة السعادة بالقاهرة).

كـرد علـــى :

- الاسلام والحضارة العربية (القاهرة ١٩٣٦).

كريمـــــر : (فون)

- الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الاجنبية ،ترجمة الدكتـــور / طه بدر (القاهرة)

الكنـــدى : (+٣٥٠ هـ =٩٦١م) أبو عمر محمد بن يوسف

ـ كتاب الولاة وكتاب القضاة ، (بيروت ١٩٠٨).

لوبـــون : (جوستـــاف)

ـ حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر (القاهرة ١٩٤٨)

المـاوردى : (+٤٥٠هـ = ١٠٥٧م) أبو الحسن على بن محمد بن حبيـــب

البغدادى البصـــرى.

ـ الاحكام السلطانية (القاهرة ١٢٩٨هـ)

المبـــرد : (٢٨٥هـ) أبو العباس محمد بن يزيـد

ـ الكامل (القاهرة ١٩٢٣).

محمد جمال الدين سرور : الدكتور

ـ الحياة السياسية فى الدولة العربية الاسلامية (دار الفكر العربى بالقاهرة)

المسعودى : (+٣٤٦هـ = ٩٥٦م) أبو الحسن على بن الحسين بن على

ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر (القاهرة)

ـ التنبيه والاشراف (القاهرة ١٩٣٨).

المقريـــــزى : (+٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م) تقى الدين احمد بن على

ـ النزاع والتخاصم فيما بين بنى امية وبنى هاشم (القاهرة ١٩٢٧)

ابن النديـم : (+٣٨٣ هـ =٩٩٣م) محمد بن اسحاق النديم البغدادى

ـ الفهرست ، جزءان (القاهرة ١٣٤٨ هـ) .

النـــدوى : أبو الحسن على

ـ رجال الفكر والدعوة فى الاسلام (دمشق ١٩٦٥)

النويـــــرى :

ـ نهاية الارب فى فنون الادب (القاهرة ١٩٣١) .

ياقـــــوت : (+٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموى .

ـ معجم البلدان (القاهرة ١٩٠٦)

اليعقوبـــى : (٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م) أحمد بن ابى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضـــح .

ـ تاريخ اليعقوبى (النجف ١٣٥٨ هـ) .

أبو يوسف (+١٩٢هـ =٨٠٧ = ٨٠٨م) يعقوب بن ابراهيم

ـ كتاب الخراج (القاهرة ١٣٠٢هـ) .

ثانيا : المراجع الافرنجية

Gibb and Kramers:

- Shorter Encyclopaedia of Islam (Leiden 1953).

Hell: (Joseph):

- The Arab Civilization (Lahore 1943).

Irving: (Washington)

- A History of the Lives of the Successors of Mohammed, (Paris 1850).

Khuda Bushcsh: (S).

- Contributions to the History of Islam, 2 Vols. (Calcutta 1930).

Kremer: (Alfred Von).

- The Orient Under the Caliphs, Translated by Khuda Bushcsh, (Calcutta 1920).

Lammens: (H.).

- Etudes Sur le Regne du Calife Omaiyade Moawia lèr (Beyrouth 1926).
- Etudes Sur le Sieck des Omayyads (Beyrouth 1936).

Lane-Poole: (Stanly).

- The Muhammadan Dynastus, (Paris 1925).

Mawlana Muhamad Ali :

- Early Caliphate, (Lahore, India 1932).

Muir: (William Temple).
- The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall, (Edinburgh 1924).

Nicholson: (A. Raynold).
- A Literary History of the Arabs, (London 1923).

Ockly: (Simon).
- The History of the Saracens, (London 1847).

Perier: (Jean).
-Vie d'Al Hadjadi ibn Yousef, (Paris 1904).

Shedd: (William).
- Islam and the Oriental Churches (Philadelphia 1930).

Sykes: (Perey).
- A History of Persia (London 1921).

ورجعنا الى مراجع افرنجية مترجمة الى اللغة العربية بيانها فى قائمة المراجع العربية